يقظة الروح

مفاهيم أولية عن حقائق الصحوة الروحية

الجزء الأول

عبدالرسول محمد الزاهد

يقظة الروح

الجزء الأول

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
alab3ad@hotmail.com

يقظة الروح

مفاهيم أولية عن حقائق الصحوة الروحية

الجزء الأول

بقلم:

عبد الرسول محمد الزاهد

الطبعة الأولى 2021

الإهـــداء

إلى أصل الأصول، وسر القبول، وباب الوصول، سيدنا وحبيبنا محمد أكرم نبي وأعظم رسول ذو الجاه والقبول والمدد الذي لا يزول..

إلى أهل بيته الذين حيروا أولي الألباب والعقول، وأصحابه النجباء الأصفياء أولي المكرمة والطول..

إلى أرواح الأنبياء والأولياء والصديقين والشهداء والملائكة الذين لا يسبقونه بالقول..

إلى الأرواح المرشـــدة الهـاديـة التي كـان عطـاؤهـا للعـالمين موصول..

إلى روح والدي جناحاي من الدنيا..

إلى روح روحي وثمرة فؤادي ولدي هاشم..

إلى الأرواح المتعطشة لليقظة الروحية.. وإلى العقول الباحثة عن الحقيقة..

أهدي هذا العمل المتواضع سائلاً المولى عز جل أن يتقبله بقبوله الحسن إنه ولي التوفيق..

المقدمة

اليقظة الروحية والطريق إلى الله والسفر الروحي بقصد قرع أبواب المعرفة الإلهية من أيسر الطرق وأكثرها اتساعاً ورحابة، وأعظمها عمقاً وغزارة، وأبسطها مسلكاً ومسارا، وأفخمها غبطة وهناءً.. فهو الطريق الوحيد الذي لا تحتاج فيه إلى شيء سواك، ولا يمكن لأحد القيام به نيابة عنك خلاك، متطلباته صُيرت لتكون طوع أمرك وهواك، فأنت المُعَبِد والعَابد والراحل والمرتحل، إن شئت المسير تطوى لك الفيافي والأمصار فيكون أقرب إليك من حبل الوريد، وإن شئت الرحيل تجمد عقارب الزمن لتبدأ في الوقت الذي تريد.

هو الطريق الوحيد الذي لا يكلفك مالاً ولا تنقلاً وارتحالا، ولا يشترط عمراً ولا جنساً ولا سُلطة ولا تخصصاً واكتمالا.. عادة حين ترتحل مسافراً قاصداً زيارة قريب أو صديق أو حبيب يستقبلك حين تصل، ويأخذك بالأحضان حين تفد، أما السفر إلى الله فيختلف لأنه سيكون معك قبل الطريق وأثنائه وعند وصولك، فهو ملازم لك طوال رحلتك وسفرك، ينتظرك متى تبدأ، متى تتحرك، متى تحتاج إلى شيء ما فيعينك فيه.. هو ينتظرك بكل حالاتك ويوعز لك بشتى أنواع الطرق والوسائل لتبدأ هذه الرحلة.

ليس هذا فقط.. إنما يثير فيك شجون العودة إليه، ويؤلب مشاعرك ليتوق فؤادك تولعاً به، ويعاملك كطفل لطالما تمرد

بطغيان أناته فصبر عليه.. يحاكيه تارة بالآيات المحكمات ويثيره بالإشارات الدالات، وتارة أخرى بالنعم والهبات والعطايا الماثلات، وأخرى يشد انتباهه بالمظاهر الطبيعية والمتعينات، وأخرى بتحييد مساره بصور الابتلاءات والمنغصات، كي يصحو ويتيقظ ويعقد العزم ليبدأ رحلته الروحية..

ولكن بالرغم من كثرة صور الترغيب التي قل نظيرها في الطرق الأخرى، فقليل هم الذين يبدؤون، وثلة هم الذين يسيرون، ونزر هم الذين يتيقظون، فمع كثرة الطالبين الراجين لطريق الروحانية والسفر إلى الله، إلا أن من يبدأ المسير بوعي قلة، ومن يستمر في المسير ثلة.. هو طريق كُثر طالبيه نُزر واصليه، راجيه كثيرون والمرتحلون إليه قليلون.

عزوف الناس عن هذا الطريق لا لصعوبته ومشقته ولا لغوره وشدته، بل لأنهم تبرمجوا على أن الدين عَقدٌ وتقليد وفعل وأفعال، لا تأمل وتمعن وتفكر وتدبر ووعي وذكر بالغدو والآصال، وأن الحياة دار بؤس وشقاء وفتنة واقتتال، فأخذ الوهم لباب العقول حين جعل ظاهر العبادة غاية الكمال، وأوعز إليهم أن أداء طقوس وشعائر الأعمال هو حد المآل، وأن تكليف الشرع ينحصر بما حوته كتب التراث من أقوال، ينال بها المرء خاتمة السعادة وحسن الحال، فلا شيء يكمن خلف الأعمال، لا سفر ولا مسير، ولا روح، ولا تجلي، ولا بصيرة، ولا لقاء، ولا يقظة، ولا حب ولا عشق ولا جمال. وأن كل مشاعر الوصل والاتصال والوجد والهيام والجذب مجرد خيال وتحققها شيء محال.

هذه النظرة القاصرة لمفهوم الدين عمت السواد الأعظم من الناس وغيبت البعد الروحي واختزلت العبادة في السلوك الظاهري الشعائري والاستنباطي الفقهي، فأضحت المعارف

الروحية غريبة عنهم، دخيلة على الوعي الديني، بعد أن كانت الأصل والجوهر التي نبعت منه رسالات السماء عامة والدين الإسلامي خاصة.

ولإعادة شذرات مقتضبة من الوعي الروحي التي عمدت آلة الوعي الجمعي على طمسها وتغييبها كانت لنا وقفات على مدى أكثر من 30 عاماً في بحث وإثارة جملة من المفاهيم الروحية ومقاصد العبادات الظاهرية وبيان حقائق تنويرية عن حقيقة وجود الإنسان وأبعاده الخفية جمعناها في عدة كتب، نستعرض فيها بحوثاً ومواضيع تم نشرها في مجلة الأبعاد الخفية وفي المواقع والمنتديات والمحاضرات عسى أن تكون حافزاً ومرشداً ودليلاً كي نضع أقدامنا على بداية الطريق ونبدأ رحلتنا الروحية من جديد.

هذا العمل المتواضع القاصر الذي نرجو من الله قبوله بكرمه وإحسانه تذكير لما هو مستودع في فطرة كل واحد منا، وإثارة لأفكار طالما راودتنا، وإزالة للعوالق المتراكمة عن الوعي المستتر في أعماقنا، وإزاحة لمفاهيم ومعتقدات شكلت حاجزاً بيننا وبين الحقائق الوجودية والروحية، هذه الحقائق الأولية التي تمثل بذرة صغيرة في رحلة الإنسان الروحية التي يقطعها في حياته الأرضية وتطوره الروحي وصولاً إلى مرحلة اليقظة والقرب من الحضرة المقدسة.

فالإنسان مهما ارتفعت درجته وعلت مكانته الشكلية الظاهرية يبقى ذلك الصوت الخافت في أعماقه، وذلك الحنين المتوهج بالشوق، وذلك الفراغ الروحي الذي لا تسده ولا تشبعه كل مظاهر وشكليات الطقوس الشعائرية العبادية مطلباً فطرياً وجدانياً وروحياً في كل واحد منا.

فالله لا يدخرنا ولا يهيئنا للعالم الآخر كي نعرفه، والإنسان ليس مناطاً بالمعرفة الإلهية في عالمه الآخر فقط.. الله يريد أن يكون في قلوبنا وأفكارنا وأرواحنا وعقولنا ونحن في هذا العالم، يريدنا أن نتعرف عليه بلباسنا الأرضي، وهذا أحد أهداف الخليقة البشرية.

لذلك فهو يتحدث إلينا على الدوام ولكن قلائل هم الذين يسمعون صوته. ذلك الصوت المقدس الهادئ الذي غالباً ما يطغى عليه ضجيج الأفكار الصاخبة والملذات الصارخة والمعتقدات البالية والتصورات الخاطئة.

لكن عندما تهدأ الأفكار وتضعف وتيرة الرغبات نسمع صوت الله بكل جلاء ووضوح في أعماقنا عبر إلهاماته وإشاراته وهمسات ملائكته.. حين تبدأ بخطوتك الأولى ستكون بعينه وتحت نظره يُعينك ويساعدك في كل شيء، يفتح أمامك الأبواب ويضيء لك الدرب لتتبين مواقع خطواتك فلا تتعثر ولا تزل قدمك ولكن أكثر الناس لا يدركون هذه الحقيقة لأن أكثر الناس لا يعلمون.. لا يدركون.. لا يفقهون.

لا يمكن بلوغ المعرفة والحقائق الروحية بمجرد الإصغاء إلى الآخرين أو مطالعة الكتب أو حضور المحاضرات والندوات. ينبغي أن نُقر ما نقرأ، بمعنى أن نتحقق عمليا ما نقرأه. ينبغي أن نعيش التجربة الروحية بكل حيثياتها مع من نحب وندعو ونناجي ونأنس.

أداء طقوس العبادة أمر مهم في حياة المؤمن، ولكن ما فائدة هذه الطقوس إن لم نستشعر خلالها وهج الحضور الإلهي المبارك في قلوبنا وأرواحنا. ما فائدتها إن لم نتيقظ روحياً ونعي حقيقة دورنا في الحياة. السلوك الآلي الحركي في أداء الشعائر الدينية لا يعول عليه في تطورنا الروحي لأنه سلوك ظاهري لا يلامس عمق أرواحنا التي تحن إلى نفحاته المباركة المقدسة. كما

أن التوجهات العاطفية المؤقتة والتحليلات العقلانية الجامدة لا يمكنها أن تمنحنا المعرفة التي تحن قلوبنا لتنهل منها..

عندما نسلم دفة سفينة حياتنا لرياح المشيئة الإلهية بعد أن نتخلص من نوازع الرغبات الآنية، ونتيقن أن الله معنا على الدوام، يلامس أرواحنا ويلهمنا الأفكار والمشاعر الطيبة النبيلة سنحظى بغبطة روحية وألق باطني سنعاين من خلاله إشراقة شمس الحكمة في أفق أرواحنا.

اليقظة الروحية تمنحنا العزيمة والإرادة والوعي لنجعل الله جزءاً لا يتجزأ من حياتنا وعندها سنحصل على كل ما نحتاجه في هذه الحياة.. سنحصل على الحياة الطيبة التي وعدنا بها ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ من يجعل لله مكاناً دائماً في قلبه، يجعل له نصيباً وافراً من خيرات الأرض والسماء ويفتح أمامه آفاقاً واسعة تسطع فيها شموس الحكمة فتنير دروبه وتبدد الظلام من حوله.

الله هو المحب الأبدي ولا سعادة للإنسان إلا عندما يحب الله كمحبته - على أقل تقدير - لأعز الناس إليه، فلولا الله لما عرفنا ماهية الحب ولا تذوقنا طعمه. ومن لا يستشعر ويتذوق صبابة المحبة في الدنيا لا يتذوقها في الآخرة.

كلنا نرجو السعادة والحياة الطيبة.. ولكن على الرغم من رغبتنا هذه إلا أننا نادراً ما نخصص وقتاً من حياتنا ليقظتنا الروحية وللبحث عن الله أو سلوك طريق المعرفة.. لأننا نعتقد أننا نعرفه فلا داعي للبحث عنه.

نعتقد أننا نعرفه، قرأنا عنه في الكتب، سمعنا عنه في المحاضرات، حدثنا عنه آباؤنا وأساتذتنا، ولكن هل تكفي هذه

المعرفة النظرية الهامشية لتمنحنا حياة سعيدة طيبة. يعيش الواحد منا ردحاً من الزمن لم يفكر يوماً أن يقتطع من حياته وقتاً يسكن فيه بهدوء إلى ذاته، أمسية يبحث فيها بعمق عن حقيقة وجوده وعلاقته مع الله بكل صدق وشفافية.

لقد أوهمونا حينما قالوا: "أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر".. لأنهم لم يعرفوا جنة العيش مع الله في الدنيا والتلذذ بفيوضات رحمته وحنانه الإلهي اللدني. لقد ركزوا في أدبياتهم على الجانب المادي الشكلي في العبادات ونسوا أن هناك عالماً آخراً يمتد خلف ستار المادة ليفيض على جوهر روح الإنسان وينور حياته وقلبه ويريه حقيقة الجنة التي يبحث عنها.

في هذا العمل المتواضع القاصر شذرات قد تنبهنا وتوقظنا لنعيد توجيه بوصلة أفكارنا ورؤانا المعرفية والروحية حول علاقتنا بأنفسنا وبخالقنا وبالآخرين وبالطبيعة من حولنا. وتحفزنا لنطرق باباً تم هجرانه منذ أمد بعيد، باباً قد يجعلنا نعيد حساباتنا فيما يتعلق بحقيقة وجودنا الأرضي.

تجنبنا في هذا العمل التعقيد المفتعل والإشارات الغامضة والمصطلحات المبهمة حتى نوصل الأفكار والرؤى بما يتناسب مختلف مستويات الوعي وتعم الفائدة للجميع بإذن الله تعالى. كما تعمدنا الإسهاب والتفصيل في شرح واستعراض بعض الأفكار المهمة التي ينبغي استيعابها جيداً لأنها بمثابة المفاتيح الأولية والتصورات الأساسية والركائز الروحية التي تبنى عليها الأفكار الأخرى وتندرج تحتها باقي الأمور الفرعية. فتثبيت الدعائم الروحية أمر في غاية الأهمية لبناء صرح متين صلب يقوم على بصائر الوحي والتأمل في آيات الله عز وجل.

كما سعينا ليكون هذا الكتاب أداة لمحاكاة الباطن وإثارة لدفائن الملكات الروحية عبر تقنيات نفسية من خلال إعادة صياغة بعض العبارات والمفردات وتكرارها بصور وأشكال مختلفة لتغرس في ذاكرتنا وتنقش في وعينا لما لها من أهمية في يقظتنا الروحية. فتكرار بعض الأفكار والعبارات والتركيز على بعض المفردات كاليقظة، الروح، الحب الروحي، صحوة روحية، الذكر القلبي، فيض المحبة، الحضور الحقيقي، نقلة نوعية، توجه قلبي، التألق الروحي، حياة طيبة، وغيرها من مفردات مشابهة تتحول مع تكرار قراءتها والنظر إلى رسم حروفها إلى إثارة ونداء داخلي يستحث الباطن ويحفز الأعماق ويحرك البواعث الداخلية لليقظة والتغيير، ويحرض مشاعر ذواتنا الحقيقية لنتذكر أصولنا الروحية.

والله أسأل أن يتقبل منا هذا القليل بكرمه.. إنه ولي التوفيق.

اليقظة الروحية

واقعنا وأهدافنا الحقيقية

قليل منا من يقف وقفة جادة مع نفسه ويتساءل عن حقيقة وجوده في هذه الحياة، وقفة صريحة وصادقة بكل معنى الكلمة، وقفة بعيدة عن التقليد الفكري المتوارث، وبعيدة عن المفاهيم التي أدخلناها قسراً في أفكارنا وعقولنا منذ الصغر. وقفة نتساءل فيها عن سر وجودنا في هذا العالم وعلى الخصوص في خضم متغيرات الحياة الكثيرة والمتسارعة التي نعيش فيها.

وهذه الوقفة الجادة ينبغي أن تتضمن أهم سؤال نطرحه على أنفسنا.. هل حققنا أهدافنا في الحياة؟ هل وصلت أرواحنا إلى أسمى غاياتها التي ترجوها؟ ما الآثار والتجارب والخبرات التي اكتسبناها أثناء وجودنا الأرضي؟ وما التغيرات التي أحدثناها في الآخرين؟ هل استثمرنا طاقاتنا وملكاتنا الروحية التي أودعها الله فينا كما ينبغي؟

كثير منا يرتحل عن الحياة دون أن يقترب من معرفة هدف وجوده الحقيقي، فيرجع خاوي الوفاض من حيث أتى، بل ربما يتعثر في طريق عودته ببعض العثرات التي قام بها أو بدرت منه أثناء حياته. قد يحظى برصيد من أعماله الصالحة وعباداته المتعددة وسلوكياته الدمثة، ولكنه حين يصل إلى موطنه الأصلي ويراجع عهده الذي ألزم نفسه بالوفاء به قبل

أن يتجسد في الحياة، تعتريه حالة من الألم والحزن والأسى. لأنه بمجرد أن يرتحل عن هذه الحياة أو حتى أثناء ارتحاله، تنكشف له العديد من الحقائق التي كانت مغيبة عنه حين يُكشف غطاء بصيرته ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ فيرى أنه قد قضى عمره في أوهام الظلال الأرضية وصور الحياة الزائفة والتماهي مع روتين الحياة، ولم يلتفت إلى هدفه الحقيقي الذي من أجله خلقه الله.

بعد أن ينتقل إلى العالم الآخر ويعاين سيناريو حياته بكل تفاصيله، يجد أن سلوكه في الحياة التي عاشها سنين طويلة أشبه بسلوك طفل شقي. وحين ننعت أو نصف طفلاً بالشقي، فذلك لطيشه وتهوره وتسرعه ولامبالاته في تصرفاته غير المسئولة وغير الهادفة.. تصرفات يغلب عليها العبث واللهو والمتعة والطيش، وعدم اللامبالاة. وعادة ما يتجاهل ويستهين بكلمات النصح والإرشاد التي تطرق سمعه، فيسعى لتحقيق ما يريد وينفذ ما عزم عليه، حتى لو وقع في العديد من المآزق. هكذا يكون حال الطفل الشقي في العادة.. طفل تصعب السيطرة عليه وتوجيهه.

لذلك يقول كثيرٌ ممن يرتحلوا للعالم الأخر، وبعد أن يشعروا ويتلمسوا المفارقة الكبير بين العالمين، وما تمثله الحياة الأخرى بالنسبة للحياة الدنيا: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ يرون أن حياتهم التي عاشوها بالنسبة للحياة الأخرى أشبه بشقاوة الأطفال.

لأنهم حين يرونها بعين الكشف والبصيرة يجدونها لا تعدو مجرد، طيش وتهور واهتمام بالقشريات وتكالب على الماديات وجري خلف المسميات، لهو ومرح، حتى في الأعمال التي كانوا يظنونها ويحسبونها حسنة وصالحة، يتضح لهم فيما بعد أنها غير ذلك ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ

أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ يقول هؤلاء أن سلوكهم غير الهادف هو الذي غلب وطغى على أوجه حياتهم وبالتالي أنساهم أهدافهم الحقيقية التي كان ينبغي أن يضعونها نصب أعينهم.

لذلك حين يُكشف الغطاء عن بصيرة الإنسان ووعيه، يعرف أنه كان يجاري الحياة ويعيش على هامشها، يقضي أيامه تباعاً، يُساير أحداثها وتقلباتها، يتلبس بتقاليدها، يتشرب بمعتقداتها، وينهل من ثقافتها وأفكارها ويتماهى مع كل شيء فيها، وبالتالي تصطبغ مبادئه وقناعاته وتصوراته بطابعها دون أن يكون له دور فيها. لقد أمعن النظر فيها فأعمت بصيرته وقادته بالشكل الذي تريد، لم يُبصر بها كي تبصره وتكون طوعا لخدمته.. لم يتفكر أو يتأمل بحقيقتها وبعلة وجوده فيها، إنما انشد إليها فابتلعته وأخذته بزينتها وزخرفها ولهوها ومتعها.

حين يعيش الإنسان على هامش الحياة، تُنسخ شخصيته لتكون مثيلاً كالآخرين، لأن من لا يريد أن يكون شيئاً فإن شخصيته تنحل في شخصيات الآخرين، فيكون نسخة منهم. حين لا يُريد، ولا تكون له إرادة أن يُريد، أو لا يفكر أن يكون شيئاً مميزا عنهم إنما مسايراً وتابعا لهم، فسيكون نسخة عنهم. بل نسخة عن كل مساير للحياة، يعتقد بما يعتقدون، ويفكر بما يفكرون، يعمل ويأكل ويتزوج وينام ويتناسل ويرفه عن نفسه يشب على هذا الحال حتى يشيخ إلى أن يوافيه الأجل المحتوم لينتقل إلى العالم الذي جاء منه.. يدور في طاحونة الحياة كما يدورون.

البعض يستهجن ويستنكر سلوك الأمم والأقوام التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، الذين كانوا يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ كثير منا يقرأ هذه الآية ويمر عليها مراراً وتكراراً أثناء حياته. نمر عليها مستنكرين ومشنعين تصرف سلوك هذه الأمم التي اتبعت برمجة الوعي الجمعي واقتفت آثار آبائهم فيما يتعلق بالمعتقدات والتقاليد والتعاليم والأفكار.

معتقدين أن الله ينقل لنا صورة من سلوكيات أمم ومجتمعات قديمة بائدة، في حين أن الله يحذرنا وينبهنا من خطورة أن نحذو حذوهم ونتأسى ونحتذي بهم ونتبع سلوكهم ونتمثل منهجهم في الحياة.

الخطاب القرآني حين يتناول سلوك الأفراد أو الأمم والمجتمعات يهدف لتنبيهنا ولفت أنظارنا ويدعونا لمحاكاة الصورة القرآنية مع الواقع الذي نعيشه، أي أن نراقب انعكاس الآية على واقعنا، ونتساءل هل نعاني كأفراد وكجماعات في زمننا هذا ما كانت تعانيه تلك المجتمعات من اتباع وتقليد أعمى وتبني منظومة الوعي الجمعي؟.

الله عز وجل ينقل نمطاً سلوكياً ينبغي أن نعكسه على أنفسنا، ولكننا نمر عليه مرور الكرام، نقرأه وكأنه سلوك نشاز لا يمت لنا بصلة أو يعنينا بشيء وأنه غير متعلقة بنا، وكأن الخطاب يتعلق بأناس آخرين. يعطينا مثلاً في طريقة آلية تفكير الأمم البائدة والمجتمعات الغابرة ليقول لنا: تحققوا من أنفسكم وراقبوا طريقة تفكيركم هل أنتم مثلهم هل تفكرون كما كانوا يفكرون.

تارة نُسقط بعض الآيات على أنفسنا حين نقرأ مثلاً قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ﴾ فنقول الحمد لله نحن بعدين عن هذا السلوك، فننفي صفة القتل فينا، ولكن حين نمر على آيات أخرى، كآية (الآباء) التي ذكرناها نتعامل معها كصورة تاريخية، نأنف تأملها أو إسقاطها على حياتنا أو طريقة تفكيرنا، متسائلين هل ينطبق مفهوم هذه الآية فيما نحمله من أفكار ومعتقدات في حياتنا أم لا؟

فالله عز وجل لا يذكر الأقوام البائدة ويقص علينا قصصهم كنوع من الترفيه أو التسلية إنما كي نتأمل ونتفكر ونقارن أحوالنا ومبادئنا وعقائدنا وأفكارنا بهم. ولو راجع كل واحد منا

نفسه سيجد أن هذه الصفة متجذرة فيه، فواقعنا يعكس صورة شبيهة لآلية التفكير والتقليد الأعمى التي تذكرها الآية الشريفة، لقد وجدنا أسرنا، مجتمعنا، محيطنا، طائفتنا، مذهبنا، قبلتنا على أمة.. على نهج، على تقاليد، على أفكار ومفاهيم، وسرنا في ركبهم واقتفينا أثرهم، وتقيدنا بتعاليمهم، وأصبحنا نسخة طبق الأصل عنهم. دون أن نتفكر أو نتأمل في هذه المعتقدات والأفكار والمسلمات. أصبحنا شبيهاً لهم فيما يعتقدون، وصورة عنهم فيما يفعلون. وهذا ما نقصده بالمجاراة ومسايرة الحياة الذي سنتكلم عنه.

فهل خلقنا الله لنكون نسخة طبق الأصل من غيرنا. أن نعيش ونجاري واقع الحياة وما وجدنا عليها آباءنا وأسرنا ومجتمعاتنا. أن نُغيب أهدافنا الشخصية الروحية وننصهر ونذوب في آلة الحياة الكبيرة. هل لهذا الروتين القاتل أوجدنا ربنا سبحانه وتعالى؟

طاحونة الرحى ومجاراتها نمط سلوكي انغماسي يعيشه السواد الأعظم من الناس، يطلق عليه القرآن الكريم بالسلوك البشري. فمفهوم كلمة "البشر" في القرآن تشير إلى الكيان أو الهيكل المادي وحركته في الطبيعة وسعيه لتلبية متطلباته وحاجاته الضرورية التي تمكنه من العيش على هذه الأرض. أي حركته التي تغذي مستلزمات وجوده المادي. لذلك يقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ من حيث الشكل ومتطلبات الجسد كالأكل والشرب والنكاح والمسكن وغيرها من أمور أخرى، فالنبي يشترك مع غيره ظاهراً وشكلاً، ولكنه يختلف من حيث الجوهر ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ فتحقق الوحي يتطلب شيء أكثر من كون المُوحى إليه مجرد كيان خارجي. كما نطلق مسمى "الطب البشري" على العلم الذي يتخصص بمداراة الجسد المادي، وليس له علاقة بالجوانب النفسية أو الروحية. ولعل كلمة "البشرة" والتي تعني الطبقة

الخارجية الخلوية من الجلد أو ظاهر الجلد، مصداق آخر لمفهوم البشر التي تعني الهيكل الخارجي بكل مكوناته وأبعاده المادية.

بينما مفردة "إنسان" تشير بالإضافة إلى بشريته - أبعاده المادية - التي يتحرك ويعيش بها في الحياة، تشير إلى العمق الباطني المفعم بالمعنويات والأهداف الروحية والربانية. تشير إلى ذلك المخلوق المؤهل ليكون خليفة الله في أرضه. فكونه إنساناً فهو بشراً بديهياً، ولكن ليس كل بشر إنسان - ولا نقصد بكلمة إنسان ما هو متعارف عليه كتوصيف جنس للكائن - ومن هنا تأتي حكمة سجود الملائكة لآدم، فالله لم يأمر الملائكة بالسجود لآدم البشر، وإنما أمرهم بالسجود بعد التسوية، أي بعد أن أودع فيه تلك الملكات الروحية ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِن طِينٍ.. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُ سَاجِدِينَ﴾.

ولكن ما علاقة المفردتين بحديثنا عن مجاراة الحياة؟

لا يمكننا إدراك تأثير رحى المجاراة في حياتنا ما لم نفرق بين المفردتين كي نحدد موقفنا وسبب معاناتنا وشقاؤنا فيها. فمعظمنا يعتقد أن الحياة مجرد أيام عابرة نعيشها ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾، يتلو بعضها بعضاً، مجموعة متوالية من الدهور، دهر يعقبه دهر. والدهر الفترة الزمنية التي تمر على الكائن البشري والتي عادة ما تكون محملة بالصعاب والمكاره والمنغصات والآلام الكثيرة والصعبة. لذلك ينبهنا القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة: ﴿وَقالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَياتُنا الدُّنْيا نَموتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾، بمعنى أن هذه الحياة نعيشها بما تحمله من صعوبات ومشاق ومنغصات هي التي سوف تقضي

علينا في نهاية الأمر، ولا شيء آخر غير ذلك. أشبه بفترة زمنية مؤقتة نعيش آلامها في ضنك ومعاناة وعذاب ثم نرتحل عنها ويُسدل الستار على حياتنا، وننتهي، وتنتهي قصة وجودنا في هذه الحياة. كثير من الناس يعيشون هذا السيناريو الذي تعكسه الآية الكريمة.

إذا كانت رؤيتنا للحياة بهذه المحدودية، مجرد روتين يومي ننغمس فيه، دهور نكابدها، آلام نقاسيها، أحداث نجاريها، لا يوجد يوم جديد، فكلها أيام متشابهة يتلو بعضها بعضاً. نكرر فيها ذات السلوك والمنحى دون تغير في الوعي أو تفحص للمعارف أو تحرى عن الحقائق.. خالية من أية بادرة تطور روحي فإننا نجسد مفهوم البشرية لا الإنسانية، لأن مفهوم الإنسانية يجعلنا ننظر للحياة على أنها إفاضات متغيرة على التوالي، أشبه بمجرى نهر متجدد على الدوام، أشبه بلغز ينبغي حله بالتفكر والتمعن والتأمل. الإنسان ينظر للحياة كأهم مرحلة من مراحل تطوره في هذا الوجود.

حياتنا البشرية أو وعينا الخارجي مطلب حيوي مهم وأساسي تمكننا من العيش في الحياة في بعدها المادي، فالبشرية هي ما تجعلنا نتعامل مع مفردات ووقائع الحياة التي نعيشها من أكل وشرب وعمل وذكاء وتفكير وتخطيط وتناسل وترفيه، وأمور أخرى كثيرة، وهذا أمر طبيعي وفطري لكل مخلوق. ولكننا بحاجة علاوة على ذلك أن تكون لنا بصيرة في الحياة، يكون لدينا أهداف روحية سامية، بحاجة إلى أن نعرف حقيقة أنفسنا وسر وجودنا، فلا يكفي أن نعيش ولكن ينبغي أن نعلم لم نعيش ولأي هدف خُلقنا.

نتعلم في البشـرية عمارة الأرض كي نحيا عليها، أما الإنسانية فتجعلنا خلفاء على هذه العمارة، كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

الله عز وجل يريدنا أن نتحول من البشـرية إلى الإنسانية، من كوننا مخلوقات أو كيانات تجاري وتساير واقع الحياة إلى مخلوقات واعية مفكرة ومتأملة.. من كوننا متأثرين بما حولنا إلى مؤثرين فاعلين نحقق أهدافنا التي جئنا من أجلها.

يريدنا أن نتحول من الهوس الذي يحصر كـل طاقاتنا التي ركزناها في المعيشة ولقمة العيش والتناسل والترفيه والعمل والمنصب والسمعة والوجاهة، إلى الاهتمام بجوهر الحياة وبالبصيرة الروحية والتعمق في أبعادها الباطنية.

لذلك شرع لنا العبادات وهو غني عنها.. الله غني عن طقوسنا وعباداتنا، ولكنه أوجبها وشرعها وأمرنا بأدائها كي تفتح لنا أبعاد الوعي الروحي وتقربنا من أهدافنا الحقيقية في هذا الوجود، ولكننا مع الأسف الشديد، حتى هذه العبادات التي ينبغي أن تأخذ حيزاً مهما من التأمل والتفكر والوعي أصبحنا نجاريها كما نجاري العديد من مفردات الحياة ومعتقداتها.

وهذا ما جعل حياتنا تدور في رحى روتين قاتل نعيشه لأننا حصرناها في أطر ضيقة من اهتماماتنا، حصرناها في قوالب تفكيرنا ومفاهيمنا عنها، في رؤيتنا القاصرة تجاهها. فنحن أشبه بمن يعيش في غرفة صغيرة ضيقة تقع في حديقة غناء مليئة بالزهور والألوان والهواء المنعش تحيطها الطبيعة الساحرة والخلابة من كل مكان، واهمين أن الحياة، كل الحياة محصورة بين حيطان هذه الغرفة التي قيدنا أنفسنا بحدود مساحتها الضيقة. قيدتنا المعتقدات والأفكار المادية عن الحياة لتجعلنا نعيش الآلام والمعاناة داخل هذه الغرفة الكئيبة. لقد

فهمنا بعداً محدوداً من الحياة واعتبرناه هو الحياة، الغرفة لا تعني الطبيعة. آفاق رحبه جعلها الله في متناول أيدينا كي نختبرها ونسبر غورها ونتحرى أبعادها، تجاهلناها وتغافلنا عنها وفضلنا أن نعيش في حدود حواسنا المقيدة.. فضلنا أن نعيش داخل الصندوق أو الغرفة الضيقة.

كما في العبادات كذلك في الأفكار والمعتقدات، التي كان ينبغي أن تحلق بنا عالياً في سماء الملكوت الأعلى، نجد أنها صيغت وفق مفرداتنا وتصوراتنا المحدودة ورؤانا القاصرة، فضاقت علينا الأرض بما رحبت.

لقد ضيقنا الخناق على أنفسنا في فهم واستيعاب حقيقة الحياة، ومن هنا نفهم معنى الحديث "التفكر ساعة خير من عبادة ليلة" وفي حديث آخر "لا عبادة كالتفكر.." لأن التفكر والتأمل يجعلنا نفهم رحابة وسعة الحياة، يجعلنا نلامس أبعاداً متعددة من الوجود، يخرجنا من الغرفة الكئيبة إلى جنة من وارفة الضلال. يعرفنا التفكر أن الحياة ليس مجرد أبعاد مادية. يخرجنا التأمل من النظرة الضيقة المحدودة التي تشرنقنا بها، ويحلق بنا في فضاء لا نهاية له، التفكر يخرجنا من القوالب الفكرية البشرية المحدودة التي قننا بها معتقداتنا تجاه هذه الحياة.

ومن هنا نعلم لماذا لا يُعير المتأمل أو المتفكر أو الروحاني لمتع الحياة المادية أية أهمية، وينظر لها بازدراء ولا مبالية.. لا لأنه لا يحتاج إليها، ولا لأنها غير ممتعة، ولا لأن هناك أمراً أو تكليفاً يدعوه لذلك، ولكن لأنه شهد وتلمس ما هو أعظم بكثير منها. خرج من ضيق الحدود والحواس، فتهاوت في نفسه كل صور وأشكال المكونات.. خرج من الكون إلى المكون، فاتسعت آفاقه واغتبط بروعة ما يشهد من البهجة والجمال والجلال، فما يشهده ويلمسه لا يقارن بأعظم متعة من متع الدنيا، متعة لا

تضاهيها أي متعة أخرى، فمن خلالها يتذوق فيض المحبة الحقيقي، تتألق روحه بالنور الأبدي الإلهي، وأين هذا من ذاك. لذلك نقرأ في مناجاة المحبين لزين العابدين (ع): "إلهي من ذا الذي ذاق حلاوة محبتك فرام منك بدلا، ومن ذا الذي أنس بقربك فابتغى عنك حولاً".

يريدنا الله أن نختبر ونلمس هذه المشاعر والأحاسيس ونتذوق حلاوة فيض نوره أثناء حياتنا. أن تكون لنا قدم هنا وقدم في العالم الروحي. يريدنا أن نحطم الأغلال التي قيدنا أنفسنا بها، ونرفع الأواصر التي تجذبنا وتثقلنا إلى الأرض. لأننا لا يمكن أن نكمل مسيرة تطورنا الروحي ونحن نجاري الحياة، أو ندرك ونعي حقيقة أنفسنا من غير تماس حقيقي بآلية عمل الباطن وعلاقته بالعالم الروحي الذي يعد الركن الوثيق في كل مراحل وجودنا سواء هنا أو في العوالم الأخرى.

لم يكن خلقنا عشوائياً أو جزافاً أو من قبيل الصدفة في الحياة، بل خُلقنا لنُكمل مسيرتنا التطورية الروحية التي بدأناها في عوالم سابقة متنوعة ومتعددة، وسنكملها في عوالم لاحقة، فالحياة الأرضية بالنسبة للأرواح مرحلة من مراحل عدة، وبالتالي فحياتنا التي نعيشها الآن إحدى قطع الأحجية الكبرى لمسيرة تطورنا الروحي.

فعوالم الله ليس لها حدود وفي حركة دائمة مستمرة.. لا جمود، لا ثبات، لا توقف، لا ركود، في مملكة الله. فكما أن الأفلاك تسبح في عالم التكوين بلا توقف ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، وكما أن إلكترون الذرة يدور حول نواتها منذ الخليقة إلى نهاية الوجود.. كذلك الأرواح تسبح في رحاب هذا الوجود وفي حركة دائمة وتطور مستمر، منذ لحظة خلقها إلى أن تحقق أهدافها النهائية وترجع إلى موطنها الأصلي.

لذلك يخطئ من يظن أن وجوده الحقيقي بدأ حين ولادته وسينتهي بموته. فهذا الرأي ينم عن قصور في فهم واستيعاب حقيقة مسيرة الأرواح، وعجز عن إدراك وتوصيف علة الخلق الأولى. السواد الأعظم من الناس سوف يدرك بعد الموت أن حياته القصيرة التي قضاها في الأرض ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ما هي حلقة من سلسلة طويلة من المراحل التي خاضها والتي سيكملها فيما بعد. بعضنا يصل إلى هذه الحقيقة أثناء حياته، والبعض يعتقد بوجود حياة أخرى ينتقل إليها بعد الموت فقط، حياة خالدة مفعمة بالملذات وكل ما تشتهيه الأنفس. لذلك تم التركيز في الأدبيات الدينية على نبذ الحياة (الفترة القصيرة) والمحددة بعمر الإنسان ليحظى بحياة خالدة ينال فيها شرف النعيم الأبدي.

وفات هؤلاء أن هذه (الفترة القصيرة) التي تتجسد فيها الأرواح من أهم المراحل التي تمر بها في مسيرتها التكاملية. أما أحاديث ذم الدنيا والانتقاص من شأنها، فهي لا تذمها لذاتها وإنما تقدح في التعلق بها وجعلها همنا الأكبر، كما جاء عن أمير المؤمنين (ع): "من كانت الدنيا أكبر همه طال شقاؤه وغمه" وعن النبي (ﷺ): "من أصبح والدنيا أكبر همه فليس من الله في شيء، وألزم قلبه أربع خصال: هماً لا ينقطع عنه أبداً، وشغلاً لا ينفرج منه أبداً، وفقراً لا يبلغ غناه أبداً، وأملاً لا يبلغ منتهاه أبداً".

وحين يُكشف عن بصيرته بعد الموت ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ﴾ سيصدم بما يطّلع عليه من أهمية ما تجاهله أثناء حياته، ويحزن حين يعلم بأهمية وحقيقة المرحلة التي كان يعايشها، وكم كان غافلاً ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ عن تلك الفترة الزمنية التي كان يريد عبورها وتجاوزها بأنها أعظم تجربة روحية تمر بها الأرواح في عالم الخلق.. بعد الموت سيكتشف

حقيقة الحياة وأهميتها ﴿حَتَّى إِذَا جَاء أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾.

سر الحياة

ولكن لماذا يُصعب اكتشاف سر الحياة قبل الموت؟ وكيف نعي سراً لا نصل إلى معرفته إلا بالفناء؟

سر الحياة ليس أمراً مبهماً أو غيباً غامضاً أو حتماً مقدراً، أخفاه الخالق ليعاني المخلوق من التخبط في اكتشافه، بل هو من أهم الأسس والمبادئ التي حثنا وحفزنا للتحقق منها ومعرفتها وجعل الوصول إليها من علامات أولي الألباب.

ولكن كيف نعرف سر شيء نحن بعيدين عنه؟ أو كيف نكتشف حقيقة أمر لا نعتقد أصلاً بوجوده؟ فأغلب الناس لا تعتقد بوجوب وأهمية معرفة هذا السر، فهم يعتقدون أنهم يعيشون حياة الكمال والفضيلة، يؤدون الفرائض على أكمل وجه، يصلون، يصومون، ويحجون البيت الحرام، ويقيمون صلاة الجمعة في المساجد، ويحضرون المجالس، ويقيمون الاحتفالات، وبالتالي فقيامهم بهذه الشعائر والطقوس العبادية أسقاط لتكليفهم الشرعي ونهاية للحدود التي فرضها الله عليهم، فما الذي يدعوهم للبحث عن سر الحياة، فهنا ترفع الأقلام وتجف الصحف، فلا شيء أخر غير هذا ينبغي عمله والقيام به.

ينبههم الله بشتى الوسائل والطرق، يحذرهم بالإشارات، يضعهم في مواقف صعبة، يمحصهم بالمحن والابتلاءات، يهيئ لهم ظروفاً مواتية للخبرة الروحية لكي يقول لهم: "اخرجوا من غفلتكم، فثمة أمراً لا زال مجهولاً في حياتكم ينبغي أن تعرفوه" وهو سر الحياة. وأنها لا تُختزل أو تقتصر على أداء طقوس العبادة أو شعائر التنسك.. فثمة أمر عظيم ينبغي أن تعرفوه قبل أن تصدموا بمعرفته بعد الموت.

وحتى نقترب من معرفة هذا السر ينبغي أن نعتقد اعتقاداً جازماً أن للحياة هدفاً يتجاوز ويتخطى معظم ما تعلمناه من أنها دار ابتلاء أو اختبار أو فتنة أو صراع أو تنافس.. فحسب. فثمة أمر أخر يتحتم اكتشافه.

وحتى نكتشفه ويلوح في الأفق بصيص معرفته، ينبغي أن نعيش سلاماً داخلياً يعبق بروحانية حب ورهافة حس، ورقة قلب وتوقد لب واستنارة وعي وتناغم فكر.. سلاماً يجعل تفكيرنا ووعينا وهمتنا وإمكاناتنا محور ما نريد اكتشافه. فمن المحال أن نقترب من معرفة هذا السر، أو تثمر محاولاتنا لإماطة اللثام عنه ونحن نعاني صراعاً داخلياً مع أنفسنا، وتشتتاً في منابع علمنا، وتناقضاً في مفاهيم فكرنا، وأخطاء غرست في وعينا.

لا يمكننا ونحن نعاني تصدعاً داخلياً واضطراباً مفاهيمياً وتوتراً نفسياً أن نعرف حقيقة الحياة. فما تم غرسه فينا من تناقضات وأوهام منذ الطفولة تركة كبيرة جداً من المعتقدات والأفكار والعقائد، ومخلفات لا تحصى من تراث التربية والتعليم. إرث يثقل كاهل أي باحث ومستقصي للحقيقة.

قد لا نشعر ظاهرياً بهذا التناقض والصراع الداخلي الذي حملناه سنين طويلة وتعايشنا معه وأصبح جزءاً من منظومة حياتنا، معتقدين أنه أمراً طبيعياً وبديهياً في الحياة، ولكنه يسبب حجاباً وستراً يحول دون إشراقة أرواحنا ويعطل حركتنا الباطنية لمعرفة الحق والوصول للحقائق.

وصية الله لنبيه (ﷺ) حين أوصاه: "يا أحمد اجعل همك هماً واحداً" تعد الأساس الأول والعماد الذي تقوم عليه المدارس الروحية. والهم هنا من الهِمّة بمعنى قوة الإرادة والعزيمة والمثابرة والمواظبة، أي التركيز على الأمر الجوهري والتمعن فيه بعيداً عن التشتت وتشعب الأوهام وتناقضات الحال.

هذا الصراع الداخلي يجعل بوصلة الوعي تتجه أفقيا لا رأسياً، تتجه لذات الحياة وتقلباتها وحيثياتها ونوازعها وانجازاتها وملذاتها ورغباتها، ولا تتجه رأسياً لمعرفة جوهر الألوهية وحقيقة الوجود والقوانين والسنن الكونية وعلاقتها بحياتنا، فكما ذكرنا سابقاً، فرق أن تبصر فيها، أو أن تبصر إليها. كما جاء في الحديث: "ومَن أبصر فيها بصَرته، ومَن أبصر إليها أعمته".

لذلك أن تعيش حياة فضيلة وصلاح ظاهريين لا يكفي، بل ينبغي أن يُتوج هذا الصلاح بانسجام داخلي مع النفس والذات من جانب، ومع الآخرين والسنن الكونية من جانب آخر. فحين نعيش حالة السلام سنشعر بالتناغم مع كل شيء، نندمج مع الهالة الكونية الروحية التي سترسل لنا العديد من الإشارات، وتجيب على العديد من التساؤلات، وتقوي من إدراكنا العقلي، وتقرب إلينا فهم الممكنات. ومن هنا نفهم لماذا تؤكد المدارس الروحية على أهمية تغيير النفس ومعرفة قواها وسلطانها "من عرف نفسه فهو لغيره أعرف" وبدون معرفة وتهيئة الأرضية الداخلية لا يمكننا ملامسة الحقائق الكلية والجزئية، كما قال أمير المؤمنين (ع): "من عرف نفسه فقد انتهى إلى غاية كل معرفة وعلم".

حين نكتشف سر الحياة، سنكتشف سر الموت وآلية الانتقال، وسنعرف أننا كيانات روحية تسعى للتطور، تختبر إمكاناتها في كافة المستويات والأبعاد، والحياة المحدودة التي نعيشها واحدة من هذه المستويات. حين نتيقظ لهذه الحقيقة نكون قد ولدنا من جديد، ولدنا الولادة الروحية الثانية من رحم الحياة. وهو ما يعرف باليقظة أو الصحوة الروحية.

في مقابل مجاراة الحياة التي تكلمنا عنها ينبغي أن تكون لنا وقفة جادة وحاسمة مع أنفسنا وذواتنا. ندخلها في محاكاة

حقيقية تتجاوز ما كانت تعول عليه من مفاهيم وأفكار عن حقيقية وجودنا. وقفة صدق ننزع من خلالها قناع الدور الهامشي الذي نلعبه في الحياة ونسبر غور الأبعاد الروحية الكامنة في أعماقنا ونتيقظ روحياً.

الصحوة أو اليقظة

الصحوة في أبسط معانيها تعني: الانتباه، اليقظة، الإدراك، الإحاطة والوعي بالملكات الروحية وملامستها لوعي الشخصية في الخارج. ومن خلال هذه الملامسة يحدث أمران:

1- انعكاس صفات وسجايا الروح على شخصياتنا.

2- معرفة حقيقة أهدافنا وغايتنا في الحياة.

ولكن قبل الخوض في هذين البعدين، ينبغي أن نجيب على سؤال مهم: مم نصحو ونتيقظ؟ ولماذا؟

سؤال يُعد الأهم من بين كل الأسئلة الثانوية الأخرى، لأنه يتعلق بعلة خلقنا وسيرنا وسلوكنا في الحياة، وأسباب وجودنا في الهيكل البشري. استهوى عقول الفلاسفة منذ القدم، وشحذ نفوس العارفين ليخلصهم من كدورات الظُلم، وأثار انتباه المبدعين فرصدوا السماء وتفحصوا ما بها من سدم. أساس وجوهر البشرى والإنذار والوحي والإلهام والحكمة والتزكية والعلم والخلاص وما تمخضت عنه كل تعاليم الديانات السماوية ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ ومدار بحث واستقصاء جميع الفلاسفة والمتكلمين والمدارس الروحية على اختلاف مشاربها وتوجهاتها.

إذن نحن أمام سؤال جوهري مصيري يرجعنا إلى البدايات الأولي للخلق.. البدايات المرمزة التي عجزنا عن حلها حين جهلنا فهم واستيعاب دلالتها التكوينية وإشاراتها الربانية وقوانينها الكونية. من البديهي أن يسبق سؤال: لماذا نصحو؟

سؤال جوهري آخر.. حقاً مم نصحو؟ فحين نؤكد على ضرورة اليقظة الروحية ينبغي أن نعرف مم نصحو، فصحوة النائم يسبقها النوم، وصحوة الرضوخ والاعتدال يسبقها الشرود، وصحوة الخشوع والإنابة يسبقها التبجح والتباهي، وصحوة الإيمان يسبقها الطغيان والكفر.. فماذا يسبق الصحوة الروحية؟

نصحو من غفلتنا.. فما يسبق الصحوة واليقظة هي الغفلة.

لذلك لا يمكن فهم حقيقة ومبادئ آلية اليقظة ما لم نفهم معنى الغفلة التي نعيش فيها ﴿يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ ربط الحق سبحانه وتعالى الغفلة بالظلم الذي يعتبر من أعظم المنكرات والكبائر، فالغافل ظالم لنفسه حين لا يصحو، وإن كانت غفلته تسبب أذى للآخرين فقط تجرأ على قلب موازين العدالة التي سنها الله في الكون، فالظالم ينصب الموازين التي يقيس بها الحقائق والأمور تبعاً لهواه ومراميه، فيكيل ويغترف بما تمليه عليه نفسه، وينتقي الحدود التي ترتضيها نزعاته وميوله وتتماشى مع مصالحه الشخصية.

حين يفسر الظلم بأنه وضع الشيء في غير موضعه إمَّا بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، فإن ما يؤدي لاختلال هذا الميزان وطغيان هذا الحد إنما هو عين الغفلة التي تنزح بالإنسان بعيداً عن مساره الطبيعي. فحين يغفل عن أهدافه الحقيقية التي من أجلها خلقه الله فهو يضع حياته في محك آخر، ويسير بها باتجاه مغاير لما تم تعهده مع الله قبل أن يتجسد على الأرض. وبالتالي فالغفلة ظلم لأنها تضع أعظم مخلوق في عالم الوجود في غير موضعه الحقيقي، الموضع الذي استحق سجود الملائكة وتعظيمها.

لذلك حين نسأل مم نصحو؟ نصحو من غفلتنا ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ غفلتنا عن وعي حقيقة أهدافنا الروحية، لأننا بدون هذه الأهداف تستحيل حياتنا إلى عبث وعشوائية

ومجاراة، وكأن خلقنا ووجودنا تم بصورة عرضية أو صدفة عشوائية، لا لغاية ترجى، ولا لعلة تلتمس. وبالتالي فإذا أردنا أن نتيقظ ونصحو من غفلتنا علينا أن نعي أهدافنا الحقيقية، وبدون هذه المعرفة سنغط في نوم عميق لا نستفيق منه إلا بعد الموت ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

فالصحوة تأتي بعد الغفلة التي يقضي البعض جُل عمره دون أن ينتبه أنها تستوطن عقله ووعيه وفكره.. تمر عليه شتى أنواع الإشارات والتنبيهات دون أن يعيرها أية أهمية ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾. ولو أمعنا النظر في بصائر الوحي لوجدنا أن أغلب الآيات الواردة في الغفلة تتعلق بالانتقال للعالم الآخر أو الموت ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ وكأن الله يريد لفت أنظارنا ويقول: اخرجوا من غفلتكم التي عشتم بها سنين طويلة، فالغفلة تعمي أبصاركم عن الحق، ادفعوا غفلتكم بالصحوة، تيقظوا قبل أن ترتحلوا، وموتوا قبل أن تموتوا.

تكشف اليقظة الروحية عنا الغطاء قبل يُكشف بعد الموت تلقائياً.. وهذا الكشف يجعلنا نفهم وندرك الأسس الذي تقوم عليها السنن الكونية، يبصرنا بالحقائق والمرتكزات التي تبنى عليها الأديان، يعرفنا برموز الإشارات ودلائل الآيات، يقربنا من فهم الخطاب القرآني، يشعرنا بسريان روح الحياة بأعماقنا، يخلق فينا قدرة التواصل الروحي، يجعلنا نفهم سر الحياة، والأهم من هذا كله يقربنا من رب السموات.

حين نصحو من غفلتنا وندرك عن يقين أننا أرواح، ستقوى بصيرتنا في استقصاء الحقائق الوجودية والتي من أهمها علة وجودنا الأرضي وأهميته في تطورنا الروحي، فبدون يقظة

روحية لن تكون لدينا بصيرة نافذة، وبدون بصيرة لن نقترب أو نعرف أهدافنا الحقيقية في الحياة.

أهداف أم إنجازات

من حيث المبدأ لا أحد يُنكر وجود هذه الأهداف، فلو استخبرت جمعاً من الناس وسألتهم: هل لوجود الإنسان هدف في الحياة؟ بالطبع ستتلقى الإجابة بنعم، فالله عز وجل يقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً﴾ ويقول كذلك: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ وغيرها من آيات كثيرة. يتفق الأغلب الأعم في هذه النقطة، ولكن يكمن الاختلاف في منبع وأصل هذه الأهداف، هل جاءت بها الروح من عالم الأمر (عالم الروح) أم أنها صنيعة الإنسان تفتق بها عقله ووعيه حين كان في محيط أو واقع معين. فعمد على صياغة الأهداف التي تتناسب وحاجاته وضروراته في الحياة.

بمعنى.. هل هي أهداف مكنونة ومغروسة في أرواحنا نقلناها معنا قبل أن نتجسد مادياً في العالم الأرضي، أم أن الإنسان بعد تجسده وتفاعله مع الحياة المادية صاغ أهدافه وتصوراته بنفسه، وبالتالي فهل أهدافه وليدة هذه الحياة أم أنها غايات وأهداف مسبقة ومحددة سلفاً جاءت بها الروح من العالم الآخر؟.

إجابات معظم الناس حين نسألهم عن: "ما هدفك في الحياة" تكشف لنا المفارقة في فهم الأهداف الحقيقية المسبقة والأهداف التي يضعها لنفسه والتي ما هي إلا إنجازات ورغبات، وليست أهدافاً حقيقية.

فبين النجاح المهني والوصول إلى دخل مادي مريح، وبين بناء أسرة وبيت مثالي سعيد، وبين الفوز بلقب من الألقاب البطولية، أو خدمة الوالدين والسهر على رعايتهم، أو شراء مزرعة في أعالي المناطق الجبلية، أو نيل شهادة الدكتوراه، أو

إنجاب أبناء والاهتمام بهم، أو الحصول على براءة اختراع لاكتشاف يخدم البشرية، أو مساعدة الآخرين وتعليمهم فنون الحياة.. أو بناء مركز للعبادة أو مسجد للصلاة.. وغيرها من أمور أخرى كثيرة.

حين تقرأ عشرات الأهداف التي يطمح الناس إلى تحقيقها، تعلم كم اختلطت المفاهيم عليهم، وكم دخلوا في شبهة تحديد مصيرهم حين اعتقدوا أن ما يسعون لتحقيقه في الحياة هي أهدافاً، بينما هي في الواقع إنجازات ومطالب ومقاصد يستشعرون أهميتها فيسعون للوصول إليها أو تحقيقها.

في البعد الروحي هناك فرق كبير بين ما نطمح في انجازه والوصول إليه وبين أهدافنا الحقيقية ككيانات إنسانية روحية.

فالهدف من الحياة ليس شيئاً نختاره كما نختار السلعة من أرفف الجمعيات التعاونية أو السوبرماركت. الهدف لا علاقة له بالرغبات الآنية التي نسعى لتحقيقها، فحين نسأل شخصاً عن هدفه يبدأ بالتفكير عن أهم رغباته وطموحاته، ماذا سيختار أو ينتقي أو يرغب من طاولة الإمكانات أو ما تعرضه له الحياة فيختاره. لا.. المسألة ليست كذلك فما نختاره هنا هو ما نريد انجازه أو فعله أو تحقيقه وليس هو الهدف.

الهدف ينبع من أعماقنا، مخبوء بين جنبينا، في روحنا التي نفخها الله فينا، بينما الانجازات إمكانيات خارجية متعددة ومتنوعة. الهدف لا يتم اختياره لأنه موجود في حالة كمون، وما وجودك في الحياة إلا لتحقيقه.

الهدف إجابة لسؤال: ماذا يريد الله مني؟.. أما الإنجاز فهو إجابة لسؤال: ماذا أريد من الحياة؟

قد تقول أن الله يريد منا العبادة وأداء الشعائر والواجبات وما أشبه، أجل هذا ما يطلبه الله منا ويأمرنا بفعله لكي يؤهلنا

ويصقل نفوسنا لمعرفة ما وراء هذه العبادة وهذه المطالب، أي معرفة أهدافنا الحقيقية.

أهدافنا تقع تحت ركام من الرغبات والأمنيات النفسية، تحت جبال من الماديات والشوشرة وضوضاء صخب الحياة. أهدافنا مغلولة بأواصر الجهل والشـرود الذهني. لذا لكي نصل إليها أو نتصل بها، ينبغي أن نزيل هذه العوائق ونصل إلى حالة من الصفاء والسكون والسلام والهدوء المشابهة للذبذبة الروحية وهذا يتطلب ممارسة التأمل والتفكر والتدبر والتمعن ومعرفة الصورة الشاملة للحياة..

فأهدافنا متأصلة ومستقرة في بذرة الروح التي تحوي على "الكود" أو شفرة الاتصال بعالم النور، والتي لا يمكننا حلها وفكها إلا حين نعيش جوهر العبادة والصمت والتأمل والنقاء الباطني.

لذلك بمقدور الإنسان أن يقتدي بالغير حين يتطلع إلى انجاز شيء ما أو النجاح في عمل ما. بينما حين يريد معرفة هدفه لن ينفعه أحد، لأن ما يريد معرفته موجود بداخله وفي أعماقه. قد نعتقد أننا أسياد مصيرنا لكن الواقع يبين أننا من السهل جداً أن نسير في الاتجاه الذي يفرضه علينا الآخرون حين يحددون لنا أهدافاً لا تمت لنا بصلة.

مشكلة الإنسان تكمن في عدم معرفة هدفه الحقيقي، وبالتالي فهو يركز على الانجازات ويستبدلها بالأهداف. فما أكثر الانجازات والنجاحات التي يُخيل للبعض أنها أهدافاً سامية وغايات جليلة وهي بعيدة كل البعد عن هذا المبدأ. لذا ينبغي أن تخدم انجازاتنا أهدافنا الروحية، وإلا فإنها قد تتحول إلى أداة للفساد والدمار والخراب كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾.

حين نعرف أهدافنا الحقيقية، فإن كل انجازاتنا ستصب في هذا الهدف. فعلمنا بالأهداف سيحدد مسار الإنجازات، وبالتالي إذا صلحت أهدافنا فمن المستحيل أن تتقاطع إنجازاتنا مع إنجازات الآخرين، لأن الأهداف الإنسانية الروحية تلتقي في ذات المسير، لأنها من منبع واحد. وهنا فقط يعم السلام في العالم، وتتضح ملامح الحب الروحي وتجسيد القيم الروحية، فلا مكان للتنافس، والغلبة، والفوقية، والفرقة.. بل تطور مشترك يكمل بعضه بعضاً. بينما لو تجاهلنا وأهملنا أهدافنا وركزنا على الانجازات فإن العالم يتحول إلى حلبة صراع واقتتال، وتصبح الحياة أشبه بشريعة الغاب، يقتل أحدنا الآخر بدعوة التنافس تارة، أو الغلبة تارة أخرى.

مفارقة الأهداف والتوجهات

المفارقة بين فكرة الأهداف الحقيقية - المحددة سلفاً - وتلك التي تكون نتيجة صنيعة بشرية (إنجازات) تميط اللثام عن المفارقة بين التصور الروحي والتصور المادي في رؤيتنا للحياة. فالفلسفات القديمة وما جاءت به رسالات السماء والبصائر الروحية القرآنية، تؤكد أنه ثمة أهداف كبيرة وسامية وخطة إلهية محكمة مكنونة ومستودعة في أرواحنا قبل تجسدها في القالب البشري. وأن الحياة التي نعيشها ما هي إلا ميدان عملي وساحة لتجلي وتحقيق ووعي هذه الأهداف.

حين تنعكس هذه الفكرة في مناحي حياتنا وسلوكنا فإنها ستغير العديد من مفاهيم الإنسان وتقنن كثيراً من سلوكياته وتعيد النظر في العديد من معتقداته وقناعاته. بل سيدرك العديد من الرموز والحيثيات والمتغيرات من حوله. ففكرة الأهداف المسبقة تتبعها إجرائياً متعلقات أخرى كثيرة، فتحديد طبيعة المكان والأسرة والتحديات والمصاعب وما يعرف بالابتلاءات التي تعترض حياتنا تقع ضمن مفردات هذه الخطة

والأهداف، أي ضمن السيناريو المعد سلفاً والذي يتناول أغلب هذه المتغيرات. ولهذا تدعونا بصائر الوحي للصبر والتحمل والمكابدة لفهم واستيعاب ما يحيطنا واحتوائه، لأنها تقع ضمن سيناريو الهدف الشامل لتطور الروح.

ولكن لا يعني هذا حتمية وقوع هذه المتغيرات لأن الله جعل الحرية أحد أهم مبادئ حركتنا في الحياة، بمعنى أن إرادة الإنسان قد تتجه اتجاها مغايراً للعديد من نصوص السيناريو، كالخروج عن النص، ذلك أن هناك الكثير من الفراغات التي تتخلل هذا السيناريو تُركت مفتوحة ليتمكن الإنسان من إكمالها أثناء حياته. كما سنبين لاحقا.

بينما الفكرة الأخرى التي ترجح أن الأهداف صنيعة بشرية (إنجازات)، فكاتب السيناريو هنا يضع الأهداف التي تنسجم وتتماشى مع رغباته الذاتية وحاجاته الأساسية، لذلك يسعى بكل جهد للتخلص من كافة المعوقات والانفكاك من إصرها والتخلص من معاناتها، فهو يسعى لعيش حياة مثالية خالية من المنغصات والأزمات والمعوقات والمشاكل.

ومن هنا ندرك أن اختلاف أوجه السلوك البشري يرجع لهاتين الفكرتين، فيما إن كانت الأهداف مسبقة أم أنها صنيعة بشرية. دعونا نوضح هذه الفكرة بأمثلة واقعية:

دعيت لحضور محاضرة عن الحياة الزوجية. وكيف لهذه الحياة أن تسير بشكل متناغم. فطرح المحاضر فكرة في غاية الغرابة يقول فيها أن الزوج ينبغي أن يُمهل زوجته مدة سنة كاملة، إذا لم تَسر على هداه وتتماشى مع مبادئ تفكيره وأهدافه فله أن يتخلص منها وينفصل عنها، والأمر مشابه كذلك للزوجة. ويؤكد أن مدة بقائها لا ينبغي أن تزيد أكثر من سنة. وكان المحاضر يركل برجله كلاعب يريد ركل الكرة تعبيراً عن التخلص من الزوجة أو الزوج.

وفي لقاء سمعته لمحاضرة تتطرق لمفهوم العبادة، فتقول: إن حقيقية العبادة هو "الوناسة" أن "يستانس" الإنسان في حياته ويتمتع فيها بقدر ما يستطيع هو المعنى الحقيقي للعبادة.

هذا النمط من التفكير - والذي مع الأسف الشديد أصبح رائجاً في المنتديات ووسائل التواصل الاجتماعي والدورات والأمسيات - أضحى يعبئ كثير من الناس بأفكار غريبة وبعيدة عن المقاصد الروحية والحقيقية، ويجعل الحياة هدفاً بحد ذاتها، يجعلها ساحة لتجلي وتحقيق رغباته الشخصية، فحياته مجموعة متغيرات يتحكم فيها بنفسه ولا شيء آخر.

في حين أن النمط الروحي من التفكير يقرأ المعاناة التي يعيشها الزوج أو الزوجة كرسائل ينبغي فهمها وكدروس ينبغي تعلمها، وبمجرد أن نعي ونتعلم الرسالة من هذا الدرس سوف تتغير أو تختفي المعاناة تلقائياً.

البعض يعتقد أن العيش في المعاناة أمرٌ حتميٌ يعيشه طوال حياته. نعم نبقى ندور في رحى المعاناة طالما لم نتعلم الدرس جيداً، حتى ولو تحررنا تخلصنا منها فسوف نقع في نفس المشكلة ونواجه نفس المعاناة مرة أخرى، طالما لم نتعلم الدرس. ولنا وقفة مفصلة في المصاعب والمحن والابتلاءات نرجئها في حينها.

ولكن الأغلب الأعم أننا بمجرد أن نعي الدرس سوف يتغير حالنا، وقد يحدث هذا التغير بشكل فجائي تلقائي أشبه بمعجزة لم نكن نتوقعها في يوماً ما. كثيراً من صور المعاناة والألم التي وصلت لحالة من اليأس واستحالة علاجها وإصلاحها، حين أدركت الدرس من المعاناة انحلت عقدتها وانكشفت كربتها.

هذا المثل يبين المفارقة فيمن يعتقد أن للروح أهداف مسبقة جاءت بها من عالم الروح، وفيمن يعتقد أننا من يحدد أهدافنا الحقيقية في الحياة.

الحج الأكبر للأرواح

من الاستحالة بمكان أن تغادر الروح عالمها وتتغرب في عالم المادة دون أن يكون لها هدف عظيم وجليل من هذه السياحة.

فانتقالها وتجسدها في هيكل بشري ليس بالأمر الهين اليسير، فهو قرار صعب تتخذه الروح أشبه بمغامرة خطيرة مربكة تتخللها العديد من صور الألم والمعاناة، هذه النقلة لا يمكن أن تقوم بها ما لم تع وتدرك تصورٌ مبدئيٌ لخارطة الطريق وما ستمر به من أحداث، فتجسدها ليس عملاً اعتباطياً عبثياً، بل رحلة تُعرف بالعالم الروحي "بالحج الأكبر".. لأن هذه الرحلة تمكنها من التطور بشكل كبير في عالمها الروحي وهذا التطور لا يتحقق إلا بالوجود المادي.

ترتحل أرواحنا من عالم مليء بالحب والسلام والجمال والوئام، مليء بالبهجة والنور والألفة والانسجام، عالم خالٍ من المعاناة والخوف والألم والهلع والتوتر والخداع والكذب والنفاق والغضب والأنانية والفوقية.. عالم هو الأقرب إلى القوى العليا المباركة.. الأقرب إلى حالة التواصل الروحي مع القوى الخالقة للكون. العالم الروحي هو الأقرب لعالم للألوهية الذي نعبر عنه بعالم الحب والسلام.

لا يمكن أن تضحي الروح بالخروج من هذا العالم دون أن يكون لها غاية وأهداف محددة وبصيرة للسيناريو الذي سيقع عليها أثناء انتقالها للعالم الأرضي.

تركها للأجواء المفعمة بالأنوار والبهجة والسجايا الجليلة والجميلة، وسفرها في رحلة طويلة إلى الأرض، وتجسدها في هذا المخلوق البشري محدود الحواس، ليس لأجل أن تعيش الحياة بصورتها الدرامية العفوية العشوائية المتخبطة كالتي يعيشها كثير من الناس.. تترك موطن الجمال والنعيم لتنغمس في طاحونة الحياة التي نعيشها كل يوم. الحياة الروتينية التي

تبدأ من الصباح حتى المساء تدور في رحى المعيشة والتمتع والالتزام وتحقيق المطالب الاجتماعية والعملية والأسرية فحسب.

الحياة التي أصبح كل يوم فيها نسخة طبق الأصل لما قبله ولما سيكون بعده.. بل ينبغي أن تكون تضحيتها ومجازفتها بالتجسد يتناسب وعظم الهدف الذي تجسدت من أجله.

من يتغرب عن وطنه، ويبتعد عن أهله ومجتمعه وأحبته، ويعاني المشقة ويكابد الألم، ويعيش المعاناة لابد أن يكون خلف هذا كله هدف كبير. ليس من العقل والمنطق أن يتغرب شخص عن بلده كي يتسكع في الشوارع أو يقضي جل وقته على ردهات المقاهي، أو يمشى في الشوارع تائها دون هدف، سيكون بلا شك حالة غير سوية. لأن ما قام بالتخلي عنه ينبغي أن يكون بمستوى أو يتوافق مع ما يتطلع إليه، أو ما هو مقدم عليه. وإلا سيكون نشاز وحالة غير طبيعية.

لذلك لا يمكن للروح أن تترك عالمها وتنتقل لعالم المعاناة والألم والخوف والأمراض والتخبط والصـراع والمكابدة بلا هدف كبير تسعي لتحقيقه.

ولكن مع الأسف الشديد كثيراً منا لا يعلم شيئاً عن هذه الأهداف، فكثيراً منها لا يظهر على السطح ولا يتجلى في العالم الخارجي. تبقى هذه الأهداف مكنونة مخزونة مستودعة في أعماقنا لأننا لا نسعى إلى معرفتها أو البحث عنها.

لقد تمت برمجتنا منذ الصغر أن الحياة هي ما نعيشه على السطح، وفُرضت علينا تعاليم ورؤى وأفكار ينبغي الأخذ بها وتضمينها عقولنا وتحديد هويتنا في سياقها ولا شيء آخر غير ما هو سطحي وتقليدي. فلا أحد يتطرق لشُعب الموارد الباطنية، أو يتحرى لمعرفة أهدافنا الروحية وكيفية الوصول إليها. لذلك

بهتت همتنا، وخارت قوانا، وضعفت إرادتنا في البحث عن ذواتنا وحقيقة أرواحنا، بل أن الكثير اجتهد لغلق هذا الباب عن بكرة أبيه.

منذ ما يقرب من 1400 عام جاء مبعوثاً للنبي (ﷺ) من قبل اليهود يسأله عن الروح.. فأجابه ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ جاء المفسرون بعد ذلك وأغلقوا كل الأبواب التي تتطرق إلى المفاهيم الروحية متخذين من الآية الشريفة حجة لرأيهم وذريعة لقصور فهمهم، وعذراً لتقاعسهم في غوص لجة العالم الروحي. فالآية الشريفة لا تشير بأي حال من الأحوال لعدم الخوض في المفاهيم الروحية، أو تمنع من التبحر فيها، إنما تشير إلى أصل نشأتها في عالم الأمر الروحي من جانب، وأن الوصول إلى ملكاتها لا يتم إلا من خلال العلم الراسخ الكثير في مقابل "القليل" من جانب آخر.. فاليهود الذين أرسلوا مبعوثهم السامي للنبي (ﷺ) لم يكونوا يعلمون شيئاً أكثر من هذا عن الروح. فهم - اليهود - من حيث المبدأ، لم يكونوا يؤمنون بوجود الروح أو بقائها بعد الموت أو بعالم البرزخ وما يتعلق به من قريب أو بعيد. وكل ما كتبوه ودونوه في أسفارهم فيما بعد عن الروح جاء نتيجة تأثرهم بمدونات الحضارة المصرية القديمة. ولو كانوا يدركون حقيقة الروح لما آلت حياتهم واصطبغت بالسلوك المادي العميق في رؤيتهم للعالم وللأشياء. وبالتالي فأية إجابة أخرى كانت لن تنفعهم بشيء.

ومع الأسف الشديد استمر هذا الجفاء والتجافي لخوض غمار الأبعاد الروحية حتى يومنا هذا. لذلك قد يتفاجأ البعض ويعجب حين يسمع بعض المفردات الروحية، كأهدافنا الروحية المسبقة، أو عن "الحج الأكبر" أو عن ضرورة التحقق الباطني والسمو النفسي والتطور الروحي. فقد عمدت آلة البرمجة عبر

أحقاب طويلة على توهين ونبذ وطمس معالم هذا البعد الذي يُعتبر عماد العروة الوثقى في كل الديانات السماوية.

أرواحنا انعكاس للعالم الآخر

أرواحنا تحمل كل معاني عالم الروح. بذرة تحمل كل صفاته وسجاياه وخصاله، من حب وحكمة وبصيرة ونور وألفة وطمأنينة وسكينة وأمان وبهجة وغبطة. هذه السجايا موجودة في كل واحد منا قابعة في أعماقه.

تتجسد أرواحنا في هياكلنا البشرية وهي تحمل كل هذه الصفات، ولكننا لا نلتفت لها ولا نعيرها أية أهمية. هي أشبه بكنز مدفون في بيتك وأنت تعاني من الفقر والحرمان.. أشبه بكتاب فيه من الحكمة والبصيرة بمقدوره تغيير حياتك ولكنه مركون في زوايا مكتبتك لا تعلم عنه شيئاً. أشبه بحكيم يقطن بالقرب منك تعلم أنك لو أخذت بمشورته لسوف ينفعك ويفيدك ولكنك لا تعير لكلماته أية أهمية.. أرواحنا بذور يكمن فيها جوهر خصال عالم الروح الذي لا نعلم عنه شيئاً، من هنا كان الغوص في أعماقنا والوصول للباطن يشعرنا بومضات العالم الآخر.

ولكن ما الذي يحول بيننا وبين الباطن ويفصلنا عن جوهرنا المكنون؟

مر الجنس البشري بسلالاته أحقاباً ودهوراً مديدة حتى تشّكل بالصيغة المتعارف عليها اليوم. استوطنت الأرواح الأرض بشكلها الأثيري الهلامي بادئ الأمر، ثم بدأت بتكثيف أجسامها عبر آلاف السنين حتى يتسنى لها التأقلم مع محيطها الجديد.

ومع مرور الزمن تشكل الجسد المادي الذي أصبح الظاهر الذي يحوي بداخله المكونات الروحية. ولكن رافق هذا التغير نقلة سلبية في الوعي.

ففي السابق كان الإنسان يعلم أصله ومنشأه، بأنه روح مهاجرة لوقت محدود، ولكن حين تحول إلى شكله المادي وتغيرت آلية الخلق بالتناسل، وأصبحت الأمهات يلدن الأطفال، بدأت فكرة الأصل الروحي تضمحل شيئاً فشيئاً من ذاكرة الإنسان حتى تلاشت بعد أحقاب من الزمن. وهذه الأحقاب هي التي شهدت وحشية وهمجية الجنس البشري على كافة المستويات ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَا﴾، فقد غابت عنه فكرة أصله الروحي من جانب، ومن جانب آخر لم يكن هناك تواصل إرشادي مع العوالم الروحية العليا، فلم تكن النفخة ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ قد حان وقتها.

أصبح الإنسان يتماهى مع المادة وانفصل عن فكرة أصله الروحي، ورأى نفسه مخلوقا مادياً يعيش في عالم مادي. ولإعادة هذه الذاكرة المفقودة للبشر كان الله ﷻ يرسل الملائكة لينبه الإنسان ويرجعه إلى أصله الروحي، ثم بدأ ببعث الأنبياء والرسل لنفس الغاية، حتى ختمها بنبي آخر الزمان.

كثيرون هم الذين آمنوا بالأنبياء، ولكن قلة من عرف أصله ومنشأه الروحي ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ فالحياة بتنوعاتها المادية وأسبابها الموضوعية تجعل الفكر ينزح لتأكيد الكينونة المادية ولا شيء غير ذلك. حتى في الجوانب الدينية هو يقرأ في الأدبيات الدينية أن الإنسان إذا عمل كذا وكذا يدخله الله الجنة.. وإذا عمل كذا وكذا يدخله النار.. فالمسألة إذن مسألة عمل وحركة.. أي أن ما يدخله الجنة أو يسوقه إلى النار عبارة عن حركته المادية لا شيء آخر.

وينطبق الأمر كذلك على المؤمنين الذين يؤمنون بالغيب وبعالم الروح يكون إيمانهم نظريا كجزء مهم في تكامل الإيمان، فكون الإيمان يتطلب أن "تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَلِقَائِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ" فينبغي عليه أن يؤمن بهذه الأمور ويجعلها من المسلمات. في حين أن الإيمان شيء مختلف تماماً عن المعرفة، فرق في أن نعلم ونعرف بوجود كائنات يطلق عليها "ملائكة" وبين إيماننا اليقيني بالملائكة.. فالإيمان يوجب التعامل والشعور والإحساس بالشيء، أما العلم به فلا يعدو كونه مجرد معلومات.

لذا عاش الإنسان غريباً عن بعده الروحي جاهلاً بداياته ومعالم روحه، رزقها، حياتها، حالها.. لا يعلم.. لأنه يعلم ﴿ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ فقد برمج قدراته وحجمها بما يتناسب وحياته المادية. وهذا ما يخالفه المنطق العقلي والفلسفي الذي يؤكد أن: "عدم علمنا بالشيء لا يدل على عدم وجوده" والعاقل هو الذي لا ينكر ما لا يعلم. ولكي نسترجع قبساً من مشاعر وومضات ذلك العالم ينبغي أن نعود إلى أرواحنا من جديد، ننقب عن جوهر كينونتنا القابعة في أعماقنا، فمنها ينبع كل شيء، وإليها يعود كل شيء فمن عرف نفسه عرف ربه.

حين نركز دائماً على الباطن فلأننا نأمل حدوث تماس حقيقي مع الطاقة النقية الناصعة المبدعة النورانية الحكيمة لأنها حلقة الوصل بين العالم الأرضي والروحاني. فلا يمكن الوصول إلى الله إلا من خلالها.. لذلك حين نركز في العودة إليها - الباطن - فلأنها تنقلنا للعالم الآخر.

قد لا نشعر بهذه العملية حين تنتابنا حالة من النشوة الروحية، أو يعترينا كشف روحي معين، أو نشعر بغبطة روحية

بشكل فجائي. نحن لا نشعر عملياً أن هذه الحالة كانت نتيجة ولوجنا للداخل ثم الانطلاق للعالم الروحي.

فالعملية لا تتم بشكل مادي حسي، فلا نشعر بالانجذاب ثم بالانطلاق، نحن نستشعر فقط حدوثها بشكل مباشر، فبين طاقة الروح المكنونة في داخلنا وبين العالم الآخر تماس مباشر واندماج وتداخل في كل الأبعاد والمستويات.

لذلك لا ينبغي أن نعتقد أننا مفصولين عن العالم الآخر، ما يفصلنا هو التماهي وحواجز الأنا التي بنيناها على مر الأيام، الأفكار، المشاعر، الماضي، الآلام، عدم معرفة أحجية الحياة، عدم ترك التدبير للمدبر الحقيقي، الامتعاض وعدم الرضا بالقضاء والقدر، السير وفق أنغام الآخرين، التناقض في المعتقدات التي نملأ بها أدمغتنا.. كل هذه وغيرها تشكل سدوداً أثيرية منيعة تعجزنا عن فهم وإدراك هذا التواصل.

حين نركز في حديثنا على الداخل، لأن ثمة شيء عظيم يقبع في أعماقنا يعتبر حلقة وصلنا بالعالم الآخر.. هما على اتصال دائم ومستمر، ولكن حتى نستفيد من هذا الاتصال بشكل واعي يساهم في تطورنا الروحي علينا أن نزيل الحواجز التي تصطنعها الأنا حتى يلمع بريق الروح ويشع للخارج. وسوف نتطرق لهذا بالتفصيل في الحديث عن كيفية حدوث اليقظة الروحية.

طاقاتنا المادية محدودة للغاية مقارنة مع قدراتنا الروحية، ولكن من شأن هذه المحدودية أن تتوسع وتتطور وتتألق في حال لامست ومضات الروح، وأول ثمرة يانعة يمكن اقتطافها من تنمية هذه القدرات هو معرفة الأشياء على حقيقتها والشعور

بالموجودات على رتبها ومكانتها.. فنشعر بحيوية وحياة كل ما يحيطنا، نتفاعل مع أنغام الطبيعة، وتسبيح الطيور في أعشاشها، تهليل الرعد بين السحب الماطرة.. والأهم من هذا حين يطرق سمعك همس الملائكة وتسبيحهم لأنهم حلقة الوصل بين العوالم.

وما أروعها من لذة.. وأغبطها من نشوة.. عندما يطرق سمعك همس العالم الآخر، أو ينتابك حس الأنوار اللامعة وهو يومض أمام عينيك في ليلة ساكنة، أو يوقظك همس بأذنيك يدعوك لقيام الفجر، أو تشعر بدفء العاطفة وهي تربت على رأسك وأنت تقرأ القرآن. أو تشعر بمن يلهمك أفكاراً تجد صداها بعد حين من الزمن.

الوفاء بعهد الأرواح

قبل أن تستضاف أرواحنا في هذه الأرض كان هناك عهداً قطعناه وميثاقا تعهدناه، وأهداف كثيرة ألزمنا أنفسنا بتحققها في هذه الحياة.. تتعلق جميعها بتطورنا الروحي.

ولا يمكننا أن نبصـر هذه الأهداف وندركها جيداً ما لم نتعمق في أبعادنا الروحية، وننهل من فيوض الغيب، ونكتشف حقيقة ما هو مستودع داخل أرواحنا. لذلك جعل الله الإيمان بالغيب من أهم وأولى صفات المتقين كما جاء في أول سورة في القرآن بعد الفاتحة، وجعل الإيمان بالغيب مقدما على الصلاة التي تعتبر عمود الدين: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

لذلك لم يكن هدف رسالات السماء، ولا إرسال الأنبياء والرسل وإرشاء الاولياء والصالحين فرض طقوساً شكلية أو تحميلنا تكاليف شرعية، وإنما جاءت لتذكرنا بالعهود التي

قطعناها في عالم الروح، ولتثير فينا دفائن العقول التي تتطلع لتحقيق هذه الأهداف، وتعرفنا بمنسي نعمة الله علينا، جاءت لتحرك القوة الكامنة في أعماقنا، وتوقظنا من غفلتنا، وتشعل وهج أرواحنا.. جاءت لتقول لنا: أن ثمة شيء بأعماقنا ينبغي أن نلتفت إليه، وأن نحرره من مكمنه ونظهره للخارج. وأن يكون الباطن هو المحرك والباعث الحقيقي للإيمان، كما جاء في نهج البلاغة: "فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِياءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِه، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِه، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ".

الأنبياء جاؤوا ليرشدونا إلى الطريق، وليأخذوا بأيدنا إلى الصراط الذي ينبغي أن نسلكه.. فهم الأدلاء ونحن السالكون، نحن من يكمل المسير، عليهم الإرشاد وعلينا المسير.

ومن هنا ندرك حقيقة مفهوم كلمة "يذكر" و "يذكرون" و "لعلهم يتذكرون" في العديد من الآيات القرآنية.. فماذا نتذكر؟ وكيف نتذكر شيئاً لا نعرفه ولا نحفظه ولا نعيه ولم نسمع به. مما لا يدع للشك أن الآيات تشير إلى ما هو مودع في ذواتنا وأرواحنا من عهود ومواثيق قطعناها في ذلك العالم.

فجميع الأديان تهدف لتوجيهنا وإرشادنا للوسائل والطرق التي تقربنا من غاياتنا وأهدافنا الروحية، فمن شأن هذه الوسائل أن تفتح الكنوز المودعة فينا. وبدون هذه المعرفة الروحية لا يمكن معرفة حقيقة الصلاة، فكم من قائم ليس "لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلاَّ السَّهَرُ وَالْعَنَاءُ".. لا يمكن معرفة حقيقة الصوم فكم "مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلاَّ الْجُوعُ وَالظَّمَأُ".. لا يمكن معرفة حقيقة القرآن "فرب تال للقرآن والقرآن يلعنه".. الحج، الزكاة وغيرها من الطقوس العبادية الأخرى..

لذلك قدم الإيمان بالغيب على الصلاة (عمود الدين) لأننا من غير الأبعاد الروحية لا يمكن أن نعرف الله حق معرفته

وبالتالي لا نعرف حقيقة الدين لأن أول الدين معرفته سبحانه وتعالى كما جاء في الحديث..

والإيمان بالغيب في نظر أصحاب التفكير المادي مجرد معتقد صوري، ومعلومة تخزن في الذاكرة، فمعرفتك بها تجعلك مؤمناً.. مجرد معلومة تحفظها عن ظهر غيب تجعل منك مؤمناً، في حين أن حقيقة الإيمان بشيء يعني التماهي معه واختباره والتماس والتفاعل والانفعال معه.

فمعرفة أن لهذا الكون خالقاً، لا يجعل منا مؤمنين من الناحية الروحية ما لم نختبر هذه المعلومة بأنفسنا ونعيشها بوجداننا ونستشعرها بذواتنا ونتذوقها بأرواحنا ونبرمج حياتنا وفقها. قد يجعل منا "معتقدين" ولكن لا يجعلنا مؤمنين حقيقيين، بمعنى الإيمان بعد الإيمان ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا﴾.

وهذا يرجعنا إلى اختلاف أنماط التفكير الذي تحدثنا عنه سابقاً.

ولا يتوقف الأمر عند رسالات السماء فحسب، فكل المدارس الروحية الحقيقية وليست التجارية منها، تعطيك الوسائل فقط دون أن تملي عليك أو تلزمك بشيء آخر، ودون أن تفرض عليها آراءها أو تلقنك ببعض معتقداتها وقناعاتها، لأن حقيقة المنهج الروحي الحقيقي أنه يرشدك إلى أعماقك ويعطيك المفتاح الذي تستطيع من خلاله فتح كنوزه.

وبالتالي فإن غفلتنا عما أودعه الله فينا، هو جذر الأساس لتخبطنا وشقائنا ومعاناتنا وتشربنا للعديد من صور الألم، ووقوعنا في العديد من المنزلقات الخطيرة في الحياة وابتعادنا عن أهدافنا الحقيقية المودعة في أعماقنا.

أودع الله فينا وزود أرواحنا بكل ما نحتاج إليه في حياتنا الأرضية.. أرواحنا تحوي على النسخة الأصلية لخطة حياتنا،

على أهدافنا الحقيقية، على الحكمة والبصيرة والوعي، على الحب والسلام والنور وكل شيء جميل.. ولكننا لم نستعن ولم نُفعل ولم نلتفت إلى كل هذه الأمور.. نعيش حياتنا كسفينة تتقاذفها الأمواج من كل جانب واتجاه، بعد ذلك نتذمر ونشتكي ونتأفف لماذا يفعل الله بنا ذلك؟!.

حين لا يشعر كثيرٌ من الناس بالسلام الداخلي ويتذوقون طعمه، ويعيشون حياة مليئة بالخوف والقلق والتوتر وعدم الانسجام مع أنفسهم ومحيطهم، فذلك لأنهم بعيدون عن نفحات السلام في أرواحهم..

البعض يتخبط في الحياة ويفشل في اتخاذ قرارات سليمة لأنه لم ينهل من الحكمة المكنونة في أعماقه..

البعض يشعر بظلام الحقد والكراهية تسري في عروقه لأنه لم يتذوق فيض الحب الروحي المنبعث من داخله.

اعرف هدفك بنفسك

لا تستقيم حياتنا ما لم نصل لهذه الأهداف ونتعرف عليها ونتلمسها معنوياً، والمهم في الأمر أن هذه الأهداف ينبغي أن نعرفها بأنفسنا لا من غيرنا.

فكما أن صحيفة أعمالنا لا يقرأها أحد غيرنا، كذلك معرفة رسالتنا وأهدافنا في الحياة منوطة بنا وحدنا. قراءة تجارب الآخرين، أو التبحر في تراث سير وسلوك العارفين، أو قراءة صحائف وتراث الأولياء والصالحين، لن يقربنا من أهدافنا الروحية، ولن يُشعرنا بومضات أرواحنا ما لم نختبر ونغوص بأعماقنا. قد نستفيد من تجارب الآخرين، ونكتسب بعضاً من معارفهم وإرشاداتهم، ولكن لن نحقق شيئاً ما لم نختبرها بأنفسنا.

الروحانية لا تقليد فيها، ولا تُعار من أحد، ولا تكتسب بجمع المعلومات من هنا وهناك، الروحانية تعتمد على تجربتنا

الشخصية الذاتية وعلى مدى وصلنا واتصالنا وتماهينا مع البصائر الروحية وعلى وله القرب من الله ليفتح لنا باباً من عنده.

ينبغي أن نختبر مفردات الحياة بأنفسنا نحن، نختبر حالة التواصل مع الله بأنفسنا، نختبر تذوق الإيمان كتجربة شخصية في حياتنا، لا أن نؤمن بما يؤمن به الآخرون عن تقليد أعمى. لقد خلقنا الله كي نختبر كل متغيرات الحياة بأنفسنا، وهو ما سوف نُسأل عنه بعد الموت، فما نختبره بتجربتنا الشخصية هو ما نُسأل عنه، وإلا فكيف نُسأل عن شيء أخذناه من غيرنا واعتقدنا به دون تحقق.

بمعنى لو جئنا بشخص واستخرجنا ما بجعبته من معتقدات وأفكار وتصورات ومسلمات.. سنجد أن 99 بالمائة من هذه الأمور ليست له، هي تصورات وأفكار آخرين، ولكنها تحولت إلى معتقدات ومسلمات في داخله دون أن يختبرها بنفسه، هو يؤمن بشيء لم يختبره في الحياة.

الله يريدنا أن نختبر ما نعتقد به، وأن نتحقق مما نؤمن به، نحن نؤمن بوجود الله عز وجل، لكن ما علاقتنا الشخصية معه، هل اختبرنا هذه العلاقة في يوم ما من حياتنا؟ هل شعرنا يوما بمعنى قوله: ﴿وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا﴾ هل أدركنا معنى: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أو ﴿وأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾..

أليس هو القائل: "أنا صديق من صادقني وأنيس لمن أنس بذكري".. أليس هو القائل: "أنا حبيب لمن تحبب إلي..".

ما علاقتنا مع الله في هذا الجانب؟. وأثناء حياتنا الطويلة التي قضيناها في مسرح الحياة ماذا حققنا من الدنو والقرب والمؤانسة والصداقة؟.

نحن نعلم ونعرف عن الله ولكننا لا نعرف الله. كل ما لدينا هو ما أخبرونا به عن الله، في حين أن الله يدعونا شخصياً لمعرفته، ليس فقط معرفته وإنما الأنس به ومجالسته.

وهناك فرق كبير بين من يختبر بنفسه وبين من يُلقن بالمعرفة.. فرق كبير بين المعرفة السطحية والمعرفة الحقيقية والوجدانية والعملية. سأل ذعلب اليماني عليا أمير المؤمنين (ع): هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين، قال: "أفأعبد ما لا أرى" قال: وكيف رأيته؟ قال: "لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الايمان".

هل تحققنا من وجود الله الفعلي في قلوبنا..

كلنا يؤمن بأن محمد رسول الله (ﷺ)، وله من المكانة والعظمة والمنزلة الرفيعة والسيادة في نفوس العالمين. ولكن هل تتساوى هذه المعرفة بمعرفة من يقول: "والله لو غاب عني رسول الله طرفة عين لمت شوقا إليه"..

هناك فرق كبير بين أن نتحقق مما نعتقد ونؤمن به وبين ما نعبئ به عقولنا من مسلمات دون أن نتحقق منها.

أقل ما يمكن عمله كمسلمين ومؤمنين أن نتحقق من مبادئ ما نؤمن به.

فنحن أشبه بنسخة أخرى من غيرنا في أفكارنا وتصوراتنا ومعتقداتنا ورؤانا. من أكثر المسائل الشرعية أهمية في كتب الفقه والاستنباط، والتي لا يلتزم بها إلا القلة القليلة جداً تلك التي تقول: لا تقليد في الأصول.

ماذا يعني هذا: يعني أننا ينبغي أن نصل إلى الحقائق الإلهية بوعينا الذاتي وبجهدنا وإرادتنا الخاصة وبمثابرتنا الشخصية.. والله عزوجل يمنحنا ما يُمكننا من هذه المعرفة، فليس العلم بالتعلم إنما العلم نور يقذفه الله في قلب من يشاء.

لا تطلب العلم من الكراريس والمناهج التي عقدت كل بسيط، وصاغت المفاهيم الروحية بمفردات ومصطلحات لا تقبلها النفس إلا بشق الأنفس، تشعر بصعوبة هضمها روحياً. ثق بالله عز وجل أنه أعطاك الآلية الباطنية التي تستطيع من خلالها أن تدرك العديد من الأمور وهذه إحدى صور تجلي عدالته لبني البشر. لقد منحنا جميعاً هذه الإمكانية.

حتى في الحقائق التي يؤمن بها الآخرون، فقد يصل شخص ما لحقيقة مهمة ومفيدة، لا مانع من الاستفادة منها، ولكن ينبغي أن تتحقق منها شخصياً، حتى ما تقرأه في هذا الكتاب، اعتبره لغواً ليس له أي معنى ولا تعول عليه، مالم تعقله وتختبره وتتحقق منه شخصياً، وتصل من خلاله إلى المراد المرجو منه. فنحن لا نفرض رأياً أو نخلق معتقداً، كل ما هناك نقوم بنقل تجارب اختبرناها وخضنا غمارها وتحققنا من صدقها، لا ينبغي أن تأخذها مأخذ التسليم مالم تختبرها وتتحقق منها بنفسك. الله يريدك أن تصل إلى أهدافك بنفسك، ولعل هذا إحدى مصاديق مقولة: "إن الطريق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق".

مع الأسف الشديد نتجاهل ونغض الطرف عن كل الآيات القرآنية التي تدعونا للتأمل والتفكر والتمعن والتدبر والبحث والاستقراء والاستنباط والتحقق الذاتي.. ونتمسك بمقولة نشاز ليس لها أصل وسند تقول: "اتركها براس عالم تطلع سالم".

هناك أهداف روحية ينبغي أن نعرفها في حياتنا، ولكن تماهينا وتثاقلنا إلى الأرض ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أبعدنا وغيبها عنا، وتحولت تطلعاتنا وانصبت مساعينا في ذات الحياة، وفي تحقيق أمورنا ومتطلباتنا المعيشية والمادية والشخصية فقط، وهو ما نشير إليه بالمجاراة، أي الاندفاع غير الواعي (الأعمى) لسلوكنا في الحياة.

الخروج عن النص

للإنسان كامل الحرية والإرادة للخروج عن النص، لأن الله جعل الإرادة من سنن وقوانين الخلق الرئيسية. بمقدوره أن يفعل ما يريد، ولكن لا ينبغي أن يخرج عن النص بشكل كامل، وإن خرج في شطر منه ينبغي أن يعود إلى الأصل مرة أخرى. حين يقف الممثل على خشبة المسرح قد يخرج عن النص قليلاً، ويُعبر عن بعض الأمور بطريقته الخاصة، ولكن لا ينبغي أن يتماهى كثيراً وأن يلتزم بدوره والسيناريو المعد له سلفاً.

البعض يعيش حياته كلها خارجاً عن النص، لأنه لا يعلم أن ثمة سيناريو عميق وهادف و (حج) ينبغي إتمام شعائره وطقوسه. ونسبة خروجنا أو تماهينا مع الحياة هو المفارقة بين المؤمن الواعي وغير الواعي.

حتى عباداتنا التي تحولت إلى مجرد ممارسات شكلية، صلاتنا وقيامنا وتهجدنا ودعاؤنا وصدقاتنا وحجنا، شرعها الله لتكون وسائل وأدوات تُعبد الطريق للقوى الروحية أن تظهر للخارج. فإحدى معاني العبادة من عبّد، وهذا التعبيد يكون لإظهار وتجلي للقوى الروحية المكنونة في أعماقنا كي تسطع للخارج. وبالتالي فالعبادات ليست هدفاً بحد ذاتها إنما هي لتعبيد الطريق لشيء آخر مهم. ولكن مع الأسف الشديد كثيراً منا يقوم بهذه الأمور من باب إسقاط التكليف الشرعي لا أكثر.

الحياة بالنسبة للكثيرين أشبه برجل نائم أو غائب عن الوعي، أُدخل في قطار وبدأ يسير به مسرعاً، وحين أفاق وجد نفسه في هذا القطار الذي يمضي به سريعاً، ولكن بدل أن يسال نفسه عن سبب وجوده، ومن قام بوضعه في هذا المكان، ومن سائق القطار، وإلى أين يمضي به، بدأ يتفحص وينشغل بما حوله من

مقاعد وقطع الأثاث وحاجيات والنظر عبر نافذته. ركز جل اهتمامه بالأشياء من حوله وليس على سر وجوده في القطار، الذي يمضي به سريعاً إلى نهايته وانقضاء عمره واقتراب أجله.

حين يفيق الواحد منا بعد مرحلة الطفولة ويعي نفسه وقد ركب قطار الحياة، بدل أن يتساءل عن حقيقة وجوده وسر سيره ومعرفة خالقه ركز جل همه واهتمامه في حياته المادية، وفي تحقيق رغباته وتجلي أمنياته وزيادة وفرته وثروته، معتقداً ان تحقيق الرفاهية والراحة يجعله سعيداً، في حين أنها لا تعدو مجرد متعة لحظية.

تحقق الأمور المادية سعة من الانبساط والمتعة والرفاهية التي يعتقد كثيرون أو يطلقون عليها "سعادة"، ولكن من اختبر الغبطة الروحية يعلم أن كل صورة الرفاهية والسعادة مجرد هباء منثور لا تمثل أي قيمة تجاه البهجة والفرح الروحي الحقيقي..

لا يمكن تذوق طعم السعادة الحقيقية من غير الانسجام التام مع الذات، والتشـرب من معين ملكاتها الروحية التي أودعها الله في أعماقنا، فعندها يتجلى بريق أشعة الروح للخارج ويلامس شخصيتنا وسلوكنا. كالمصباح الذي لا يمكن التنعم بضيائه ونوره، ما لم يشع نوره للخارج، ما فائدة المشكاة والزجاجة والزيت إن كان المصباح منطفئ معتم خافت مظلم. هنا فقط نحظى بسعادة حقيقية.. سعادة غير مؤقتة تنتهي بانتهاء متعة الشحن - أو ما جعلك تكون سعيدا - كالوفرة وتجلي الأمنيات والجذب، فكل هذه الأمور متع مؤقتة سرعان ما تنتهي.

إذا تيقنا من وجود أهدافنا الروحية في خزائن الروح، فإن اقترابنا وشحذ إرادتنا لفتح هذه الخزائن هو ما نشير إليه باليقظة الروحية. لأنها اللحظة التي تتكشف فيها هذه الأهداف

والغايات.. اللحظة الفيصل بين مرحلتين من حياتنا، التي تحولها من حال إلى حال، والتي تتجلى وتظهر فيها ملكات الروح بشكل جلي. هذه الملكات التي هي نسخة مصغرة من عالم الروح الأعلى.. اللحظة التي نعرف من خلالها حقيقة ما يشير إليه القرآن "بالحياة الطيبة"، التي ستغير منظورك للعالم ولكل شيء آخر.

وحين نشير إلى يقظة الروح فلا نعني بها التوجه الروحي، فالتوجه الروحي يسبق الصحوة واليقظة، ولكنه يختلف عنها. فقد يتوجه الإنسان روحياً ويطمح في تقصي الحقائق ويبدأ في حضور المحاضرات الروحية والاستماع لها، أو يجد رغبة شديدة في قراءة الكتب الروحية وما يماثلها من اهتمامات، وقد يتجه للذكر والأدعية والمناجاة، قد يمارس التأمل، أي أن يكون له توجهاً روحياً. ولكن اليقظة تتطلب شعوراً وجدانياً واختباراً شخصياً. فالتوجه الروحي يعتبر الجانب النظري لتجربة عملية حقيقية، هي اليقظة أو الصحوة الروحية.

انعكاس الصحوة للخارج

ذكرنا أن الصحوة الروحية تحدث نتيجة اشراقة الملكات الروحية وملامستها لوعي الشخصية في الخارج. وهذه الإفاضة ليس نظرية، فالصحوة تحدث على مستوى الوعي والفكر والعقل والقلب، كما تحدث على المستوى الجسدي كذلك، بحيث يشعر الإنسان أن ثمة شعور جميل ينتابه من الغبطة والبهجة الداخلية. ولعل هذا الشعور الحسي هو ما ينبه الإنسان ويرغبه ليحظى بمزيد من اللحظات المفعمة بالاتصال الروحي.

والشعور الحسي باليقظة أو الصحوة هو نهاية سريان القوى الروحية، بمعنى أن اليقظة تبدأ من الأعماق، من اللب والقلب فتضيء المنطقة المظلمة من النفس ومن ثم تسري للجسم

الأثيري لتتصل بالحسي المادي الذي يشعر بأن ثمة شعورٌ غريبٌ ينتابه مليء بالغبطة والبهجة والحب، بألق روحي عظيم يسرى فيه وفيض من الإمداد يتدفق في كل خلاياه.

حين تلامس إشراقة الروح قلوبنا نشعر بانشراح وحب لامتناهي، وحين تلامس مشاعرنا نشعر بتمدد واتساع وكأننا نملك العالم بما فيه، وحين تلامس عقولنا تشرق علينا إلهامات فكرية نورانية تعمق بصيرتنا للعالم، وحين تلامس أجسادنا نشعر بخفة وحيوية وقشعريرة وكأنها تنفض عنها عناء الحياة.

اليقظة الروحية إن حدثت ستكون أكبر وأعظم تغيير ممكن أن يحدث لنا في الحياة.. أعظم نقلة نوعية في حياتنا. البعض يشهد نقلات نوعية في حياته، فنيله لشهادة الدكتوراة قد يمثل للبعض نقلة نوعية، الزواج، ربح مبلغ كبير من المال، اكتشاف علمي جديد يحصل من خلاله على شهادة نوبيل.. لكن كل هذه النقلات لا تمثل شيئاً حقيقياً مقابل اليقظة الروحية. لأنها لا تتعلق بطموح أو انجاز شيء ما، لا تتعلق بحصولك واقتنائك على شيء ما، غير مرتبطة بعمرك القصير. بل تطال كل المستويات النفسية والعقلية والإدراكية والقلبية والوجدانية والروحية وحتى.. الجسدية.

لذلك فاليقظة الروحية ليس كما يراها البعض ترفاً فكرياً أو موضوعاً هامشياً أو دعة ثقافية كمالية، اليقظة تنقلنا من عالم الشهادة لعالم الغيب، وهذا الانتقال لا يتم بصورة نظرية فكرية فقط، إنما يطال كذلك الجانب النفسي والجسدي. وبالتالي تمثل فيصلاً ومنعطفاً في فهم - كما ذكرنا - جوهر الدين وأهم الأسس التي تبنى عليها بقية المعتقدات الأخرى..

يعبر القرآن الكريم عن الصحوة الروحية بالحياة الثانية، أو الولادة الجديدة. فالحق حين يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُم﴾ فالمراد بالحياة

هنا ليست الباعث الذي يعول عليه الحركة الجسدية المادية، وليست هي حيوية التفاعل مع البيئة المحيطة، لأن الخطاب كان موجها للأحياء وليس للأموات أو من سيولدون. كما أن الحياة هنا لا تعني الإيمان - كما يزعم البعض - لأن الخطاب كان للمؤمنين وليس للكافرين.

ومن هنا نفهم أن المراد بـ "الحياة" حياة الأرواح وليس حياة الأجساد وهو ما ننعته أو نصفه باليقظة الروحية..

فالقرآن الكريم يشير إلى نوعين من الحياة، حياة الأجساد والأرواح، فحياة الأجساد تزدهر وتحيا بالحركة وحياة الأرواح تحيا بالصحوة..

حين يتحرك شيء ما كان جامداً غير متحرك، نقول لقد دبت فيه الحياة أو أصبح حياً، أو أصبح ذي روح. والإنسان الذي يعيش حياته بعيداً عن ذاته منعزلاً عنها، يعيش في حالة غربة وابتعاد عن باطنه وروحه، حين يبدأ في توطيد التواصل فإننا نقول: إنه أصبح حياً روحياً أو انتابته يقظة روحية.

فاليقظة أو الصحوة هي الولادة الثانية، فبينما تحدث ولادة الإنسان على المستوى الجسدي حين يخرج من رحم أمه، حيث المكان الضيق والأفق المحدود، وحيث الظلام (خلقكم ظلمات ثلاث) ظلمات بعضها فوق بعض. حين يخرج إلى فسحة الدنيا، ينتقل من المحدود الضيق إلى اللامحدود مقارنة للمساحة التي كان يشغلها.

كذلك تحدث الولادة الثانية حين يخرج من رحم الظلال الأرضية ووهم الحياة إلى عالم الحقيقة. ويرى كم كانت الحياة معتمة وضيقة ومحدودة، وكم كانت كئيبة وموحشة ومؤلمة، مقارنة لما يشعر به حال الصحوة، التي تجعله يشعر باتساع في كل جوانب حياته.

ماهية الأهداف الروحية

عاشت ذواتنا قبل تجسدها الأرضي في عوالم غير مرئية متنوعة ومختلفة، تعلمت فيها الكثير من المعارف والحكم، وخاضت العديد من التجارب، فهي لم تأت من فراغ، ولكن كل ما تعلمته يبقى في إطاره النظري. كما أنها كانت فاقدة للشخصية الذاتية المنفردة، فكانت أحكامها جماعية ليس هناك إبداعات خاصة تفرق وتميز إحداها عن الأخرى. فحين تدرك أو تتعلم الروح شيئاً ما فإنه يسرى لبقية الأرواح، فليس هناك خصوصية فكرية ذاتية لكل منها على حدة.

ولأجل اختبار وتوثيق ما تعلمته بصورة عملية - لأنه سيسارع في تطورها بشكل كبير - ولأجل أن يكون لها ذاتية خاصة تفرقها عن الآخرين، كان ينبغي للأرواح أن تتجسد في بعد مادي حتى يكون بإمكانها تحقيق هذه الغايات. فكان نصيبنا نحن أن نتجسد في بلوة زرقاء معلقة في الفضاء أطلق عليها اسم الأرض، وهو اسم جنس عام، بمعنى لو حلت الأرواح في مكان آخر ستطلق عليه اسم الأرض كذلك تعبيراً عن الصلابة والكثافة والاستقرار. ولذلك وردت كلمة الأرضين في القرآن الكريم في عدة موارد، وهذا لا يمنع أن يكون لأرضنا اسم خاص يفرقها عن باقي الأرضين الأخرى، قد لا نكون بحاجة لمعرفة هذا الاسم ولكن العوالم العلوية تفرق بين الأرضين بالأسماء. فلكل أرض اسم خاص بها. ولهذا أطلقنا على الكواكب السيارة والنجوم أسماءً لنتمكن من التفرقة بينها.

إذن فتجسدنا المادي في الأرض يهدف إلى اختبار وتمحيص ما تعلمناه وتلقيناه في عوالم أخرى غير مرئية، إضافة إلى إضفاء وتوكيد صفة الشخصية الذاتية الفردية في ابداعاتنا

واختياراتنا. ولكن هناك شيء آخر في منتهى الأهمية، وهو أن تركيب الإنسان المادي بمكوناته السبعة (الجسد، الهالة، مراكز الحيوية، النفس، العقل، الذات، الروح) التي تطلب تجسده الأرضي أن يشملها ويحتويها جميعاً، جعلت منه كائناً مثالياً في التفكر والتأمل والخيال، والتطور والابداع والابتكار وله قدرة مذهلة على الاختيار. ولأجل هذه الأمر أصبح تصويره بيد القدرة آية في الإبداع واستحق سجود الملائكة له. وهو بالتأكيد ليس سجوداً حسياً شكلياً وإنما سجوداً بمعنى التعظيم لشأنه وتلبية احتياجاته ومساعدته لإتمام غاياته أثناء وجوده الأرضي.

حين يولد الإنسان تكون قواه الروحية في حالة من التناغم والاتصال مع المستويات الروحية الأعلى، لذلك نقول: "كل مولود يولد على الفطرة"، وبعد أن يكبر وينضج تبدأ بعض المفاهيم المخزنة في أعماقه التي اكتسبها من عوالم مختلفة في التجلي في حياته، وهذه المفاهيم والأفكار ينبغي أن يقوم بالتحقق منها عملياً في حياته، إما بتأكيدها أو إكمالها أو نفيها من وعيه.

دعونا نشرح الفكرة خطوة بخطوة وبتفصيل مسهب لأهميتها في معرفة سر الحياة واليقظة الروحية.

نتجسد وفي جعبتنا العديد من الأهداف التي نسعى لتحقيقها، أو المهام التي ينبغي القيام بها أو إتمامها. هناك أهداف عليا كاختبار حالة القرب أو التقرب من المصدر الخالق، اختبار حقيقة الوحدانية والانتقال من الجمع إلى الوحدة، تحقق مبدأ الحرية والاختيار، معرفة آلية الخلق والوجود، التناغم وتوحيد الأرواح الفردية.. وغيرها من أهداف أخرى.

كما أن هناك مفاهيماً اكتسبتها أثناء وجودها في عوالم أخرى قريبة الشبه من المستوى المادي، فتعمل على تثبيت وتمحيص الصحيح والصائب منها والتخلص من المفاهيم والمعتقدات

والسمات السلبية. وعلى الخصوص فيما يتعلق بالأنا والإيغو والتملك والسلطنة والتكبر.. وغيرها من صفات سلبية. أو غير المكتملة التي نحتاج إلى أن نكملها ونختبرها في حياتنا بشكل عملي.

ولأجل هذه الأمور الثلاثة:

1- توثيق الحقائق المعارف التي عرفناها والتي تم إيداعها في ذاكرتنا الروحية.

2- تعديل وتصحيح المفاهيم الخاطئة التي اكتسبناها في أطوار حياتنا المختلفة.

3- تكملة النواقص التي لم ننته منها بعد..

يختار الله لنا الأماكن المناسبة التي نستطيع فيها تحقيق هذه الغايات وتجسيد هذه الأهداف، أي إن اختيار مكان ولادتنا وأسرتنا ومحيطنا ومجتمعنا له علاقة قدرية ومصيرية بتحقيق أهدافنا الروحية.. ولكن كيف؟.. وما هو الرابط بينهما؟..

تبقى هذه الأهداف في وعينا إلى حين الولادة، فبمجرد أن نولد في عالم الدنيا تُحجب عنه وتتحول إلى الباطن وتحجز في ذاتنا الحقيقية، فلا نتذكر أو نعي منها شيئاً ﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ فنولد صفحة بيضاء لا نعلم شيئاً، ويغيب ما جئنا وخُلقنا من أجله في باطن ذواتنا.. فما السبيل إذن إلى معرفته؟ وكيف نعرف أهدافنا وهي مغيبة عنا؟

سيناريو الحياة

لقد جعل الله سيناريو حياتنا بكل وقائعها ومجرياتها وأحداثها دلالات معرفية تذكرنا وتنبهنا لأهدافنا الروحية. أي أن طبيعة الحياة التي نعيشها مفعمة بالعديد من الإشارات

والعلامات والدلالات التي تنبهنا وتذكرنا بأهدافنا الكامنة في ذواتنا.

دعونا نفصل الفكرة بمثال عملي حتى تتضح الصورة أكثر

على سبيل المثال: مدير يُرسل مندوبه أو من ينوب عنه لدولة ما لغرض وغاية معينة، وقبل أن يذهب يوصيه بعدة وصايا، يوصيه بأمور ينبغي عليه إكمالها، وأمور ينبغي التأكد منها، وأمور يصحح بعض الأخطاء فيها، وأمور يختبرها بنفسه ليتأكد منها، وبعد أن يتأكد أنه استوعب هذه الوصايا يسافر للدولة المعنية.

المدير يعلم أن هذا المندوب بمجرد أن يصل مطار الدولة التي سيسافر إليها، ويمر تحت جهاز الكاشف أو السكنر سوف تُمسح الذاكر القصيرة عنده، وبالتالي تتلاشى وتتبدد المعلومات التي أوصاه بها، هي موجودة في أعماقه ولكن لا يتذكرها على السطح، فماذا يفعل كي يتذكرها ويقوم بدوره أو واجبه تجاهها؟

سيزود المدير مندوبه بالعديد من الإشارات وينبهه بعلامات تثير فيه الذاكرة العميقة، كأن يضع في حقيبته شيئاً ما يثير فيه التساؤلات وينشط فيه الذاكرة، أو يجعله يسكن في مكان ما يحوي على صور وأشكال تذكره بالوصايا التي أوصاه بها، أو يكتب له كلمات في رسالة تشير إلى مراميه، ولكن إن لم تنفع هذه الأمور معه، فإنه سوف يرسل له شخصاً آخر كي يذكره بما ينبغي عمله، ويزوده بآلية معينة يستطيع من خلالها تذكر التعاليم والتوصيات (وهذا الشخص تكون له حصانه وحماية من جهاز - scan - الذي يمسح الذاكرة القصيرة أو يغيب الذهن).

وبالتالي فبدون أدوات التذكير والإثارة هذه لا تكون لإرساله - المندوب - خارج البلد أية فائدة.. فذهابه وسفره لا طائل منه.

إذا فهمنا هذا المثال واستوعباه جيداً نفهم القصة الحقيقية لوجود الإنسان في هذه الحياة..

الله عز وجل يوصينا بوصايا قبل نزولنا للأرض، وهو يعلم أن هذه الوصايا سوف تحدث لها عملية تغييب ونسيان ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ لذلك فهو يزودنا بالإشارات والدلالات التي تجعلنا نتذكر وصاياه ومواثيقه التي عهدناه معه. ولكن ما هي هذه الإشارات وأين تكمن..؟ وكيف نعرفها..؟ هذه الإشارات هي كل شيء يحيط بنا ويكتنف حياتنا، هي كل المعتقدات والأفكار والتقاليد والسلوكيات الموجود في أسرنا ومجتمعنا والتي تصل إلينا وتكون في متناول أيدينا، بمعنى أن كل ما يحيطنا هو إشارة لنا ينبغي أن نتذكر من خلالها شيء ما.

بمعنى أن وصايا الله التي تتضمن أهدافاً ينبغي إتمامها أو أموراً ينبغي إكمالها، أو معتقدات ينبغي تصحيحها. كل هذه الأمور سوف نراها في محيطنا وأسرنا ومجتمعنا الذي سنعيش فيه.. لذلك يختار الله لنا المكان المناسب الذي نجد فيه كل ما يتطلب لإكمال هذه الغايات. فالواقع الذي نعيش فيه هو المسودة الذي تعكس حقيقة أهدافنا الموجودة داخلنا.

فأهدافنا الروحية والحقيقة مستودعة في أرواحنا.. يظهرها الله ويعكسها في واقع الحياة الذي نعيش فيه بصورة نراها متجلية أمامنا. فإذا انتبهنا لها وقمنا بتغييرها في أنفسنا نكون قد أدينا مهمتنا. أما إذا غفلنا عنها فإننا نرتحل عن الحياة دون أن نحقق شيئاً مما جئنا لأجله.

الملائكة والأرواح العليا المكلفة من قبل الله عز وجل يقومون بهذا الدور تجاهنا، فتختار لنا الأوساط المناسبة التي تحمل ذات المعتقدات والأفكار التي نريد تصحيحها أو إكمالها أو التأكد منها وتوثيقها في ذواتنا. أوساط نكمل فيها المشوار الذي قطعناه سابقاً.

الله يريدنا أن نكتشف الحقائق بصورة عملية في الحياة، يريدنا أن نرى بأم أعيننا ما نريد تغييره في أنفسنا. لأنها حين تتجلى أمامنا فإننا سوف نتذكرها ومن ثم نعيها داخل أنفسنا ونقوم بتصحيحها وتعديلها..

حين يتم اختيار مكان ولادتنا، ويتم الترتيب مع الملائكة المكلفة بهذا الدور، فذلك لأن لنا هدفاً وغاية من وجودنا في هذا المكان بالذات، المكان الذي نحن فيه، الذي ولدنا فيه.. في الدولة، المنطقة، الحي، الأسرة.. كل هذه المكونات التي تحيطنا لم توجد عبثاً في حياتنا، وليس بشكل عشوائي. لأن هذا المكان هو الذي يحوي على العلامات والإشارات، يحوي على الأفكار والمفاهيم والمعتقدات التي ينبغي علينا تغييرها في أنفسنا.

فإذا لم نلتفت إلى كل هذه الأمور والعلامات التي تحيطنا، فإن الله يرسل الأنبياء ليذكرونا بهذه الوصايا والعهود. أو يزودونا بالآليات التي نستطيع من خلالها تذكر ما أنسانا الشيطان أو أنستنا الدنيا.

ومن هنا تكمن مشكلة السواد الأعظم من الناس الذين يجارون الحياة، لأن هذه المجاراة تعمي أبصارهم عن رؤية أهدافهم فيها. فهم ينظرون بعيون الأخرين، يفكرون بعقول الآخرين، لا يقفون وقفة تمحيص وتحقق لما يحيطهم. البعض منهم ينظر لها على أنها دار شقاء وبلاء في حين أن جملة من أهدافهم تكمن في عمق هذا البلاء. يتذمرون ويتأففون يجارون أحداثها بدل أن تكون لهم أعظم مدرسة من الممكن أن يتعلموا فيها ما يقربهم من أهدافهم الروحية.

لذلك إذا كنا نجاري الحياة، ونجعلها القيمّة على حياتنا، نعيش فيها يوم بيوم، دون انتباه وتفكر وتدبر وتأمل، نسير مع الركب ونتوجه وفق ما يقتضيه الآخرون، ووفق ما يوجهونا به، وفق ما يريدون، كيف لنا أن نعرف الإشارات والدلالات التي

أودعها الله في محيطنا؟ ولنقيس هذه الفكرة على ما بدأنا به حديثنا في آية (الآباء) على سبيل المثال:

فحين يُذكرنا الله في كتابه الحكيم ويقول: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ فهو لا يتحدث عن أقوام عاصرت التاريخ واندثرت فقط.. بل ينبهنا إلى خطأ جسيم وكبير نعانيه. فالآية إشارة تعكس ما ينبغي أن نعدله ونصححه داخل منظومتنا الفكرية والعقدية، نصحح ما وقعنا به من أخطاء..

فحين نقرأ هذه الآية ينبغي أن نتساءل.. هل نحن نعاني من هذا الأمر، هل نحن ممن يتبع آبائه. الآية تنبهنا إلى خطأ اتباع الآباء، أي أن نضع كلام الله جانباً ونجاري كلام آبائنا. والآباء لا تعني بالضرورة والد النسب أو الأب البيولوجي فقط، وإنما تعني القيّم على أفكارنا سواء تمثلوا في الجماعة التي ننتمي إليها أو المذهب الذي ننتسب إليه، أو التقاليد والأعراف والمفاهيم التي نعيش في ظلها أو البرمجة التي تبرمجنا عليها منذ الصغر.

والمشكلة الأكبر حين يضع البعض المبررات والذرائع التي توجب وتقيد الإيمان بهذا التقليد والاتباع، فتُخلق نصوصاً وتُصاغ مفاهيماً وتوضع قواعد تقنن مساره، قواعد فيها من الترهيب والإنذار والترويع ما يجعل كثير من الناس يدخلون في دوامة من الجهل المركب.

حين نرى المجتمع يخضع لآراء من سبقوه، يتكالب على تقديس الأشخاص الذين يأخذ عنهم دون وعي وتحقق، مجرد اتباع، إتباع يصل إلى درجة تعمى فيه الابصار، يكذب ما يراه بنفسه ويصدق بمقولة غيره ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ حين نعيش في مثل هذا الواقع فهي إشارة إلى أننا نعاني من

نفس العلة داخل أنفسنا. نعاني من هذا الخلل الذي ينبغي إصلاحه فينا. وهذا ما نقصده بالإشارة التي تذكرنا بما ينبغي أن نفعله..

ومن هنا نفهم لماذا نرفض بشدة مجاراة المجتمع والحياة، لأنها تعمي أبصارنا عن التحقق وعن معرفة ما ينبغي عمله. ما فائدة وجودنا إذا كنا نكمل عزف سيمفونية خاطئة كانت تعزف على مر القرون والأزمان؟ كيف نحقق غاياتنا إذا كنا لا نعيش لحظات انتباه ووعي ويقظة وإدراك وتفكر وتدبر لأنفسنا ولما حولنا.

هذه الفكرة من أهم الأفكار الروحية لذلك ينبغي شرحها بإسهاب ونمثل لها بعدة أمثلة:

المثال الأول:

شاب مغرور بنفسه يرى أن الغلبة للأقوى وأن الحياة دار صراع واقتتال، حين يعجز الأب عن تغيير هذه الفكرة في عقل ولده، يُطلعه على أحداث درامية مأساوية لما قد تتمخض عنه فكرة الغلبة والقتال، أو يرسله إلى دولة قريبة عانت ويلات الدمار والقتال وما تسفر عنه من مخلفات فقر ومجاعة وتدهور للبنى التحتية.

حين يعايش الابن هذه الأوضاع عن كثب ويرى بأم عينه كيف يتزاحم الناس للحصول على قليل من الماء الملوث، وحين يجوع أياماً لا يسد رمقه إلا فتات الخبز، يسمع أنين الثكالى والأيتام، يرى الخوف والهلع في عيون الأطفال.. إن هذا الواقع قد يغير نظرته للأنفة والسيطرة وحب التملك والاستحواذ على الآخرين، وحين يراجع نفسه وينتبه لما يدور حوله سيعرف أن فكرته عن الفوقية التي كان يتبناها خاطئة فيعمل على تغييرها واستبدالها بأخرى تدعو للمحبة والسلام.

وكم منا مر بتجارب مشابهة حين كان يعتقد بأمور ويتبنى أفكاراً تغير وقعها في وعيه وعقله بعد أن اختبرها بنفسه وعايشها في الواقع.

ولكن المشكلة تكمن في عدم الانتباه والتأثر والتماهي مع الأحداث. بمعنى أن الابن قد يعايش الواقع ولكنه لا يتأثر به، يرى المعاناة ولا يكترث لها، يسمع آهات المعذبين ولا يُعرها أية أهمية، يُعاين غضب الناس وحنقهم ولا يحرك فيه ساكنا.. فتبقى الفكرة - فكرة السيطرة والتملك - في وعيه لا تتغير. وبالتالي فالواقع الذي عاينه لم يغير فيه شيئاً. مثل هذا الابن كمثل كثير من الناس الذين يرحلون عن الدنيا دون أن يغيروا من أفكارهم وسماتهم وصفاتهم على الرغم أنهم ما يعايشون إلا صورة النقص أو الخلل الذي يريد الله الانتباه له وتغييره في أنفسهم.

المثال الثاني:

إنسان متماهي فيما مضى في عالم الماديات، فيولد في أسرة ثرية أو عائلة غنية أو مشبعة بالترف والغنى، فهذا الواقع إشارة وعلامة ودلالة على أن النفس الإنسانية مرت بتجارب وخبرات غير موفقة عن الهوس المادي.. فتولد في وسط تطغى فيه الحياة المادية بشكل كبير. بمعنى يولد في الوسط الذي ينبغي أن يغير فيه هذا التوجه داخل نفسه، أن يغير شغفه المادي إلى أمور أكثر أهمية، ولكنه بدل أن يغير من رؤيته المادية والشهوانية للحياة ينساق فيها أكثر وأكثر. الله عز وجل يرسل له إشارات بين فترة وأخرى، ويضعه في محكات ويبين له بعض الحقائق الروحية والغيبية، وقد يتعرض للأمراض المزمنة، ولكنه لا يُعير هذه الأمور أية أهمية، وقد يصرف مبالغ طائلة وكبيرة على شفائه، في حين أن شفاءه قد يكون مرتبطاً بعطائه وتغيير فكرته عن الماديات. فيبقى ما كان ينبغي أن يقوم بتعديله كما هو..

المثال الثالث:

مجتمع يحمل فكرة الانفصال.. بمعنى أن كل إنسان له كيان منفصل عن الآخر وأن البشرية غير مترابطة بأي شكل من الأشكال. في هكذا مجتمع تُخلق نفوساً تعاني من ذات الفكرة، وتتهيأ لها سبل العيش في أوساط مجتمع يقدس الهوية الشخصية الفردية والمصلحة الخاصة، ولكن حين ترجع هذه النفوس إلى ذاتها ستدرك خطأ هذه الفردية لأنها تسلب الأمان وتشجع على الطمع والجشع والأنانية وتقديس النفس وتروج للحروب والدمار. المكان الذي خلقت فيه يحمل معتقداً هو انعكاس لما في داخلها والذي ينبغي تغييره. ولعل هذا ما حدث في روسيا قبل مئة عام أو أكثر حين خرج من أوساط مجتمع لا ديني قهري متعصب تسلطي حاد الطبع علماء أسسوا للعديد من المبادئ الروحية العالمية.

المثال الرابع:

حين تختلج في النفس فكرة أن "الحياة سجن كئيب" أو أنها "سجن المؤمن" فإن قدر هذه الروح أن تُخلق في وسط يحمل نفس الفكرة، أي في وسط ومجتمع يؤمن بأن الحياة سجن كئيب. فيكون كأحد الأفراد الذين يعايشون هذه الفكرة التي تقيد بعضاً من سلوكياته ومناهج تفكيره.. ولكن في لحظة ما حين ينتبه لنفسه ويتوقف ليتأمل ويتفكر عن كثب سوف يجد عكس ما يُروج له المجتمع والمحيط، فالحياة مليئة بصورة البهجة والإمتاع والطبيعة المفرحة، فلماذا نقول بأنها سجن كئيب. وإذا كانت سجنا فلماذا يود المؤمن ترك نعيم الجنة والعودة للحياة كي يصلي ركعتين لله كما تذكر بعض الروايات. فينتبه إلى أن هناك مفارقة بين الحقيقة والواقع، بين الفكرة الصادقة وبين ما يدعيه الوعي الجمعي الذي يقنن مناهج وسلوك المجتمع بالصورة التي يريدها.

وبمجرد أن ينتبه.. يرسل الله له العديد من الإشارات التي تؤكد له هذه المفارقة. فقد يلتقي بشخص يُبان من حيث الظاهر فقيراً معوزاً رث الثياب مهلهل الهندام، قد يكون مريضاً أو معوزاً أو بلا مأوى. ولكن حين يقترب منه يراه في غاية السعادة والغبطة والفرح الروحي. مبتسم، راض، لا يطلب الناس إلحافاً لا يشتكي من شيء. فيتساءل عن سر البهجة والتألق الروحي الذي يراه في هذا الإنسان.. ألم يقولوا إن الحياة سجن المؤمن.. ألا ينبغي أن يكون السجن كئيباً مؤلما بشعاً. بينما يعيش هذا الشخص بروحية أسعد إنسان على وجه الأرض.

وهنا يبدأ في تغيير هذا المفهوم في قناعاته. فالمجتمع من جانب، وإشارة الرجل الفقير من جانب آخر، عملا دور المرآة العاكسة التي عكست الصفة الراسخة في أعماقه للخارج، لقد رأى تجلي الصفة التي ينبغي أن يغيرها في العالم الخارجي. وحالة الانتباه هي التي جعلته يتخذ قرار التغيير، حينها تبدأ النفس في معالجة الخلل الباطني في أعماقها والتي جاءت للحياة من أجله.

بينما عدم التوقف والانتباه هو الغفلة الحقيقية في الحياة، بمعنى أننا نغفل عن الإشارة ونتجاهل الإثارة ونجاري الواقع كتيار يأخذنا بعيداً عن أهدافنا.

البعض يفتح عينيه في أوساط وعوائل متدينة مؤمنة، على الرغم أنه حين يكبر لا يجد إقبالاً نفسياً وروحياً للتوجه الديني. وجوده في هذا المكان وضمن هذه العائلة المتدينة إشارة إلى ضرورة إعادة النظر في تقييم الأبعاد الروحية والدينية في وعيه وقناعاته، وحين ينتبه ويتفحص محيطه ويرجع إلى نفسه ويبحث عن الحقيقية سيعلم أهمية وجوده في هذه العائلة وهذا المحيط.

كثير من الملحدين أو اللاأدريين يعيشون في أوساط وعوائل مؤمنة، وجودهم إشارة إلى ضرورة تغيير قناعاتهم الباطنية. ولكن مع الأسف الشديد بدل أن ينتبهوا إلى ذواتهم ويغوصوا بأعماقها ويبحثوا عن الحقائق الجوهرية في الدين الحق، يعكفون على تصيد الأخطاء والزلات التي يقع بها كثير من رجال الدين، فيكون ذريعة ومبرراً لابتعادهم أكثر.

الفكرة أشبه بشخص يعاني من مرض ما، هو يجهل أنه مصاب به ولا يعلم علاماته وإشاراته، فيعتقد على سبيل المثال أن ازرقاق أظافره أمر طبيعي، فلا يسعى لعلاجه والتقصي عنه، ولكن بمجرد أن يرى فلماً عن هذا المرض أو يقرأ مقالاً عنه، أو يخبره شخص ما أن هذا الإزرقاق قد يكون إشارة إلى نقص في الأكسجين أو نتيجة لخلل في الدورة الدموية أو لارتفاع ضغط الدم، فإنه سينتبه له ويتعرف عليه ويجتهد للبحث عن علاج الأسباب الرئيسية وراء هذه العلامة.

لذلك.. فكل حدث، موقف، مشهد، مأساة، واقع، معتقد، آراء، نعيشها في الحياة وسيلة تذكير ينبغي الانتباه لها، فالله لم يخلقنا في هذه الأوساط إلا لكي نرى ونشهد ونعايش ما نريد تغييره في أنفسنا من صفات سلبية، أو تثبيت للقيم والمبادئ الفاضلة.. الله يريد منا تصحيح هذه المعتقدات في أنفسنا سواء تلك التي كانت تتعلق بجوهرنا الذاتي أو في نظرتنا للآخرين أو حتى بذاته المقدسة السامية.

وعي الإشارات والدلالات

ولكن هل ننتبه لهذه الإشارات؟ هل نُخضع ما نمر به من أحداث لعملية تمحيص وتأمل وتدبر؟ هل نرجع إلى ذواتنا يوماً

نستخبرها ونستشيرها عن ما نلاقيه ونتعرض له في حياتنا؟ مع الأسف الشديد نحن نجهل هذا الانعكاس..

يولد الواحد منا في محيط اجتماعي وثقافي وديني ويتبرمج وفق قناعاته وتصوراته ومعتقداته، برمجة لا يستطيع الانفكاك منها، حتى كأنه قد ولد بها أو جاء بها من العالم الآخر. هذا المحيط يشكل وعياً جمعياً يجعلنا أداة في تحقيق غاياته وأهدافه، وبالتالي يفقدنا حرية القرار والتفكير والإبداع والابتكار لأنه يتوجب علينا حينها ألا نغرد خارج السرب، فالشاردة للذئب.

هذا الوعي يلقننا وينقل لنا ما يعتبره حقائق ومسلمات ينبغي السير عليها، ينقل لنا رؤيته عن الله، وعن العالم، ويحدد لنا كيف تكون علاقتنا بالآخرين، وما ستؤول إليه حياتنا بعد الموت.

كثيراً من المعتقدات والأفكار التي نأتي للحياة كي نقوم بتغييرها وتعديلها تبقى كما هي. تبقى أهدافنا حبيسة أرواحنا ونمضي جل حياتنا نجاريها ونشبع حاجاتنا البشرية من متع وزخارف وتكاثر حتى نزور المقابر، فالكل يسعى لعمارة حياته وفق قناعاته الشخصية، فيقتطع ما يمكن اكتنازه لنفسه للتمتع به خوف الحرمان. فهو لا يرى من الحياة غير هذا التكالب. لذلك فكثير ممن تراودهم أفكار أو تنتابهم بعض الإلهامات يحاولون إبعادها عن أنفسهم لأنهم يعتقدون أنها لا تتماشى مع الواقع.. تخالف ما فتئ المجتمع على تقديسه.

الله عز وجل في مجمل آياته يُذكر الإنسان بأن له هدفا في الحياة.. فذواتنا التي خاضت المصاعب لم تأت للحياة هباء إنما لتكمل مخططاً ورؤية وهدفاً تم التأكيد عليه في عالم الروح وميثاقاً تم التعهد بالوفاء به. فأرواحنا التي تستضيفها الأرض تأتي مزودة بخطة تشمل كافة الاحتمالات السلبية منها والإيجابية، المؤلمة منها والمبهجة، المحزنة منها والمفرحة، دلائل

وعلامات هذه الخطة تعرفها الروح سلفاً قبل أن تتجسد، وبعد أن تخلق تكشف معالمها للنفس لتقوم باختبارها.

ومن هنا تأتي أهمية التفكر والتأمل والتمعن. أن نراقب أنفسنا على الدوام ونتأمل في الأفكار والمعتقدات التي تروج في المجتمع لأننا سنجد أننا نعاني في داخل أنفسنا بالعديد منها والتي ينبغي أن نقوم بتعديلها والتخلص منها. ومن ثم نقوم بنقل تجربتنا للآخرين لتكون الشرارة التي تنبههم لوجود هذه الأمور داخل أنفسهم.. لذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

لم يخلقنا الله لنمارس دور الضحية أو العابر المستكين الذي يُخضع عقله لوعي المجتمع فكراً وسلوكاً ومنطقاً ومعتقداً، بل ينبغي أن نقف وقفة جادة مع أنفسنا نراقب حركتها وندعم مسار تغيرها. ولنسأل أنفسنا بعد العمر الطويل الذي قضيناه في الحياة، ما المعتقدات والأفكار والسلبيات التي خلقني الله في أوساطها واستطعت أن أغيرها أو أتخلص منها في نفسي؟

للإجابة على هذا السؤال ينبغي عمل ثلاثة أمور:

1- تحديد المعتقدات والأفكار.

2- التأمل فيها.

3- تحققها في الواقع العملي.

لنتمعن في هذه التجربة العملية كمثال:

"أما وأني قد بلغت من الكبر عتيا.. فقد وقفت مع نفسي مراراً وتكراراً لأناقش حقيقة وجودي في الحياة لأنه أمر يشغل بالي على الدوام وأعده في غاية الأهمية، ولطالما تساءلت وتأملت وانتظرت كي يلهمني الله بصيرة أعرف من خلالها مرادي وغايتي، ويكشف لي عن الأمور التي ينبغي أن أغيرها في نفسي وأدعو أحبتي إلى تغييرها.

وجدت نفسي أعيش في محيط يؤمن بالعديد من الأفكار والمسلمات والمعتقدات كحقائق مطلقة لا يشوبها أي خلل، وأي خروج عنها يعد خروجاً عن الدين والمسار الطبيعي للحياة. يبدو أن هذه المعتقدات كانت موجودة وراسخة بالمستوى النفسي، وكان من أحد أهداف حياتي أن أغيرها أو أستبدلها أو أكمل وأتمم الصالح منها، لذلك خلقني الله في وسط يحمل نفس الأفكار. سأذكر لكم خمسة من هذه الأفكار حتى لا نطيل الموضوع..

أولاً: فكرة الإله المنتقم، المعذب، المتسلط، الغاضب المدمر القامع القاهر.. كنت أجاري هذه الفكرة إلى ما قبل أكثر من خمسة وثلاثين عاما. بعد ذلك انتبهت، وتوقفت، فاكتشفت أن كل هذه الصفات تتعارض وتتناقض مع الفطرة الروحية وأن المنعوت بهذه الصفات ليس إله العالمين الذي كتب على نفسه الرحمة، بل هو إله من صنع أفكارهم. فتلك الصفات النفسية لا تليق بالإله الذي تنبع منه فيوض الرحمة والحب اللامتناه، وكل ما جاء من هذه الأوصاف في القرآن لها تأويلها الخاص الذي ينزه الخالق عن التجسيد والبشرية والصفات النفسية ويحصر ذكرها في تقريبها للعقل الإنساني - كما بينا بالتفصيل في كتاب تنزيه الخالق - أخذت هذه الفكرة ردحاً من الزمن في تأملات مستفيضة حتى تحولت إلى قناعة روحية غيرت العديد من المفاهيم الأخرى.

في السابق كانت معتقداتي عن الله هي ما دونه الكتبه وما يُروج في المجتمع الذي أعيش فيه مبنية على الخوف والتسلط والهيمنة، أما الآن فالأمر مختلف جملة وتفصيلاً.

ثانياً: أعيش في محيط يعتقد أن العالم الروحي منفصل عن العالم الأرضي. فهو في السماء البعيدة سننتقل إليه بعد الموت، بينما وجدت أن عالم الروح مهيمن ومحيط ويكتنف العالم المادي بكل حيثياته وتفاصيله، وهو متداخل معه في كل شيء،

فما يفصلنا عنه سوى تماهي أفكارنا وانغلاقها بالمحسوسات المادية.

تغيير هذه الفكرة خلق ملامسة حقيقية مع العالم الآخر.

ثالثاً: أعيش في وسط يؤمن بسيناريو بداية الخلق وفق قناعات أناس لم تتوفر لهم أدوات البحث اللازمة سابقاً، وضحالة وعي الباحثين لاحقاً، الذين اعتمدوا النقل الحرفي دون التأمل والتدبر في أبعاده. وفي المقابل هناك من يؤمن بنظريات العلم الحديث وبالانفجار الكبير. وكلاهما جانب الصواب فبداية الخلق تنطوي على قصة الخطة الإلهية في الوجود.. قصة تعكس حكمة الله في خلق العالم المادي لا ينبغي أن تُحدد وتصاغ بعقلية بشرية محدودة، أو تعكسها نوايا وغايات مصلحية.

تغيير هذه الفكرة أعطانا أبعاد كثيرة عن سيناريو الخلق، حتى كادت أحجية الخلق أن تكتمل.

رابعاً: أعيش في محيط يرى الحياة دار صراع وتكالب ووحشية وأن الآخر هو عدواً وند لك، لا أخ لك في الدين ولا نظير لك في الخلق. حالة انفصال تام تصل إلى حد القتل والتمثيل والسب واللعن وتمني التخلص من الآخر بأي شكل من الأشكال. وجدت أن الأرواح البشرية تنتمي إلى مكان واحد ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إن تفشى فيها الحب وغمرتها المودة ستحقق المعجزات والكرامات.

حين نرفع أغلال الحقد والكراهية عن قلوبنا ونفك إصرها من التبعية سنشعر باتساع في الرؤية وإن ضاقت العبارة.

خامساً: أعيش في وسط يرى أن مقاومة المعاناة ومواجهة المشاعر والصدام معها أمر حتمي وضرورة مشروعة تتطلبه حياتنا، والتي تحولها إلى أوساط مليئة بالشكوى والتذمر

والاستياء والتأفف والغضب والسخط. أدركت فيما بعد أن هذه المقاومة تؤدي إلى استمرار المعاناة وتفاقمها، فحين نركز على أمر ما فإننا نمده بطاقة إضافية يصعب فيما بعد التخلص منها. وجدت أن تجفيف منابع التوتر والخوف والغضب في النفس، وتحويلها إلى مشاعر حب مفعم بالتسامح والغفران يخلق سلاماً داخلياً يحول معاناتنا إلى خبرات وتجارب.

عرفت سبب وجودي أو ولادتي في هذا المكان وفي هذا الوقت بالذات.

نفهم مما سبق أن نجاح تجربتنا في الحياة لا يتم من خلال معرفة خطة حياتنا فقط، وإنما من خلال كيفية الاستجابة لتلك الخطة. فلا يكفي أن أعيش حالة العوز أو الفقر مثلاً إنما كيفية استجابتي لهذا الواقع ومعرفة الغاية منه. فردود أفعالنا وكلماتنا وأفكارنا في هذه الخطة تخلق تجربتنا الشخصية وتطور مستوى وعينا وتؤدي إلى وصولنا لأهدافنا.

ذكرنا خمسة أفكار على سبيل المثال. الآن وقد حددنا هذه المتغيرات، نبدأ الخطوة الثانية وهي التأمل فيها كل واحدة على حدة:

1- أتأمل في الله كمنبع للحب والرحمة والعطاء والفيض.

2- أتأمل في الأبعاد الروحية التي تحيطني من كل جانب.

3- أتأمل لطلب الإلهام في تأكيد ومعرفة بداية الخلق.

4- أتأمل في الوحدة الروحية بين بني البشر.

5- أتأمل في التعامل مع جميع المشاعر والأفكار من حولي.

بعد ذلك تأتي المرحلة العملية:

1- أن أتوجه إلى الله بقلبي واستشعره في كل حركاتي.

2- أتحسس المحيط الروحي المنغمس فيه وأتفاعل معه.

3- أسعى للتمعن والبحث العلمي ووضع المخرجات الحقيقية بما يناسب الصورة الشاملة للخلق مع تمريرها على مرافئ الالهام والتأمل.

4- أتعامل مع جميع البشر ليس بمقاييس أشكالهم وأجناسهم ولكن من خلال أرواحهم.

5- أحول جميع المشاعر السلبية إلى مرافئ للحب. أحتوي وأحتضن كل ما يمكن أن يمسني بسوء وأفهم الرسالة الحقيقية منه.

كيف تحدث اليقظة الروحية؟

تحدث الصحوة الروحية من خلال أربعة طرق. ولكن قبل أن نذكرها ينبغي التطرق إلى مقدمة صغيرة، نشرح من خلالها باختصار ثلاثة مكونات مهمة في كل واحد منا، وهي: الشخصية والنفس والذات والتي عادة ما يُعبر عنها بالروح، في حين أن الذات شيء والروح شيء آخر مختلف. ولكن لسنا الآن بصدد الاختلاف بينهما لذلك سنستعمل مسمى الروح للمكون الثالث.

ودعونا نُعرّف كل واحدة بشكل مقتضب موجز وفق ما تقتضيه الحاجة ويخدمنا في الموضوع.

الشخصية

هي الكيان والهيكل المتجسد في الواقع وهو ما نراه ونتعامل معه في حياتنا اليومية، فحين ترى صديقك أو تبتاع غرضاً من بائع الخضار والفواكه، فأنت ترى وتسمع وتتعامل مع شخصياتهم، والتي تأخذ شكلاً معيناً أو جنساً معيناً أو مكانة معينة. وللشخصية وعي خارجية تدرك به الأشياء من حولها، فالمدركات الحسية الخارجية تفد للداخل عن طريقها، كما أنها تُعَبر عن التفاعلات وتتأثر بالأحاسيس والمشاعر الكثيرة المغمورة في النفس، فسلوكها - في كثير من الأحيان - انعكاس لما يختلج

في باطن النفس. فحين يرفض صديقاً لك أن يركب معك المصعد الكهربائي، فسلوكه هذا لا يعكس وعي الشخصية الخارجية، لأن صعود المصعد أمر طبيعي، ولكنه يتأثر بمعلومات مسبقة مغمورة في النفس (فوبيا) تمنعه من الصعود.

وبالتالي فعدم صعوده لا يمثل خياراً واعياً شخصياً إنما هو خيار نفسي يُجبر الشخصية على التصـرف والعمل بمقتضاه. فالشخصية تتصرف وفق مدركاتها الخارجية من جانب، ومن خلال انبعاثات داخلية نفسية من جانب آخر.

فالشخصية إذن الكيان التي يحتك ويتعامل مباشرة مع الأحداث ويتماهى مع الحياة.. هي رأس الحربة الذي يتعامل مع العالم المادي.

النفـس

حصيلة المشاعر والأفكار والمعلومات والقناعات والذاكرة الطويلة التي يتم حصدها من الولادة حتى الممات. هي المساحة البيضاء التي نولد بها والتي تمتلئ فيما بعد بالعديد من التصورات والرؤى والأفكار والقناعات والاعتقادات. هي أشبه بالأرض الخصبة الذي يغرس فيها الوالدين والأصدقاء والمعارف والمدرسة ووسائل الإعلام والإنسان نفسه العديد من البذور والفسائل التي تنمو فيما بعد وتشكل جزءاً كبيراً من شخصيته الخارجية.. بعض هذه البذور تنمو على السطح كالحشائش المسطحة التي تكون جذورها ناعمة وطرية. ولكن بعضها يكون ذات جذور عميقة تتغلغل في الباطن، والذي يطلق عليه علم النفس خطأ باللاشعور أو العقل اللاواعي. بينما الأصح أن نقول الشعور النفسي الباطني أو العميق.

تتطور النفس من خلال التجربة وتتعلم من خلال المتغيرات التي تتعرض لها في الحياة، لذلك قد تكون مرتعاً للعديد من

الأمراض النفسية والسلوكية، لأنها تتأثر بشدة بالواقع الذي يميل لمباهج اللذة والمتعة والهوى والأنا، كونها تتأثر كثيراً بالمستوى الغيبي الأدنى من الخلق، أي أن لها القدرة أن تتفاعل مع المستوى المتدني من المؤثرات الغيبية أو العوالم الكامنة في المستويات المتدنية. لهذا يجعل الله مكانها في الصدر، وهو أول المكونات غير المرئية للإنسان. لذلك يقول: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ مما يجعل هذه المنطقة مؤهلة للعديد من المؤثرات الخارجية.

الروح

هي جوهر كياننا الحقيقي، الذي وفد إلى الأرض كي يتطور ويؤدي مهمته الرسالية وفق الخطة الإلهية. هي ذاتنا الحقيقية التي تحمل كل معاني الحب والحكمة والنور والفرح والغبطة والمثالية والسلام والجمال وكل ما هو مدهش ورائع.

بعد أن عرفنا بإيجاز سريع ماهية هذه المكونات الثلاثة، فلنتخيل هذه المكونات على شكل طبقات بعضها فوق بعض، دعونا نشبهها بالكرة الأرضية.. فالأرض هي الشخصية، والغلاف الجوي هو النفس، والفضاء الخارجي هي الروح. فالشخصية هي الشكل الظاهري، والأعمق هي النفس، واللب هي الروح. دعونا نتخيل ثلاث طبقات بعضها فوق بعض.

إذا أتقنا تخيل هذا المشهد فسوف يسهل علينا معرفة معنى اليقظة الروحية وطرق تحققها.

الطريقة الأولى:

حين تضمر النفس تزدهر الروح

حين كنا صغاراً كنا أشباه ملائكة لأننا لازلنا على الفطرة السليمة، وماذا تعني الفطرة السليمة؟ تعني أن مساحة النفس

التي تقع بين الشخصية والروح كانت خالية بيضاء ناصعة لم تلوث بعد بالأفكار الخاطئة، ولم تدنس بالمفاهيم الخاطئة، ولم تطبع عليها المعتقدات والمسلمات المفروضة، ولم تلوثها مشاعر الخوف والقلق والاضطراب. وبالتالي فإن نقاء هذه المساحة من الكدورات والسلبيات يجعل تواصل الروح مع الشخصية قوياً ومباشراً. فلا شيء يقف أمام ملكات الروح من أن تنساب وتتجلى في الشخصية، فعبورها سهل ميسر لعدم وجود الكدر أو المعوق الذي تصطدم به. وحينها يكون بمقدور الروح أن تظهر ملكاتها وصفاتها وسماتها الروحية السامية إلى العالم الخارجي.

وبالتالي فالنفس السبب الرئيسي الذي تقف حجر عثرة أمام تجلي الصفات الروحية. فالبذور التي تنمو، والأشجار التي تزرع في حدائق النفس، تعمل على حجب إشراقة الروح للوعي الخارجي. فحين تنمو أشجار الحقد والمشاعر السلبية والمعتقدات الأسطورية والأفكار الخاطئة وتطبع المسلمات المفروضة، وتلوث بمشاعر الخوف والمعاناة والقلق والاضطرابات، فإن هذه الكدورات ستشكل سداً منيعاً يمنع إشراقة الملكات الروحة.

بمعنى أن النفس قد تمنع تجلي الحكمة فينا..

تمنع تدفق مشاعر الحب..

تحجر اندماجنا كروح وحدة مع الآخرين بسبب الأنا الفردية.

تقطع الطريق أمام تجملنا بالبصيرة النافذة.

تمنع الكثير من الإلهامات الروحية.

وبذلك تبقى صفات الروح مكنونة في الداخل بسبب السدود والحواجز التي تخلقها النفس. تبني النفس سدوداً عالية جداً إلى درجة تحجب رؤية كثير من الناس عن إدراك ما هو مكنون خلفها، فيُخيل لهم إن لا وجود حقيقي سوى لأجسامهم

ونفوسهم، فليس للروح سمات ولا صفات ولا تجلي ولا أي أثر من آثارها. كثير من الناس يعيشون حياتهم بهذا النسق، قد يعترفون من حيث الظاهر بوجود "الروح" كونها جاءت كمفردة في القرآن الكريم، ولكن حياتهم لا تعبر عن هذه الحقيقة، لأنهم يعيشون يومهم، تحت طائلة وقوى النفس بكل صورها ومعانيها، حياتهم نسخة لما في نفوسهم وليس لما تحمله أرواحهم، نسخة لمشاعرهم وأفكارهم وقناعاتهم التي اكتسبوها من الآخرين وليس نتيجة تجلي سماتهم الروحية.

لذلك فإن التعاليم الإلهية والتشريعات الربانية والطقوس الروحية لا تهدف إلى تقوية وتعزيز الملكات الروحية لأنها من عالم النور وهي تحمل كل صفات الجمال، إنما تهدف إلى تنقية النفس من العوالق والأدران وتطهيرها من الرواسب والمعتقدات حتى تسطع فيوضات الروح وتنير الجانب النفسي المظلم وتتخطاه إلى العالم الخارجي، ومن ثم تتجلي في الشخصية، فيشعر الإنسان بتلك الصفات الروحية من الحب والسلام والغبطة وكأنه فراشة ملونة في حديقة النور.

لذلك تحدث الصحوة الروحية حين تتهاوى أصنام النفس التي تقف سداً منيعاً أمام ملكات الروح، الأنا، الطمع، الجشع، التكبر، الغرور، الغضب، الخوف، التوتر، التسرع، العجل، الحقد، الكراهية، الفوقية، الخبث، الهوى، حب التملك، الأنانية، المادية، الوفرة.. وغيرها من صفات. ومع الأسف الشديد أغلب هذه الأمور يتم الترويج لها في بعض منتديات التنمية البشرية التي ركزت على تقديس وعلو شأن النفس في مقابل الروح.

نحن نخلق سدوداً أرضية في مقابل العروج الروحي، ندعو للوفرة والتكالب المادي وتجلي الأمنيات في مقابل الغبطة والسلام الباطني الذي لا يقارن بأي متعة من متع الدنيا. ولا يعرف حقيقة هذا الأمر إلا من عاش حقيقة الصحوة.

حين تتشـرب النفس من المتاع الأرضي بمعتقداته وتصوراته وبرمجياته تحدث حالة خصام وعدم توافق مع الروح.. تخرج من حالة الفطرة السليمة إلى حيث الأبعاد الأرضية، من التصور والحكمة الإلهية إلى حيث الوعي الجمعي الذي يبدأ في تسييرها وفق ما يريد. النفس المطمئنة التي أشار إليها القرآن هي التي تمُكن الروح من تجلي ملكاتها الباطنية، لأنها تكون كالمساحة البيضاء الخالية من الكدر والمعتقدات الباطلة والنزوات الهابطة، فيسري من خلالها شعاع الروح ويتجلى في الشخصية التي تشعر حينها بحقيقة وجودها.

وهذه العملية ليست كما يراها البعض ترفاً روحياً بل هي هدفاً وجودياً يتعلق بمسيرة الإنسان التطورية، وهذا الهدف لا يتوقف ما دامت الحياة، بدون يقظة وصحوة روحية لا يمكننا معرفة العديد من المفاهيم الغيبية، وهي أولى صفات المتقين كما ذكرنا. كيف لنا أن نعرف الله وأن ندرك حقيقة الخلق بلا يقظة؟ كيف لنا أن نعرف أين سنذهب بدون ولادة روحية؟ سيبقى الوعي البشـري يقتات على فتات الآراء والتصورات والمعتقدات البشرية ما لم يصل إلى صحوة روحية حقيقة. سيبقى الإيمان بالغيب ومعرفة الله والقرآن والعديد من المفاهيم الشبيهة حبيسة للتصورات النفسية الأرضية والاجتهادات العقلية المحدودة.

يسخر الله لنا كل ما من شأنه إزالة هذه الحجب وتحطيم هذه السدود، فمن جانب يحفزنا وبشكل كبير في ثواب الأعمال ومجازات العبادات، فيورد عدداً كبيراً من الآيات المحفزة والتي من شأنها إضعاف سلطان النفس، ومن جانب آخر يزودنا بمعول قوي بمقدوره أن يفتت جانباً من السدود العملاقة من خلال منهج الذكر بأبعاده اللفظية القولية والقلبية والوجدانية والروحية لأن ترديد هذه الأسماء المباركة باللسان والقلب، وفي

الوجدان أثناء الصمت وفي الفكر، من شأنه أن يحطم العـديد من الصفات النفسية السلبية.

ومن جانب آخر نجد أن الابتلاءات والمحن التي يمر بها الإنسان هي إحدى وسائل إضعاف قوى النفس. ففي حالات الابتلاء تشعر النفس بحالـة من الضعف والوهـن والانكسار وهذا شيء يلمسه كل واحد ما، لا أعتقد أن أحد لم يختبر هذه الحالة سواء على المستوى الشخصـي أو من خلال معايشته لحـوادث وأحداث وقعت للآخرين.

الإنسان حين يواجه بأزمة أو يتعرض لابتلاء أو حتى يصاب بمرض ما، يشعر بحالة من الانكسار والضعف، وهذا من شأنه أن يقلل محورية الإنسان حول نفسه وبالتالي تقل وتضعف قوى أناه وتتهاوى الأبراج الكبيرة العالية التي شيدها في نفسه.

لذلك حين تتحدث مع إنسان مبتلى أو مريض تشعر بهذا الاختلاف، تشعر بالوداعة والهدوء بشكل لم تعهده منه سابقاً، يتحول السبع الضاري إلى حمل وديع، النيران التي كان ينفثها أثناء كلامه في تعامله مع الآخرين تنطفئ وتخمد حدتها.

وبالتالي فإن هذه الحالة، حالة الانكسار وخمود قوى النفس أثناء الابتلاءات يحرك شيئا ما في داخل الإنسان، فيشعر كأن قوى في أعماقه بدأت تحاكيه وتؤازره وتشد من عضده، أو تبصره بأمور وتعرض عليه المساعدة. هذه القوى لأول مرة يعلم بوجودها ويتلمس آثارها.

الروح في كل الأوقات وخصوصاً في أوقات الأزمات والنكبات والحوادث والمرض، تحاول أن تثبت وجودها في حياة الإنسان، والشعور الذي ينتاب الإنسان أن ثمة شيء ما، شيء جميل بدأ يتحرك وينبض في داخله، هذا الشـيء ما هو إلا همسات روحية تحاول أن تستغل ضعف النفس وتتواصل ولو بشكل بسيط

وتظهر صفاتها للخارج. الروح تقتنص أية فرصة، بل أقل فرصة كي تثبت وجودها وتعلن للإنسان أنها هنا، قد تنجح في بعض الأحيان، لذلك بعض الناس تتغير حياتهم بعد معاناة شديدة أو بعد مرض عضال أو حادث ما أو حتى بعد كارثة طبيعية، أو بعد فقدان شخص عزيز.

لا نقول إن الصحوة مرتبطة بهذه الأمور ولكن ما نقصده أن النفس هنا تكون في أضعف حالاتها في الأزمات والابتلاءات مما يُمكن الروح أن تظهر قوتها وصفاتها في العالم الخارجي.

ولكن مع الأسف الشديد كثير من الناس بمجرد أن تنفك العقد وتنحل المشاكل ويشفى من مرضه يرجع إلى سابق عهده إن لم يكن أكثر أنانية وأكثر جبروت وطغيان عما كان عليه في السابق..

هذه النفحة المقدسة من روح الله تقتنص أي فرصة، وتسعى بكل الطرق للتجلي ولكن الإنسان بمجرد أن يعي ويخرج من هذه الأزمات يقاوم هذه الصحوة في داخله.

الله عز وجل يحتوينا من كل جانب، ويهيئ لنا كل الظروف لتحقيق غاباتنا وتجسيد أهدافنا عبر تحفيزنا بثواب الأعمال، أو من خلال الابتلاءات والمحن التي نمر بها أو حتى من خلال المدد المضاعف الذي يرسله لكي يعين الإنسان بين فترة وأخرى.

صحيح أن الحياة تقوم على مبدأ الإيجاد والإمداد.. فلولا المدد الإلهي المستمر منذ الخليقة إلى الآن وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لولا هذا المدد لساخت الأرض بمن عليها، ليس الأرض التي نعيش عليها ولكن جميع مكونات المادة في الوجود، ولكن تحدث أحياناً منعطفات كبيرة في حياة البشرية، تبدأ الأرض تعاني من أمر ما، لذلك يمد الله في هذه الأزمات العالم بمدد مضاعف من عنده كي يعين أحب المخلوقات إليه ويساعده للخروج من هذه المنعطفات الصعبة.

هذا المدد يؤثر بشكل كبير في الأبعاد الروحية لأنه من نفس الطبيعة، ولكنه لا يعمل إلا حين تكون لدينا الأداة المناسبة، تكون لدينا تلك القلوب الشغوفة التي تستقبل هذا المدد وتشعر به فتعمل فيما بعد للاستفادة منه في تطورها الروحي.

الطريقة الثانية:

ينبغي أن لا يغيب عن تخيلنا الطبقات الثلاث التي أشرنا إليها سابقاً.. الشخصية، النفس، الروح.. ذكرنا في الطريقة الأولى أن تفريغ القوى النفسية يؤدي إلى تمدد أشعة الروح وبسط سلطانها على النفس ومن ثم على الشخصية فتُظهر الروح ملكتها..

الطريقة الثانية تتعلق بالوعي والإدراك.. فحين يكون الإنسان واعياً عاقلاً مدركاً لحقائق الأمور وبواطنها، شغوفاً للمعرفة ذو همة عالية في البحث وتقصي الحقائق والتبحر في الكليات.. قواه العقلية دائبة التفكر والتدبر والتمعن في استقصاء الأمور المهمة والحقائق في الحياة، فمن شأن هذا التفكير الواعي أن يستقطب ويستميل القوى الروحية أن تدخل منطقة الظلام النفسية. وعلى الخصوص تلك المتعلق بالحكمة، فالتفكر في الأمور الكلية والتأمل بعلة الخلق والحياة والبحث عن هدف حقيقي غير مادي يخلق قوة جذب قوية تستقطب أشعة الروح. هذا النوع من التفكر والمعرفة والوعي يهيئ أرضية صالحة للروح كي تمد أشعتها لتتجاوز القيود النفسية فتصل إلى الوعي الشخصي وتثريه بما تحمله من بصائر وحكمة.

لذا قد نفاجئ في بعض الأحيان بأناس لم يكونوا قد تمكنوا من قمع أناهم أو التخلص من بعض الصفات النفسية، ولكنهم عاشوا صحوة روحية كاملة، والسبب أن الوعي المتطور والتفكر الراقي هو نتاج تلك الاشعة التي اخترقت حاجز الظلام. وبعد

الصحوة تتضح لهم العديد من الأمور فيبدؤوا في التخلص من صفاتهم السلبية وتأكيد على الإيجابية حتى يستمر الدفق الروحي. ولعل هذا ما أشارت إليه الحكمة التي تقول: "ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة".

الطريقة الثالثة:

أما الطريقة الثالثة فهي عن طريق المدد أو القوى الخارجية. أي عن طريق قوى خارجية، أو ملكات روحية متجلية في شخص ما ينقلها لشخص آخر. وهذا ما كان بعض أنبياء الله ورسله والصالحين يفعلونه مع الناس، فكانت لمساتهم ونظراتهم تحول الإنسان من حال إلى حال. وكما قيل: "رب نظرة يبلغ فيها الفتى مبلغ الرجال". فسواء كانت نظرة أو لمسه أو مصافحة أو دعوة صادقة فمن شأن هذه الأمور أن تغير من معادلة الباطن وتجعل أنوار الروح مهيمنة ومشرقة تتجاوز منطقة الظلام النفسية.

لقد كان المعلم والمرشد الروحي أو الماستر فيما مضى يستخدم هذه الطريقة مع تلاميذه لتحفيزهم وترغيبهم للاستمرار في العمل الروحي. فقد كان المريد أو طالب العلم يبقى سنين طويلة يمارس خلالها مختلف الأعمال الشاقة والدقيقة والمتعبة حتى يحظى بالقبول والرضا من معلمه. لذا كان البعض يتذمر ويتململ من طول المدة وصعوبة المشقة، فكان المعلم أو المرشد إذا رأى حالة التململ أو الكسل من أحد تلاميذه يضع يده على كتفه، فيتغير حاله ويدخله في صحوة روحية مؤقتة يغمره فيها بالحب اللامتناهي ويرى للحظة حقيقة الأشياء، ثم يرفع يده فتعود حالة الطالب على ما كان عليه. يريد المعلم بهذا العمل أن يكشف للطالب والمريد بصيصاً مما سيحصل عليه فيما لو استمر في الذكر والالتزام بالنهج الروحي.

وفي الواقع هذا هو الهدف الحقيقي لوجود الأولياء والصالحين سواء في حياتهم أو بعد مماتهم وهو مساعدتنا للوصول والتقرب إلى الله، عبر الوعي الروحي والمدد المعين الذي يمكننا من التغلب على قوى النفس الظلامية.

الطريقة الرابعة:

أما الطريقة الرابعة فهي التي لا نعلم عنها شيئاً سوى أنها تحدث من الله والعالم الروحي دون سابق إنذار أو أية مقدمات. يختص الله برحمته من يشاء لأسباب يعلمها هو ونجهلها نحن. بالطبع هناك أسباب خفية وقد تكون نتيجة لأعمال لم تكن بحسباننا يوماً. هو أعلم بها منا فهو علام الغيوب.

المدارس الروحية تركز في اليقظة على الطريقة الأولى مع الاستعانة والرجاء أن تعمل الطرق الثلاث الأخرى. لذا ينبغي أن نركز على جلو النفس ونقائها والتخلص من الصفات الظلامية حتى تشرق أنوار الروح في وعينا وشخصياتنا الظاهرية. أما الطريقة الثانية فتعمد على وعي الإنسان وتفكره واستغراقه في الأمور الكلية، لذلك عادة ما يحظى الفلاسفة والمفكرين ببعض لمحاتها.

كثيراً من الإخوة والأخوات يشرقون ويغربون هنا وهناك، يدخلون في أكثر من دورة لعلهم يتطورون، يقرؤون عشرات الكتب لعلهم يفهمون، يمارسون عشرات أنواع التأمل لعلهم يسكنون، ويتناولون العديد من الأفكار التي يناقض بعضه بعضاً، في حين أن اليقظة تعتمد بشكل رئيسي على التخلص من قوى النفس وسلطان الأنا.. في التخلص من المعتقدات الفكرية التي ترسخت في أذهاننا منذ مئات السنين، في التخلص من الصفات التي ذكرناها آنفاً والتي تقوي عضد أوثان النفس، وفي ممارسة التأمل والصمت والسكون، والأهم من هذا كله الطلب والإلحاح على الله أن يفيض علينا بمدد يساعدنا في هذه الأمور كلها.

مشاعر اليقظة

تحدث اليقظة بصورتها الطبيعية نتيجة كم من التساؤلات والأبحاث وتوجيه الهمة للأبعاد الروحية - كما ذكرنا في الطرق الأربعة - والتي تأخذ ردحاً من الزمن، قد يطول أو يقصر على حسب همة الإنسان. ولكن ثمة مشاعر وجدانية جارفة قد تظهر فجأة وبصورة قوية ومركزة عند البعض بين فترة وأخرى بحيث تؤثر حتى على المستوى الجسدي فتقشعر جلودهم.

وهذه القشعريرة ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ إشارة عملية وحسية تجعل الإنسان يؤمن بحقيقة الملامسة الروحية، وأن تأثيرها لا ينحصر في بعدها النظري والفكري والعقلي، بل يتفاعل وينفعل حتى على المستوى المادي الجسدي. يحتاج البعض إلى هذه القشعريرة كي يتيقظ ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ لأنها تكون بوابة دخوله الروحية وطريق هدايته ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

تارة يخلق الله حالة من الوصال المفاجئ يرافقه دفق قوى من مشاعر الوجد والألق الروحي، قد يكون حينها الإنسان راكعاً أو ساجداً، واقفاً أو متكئاً، متأملاً أو متهجداً، واعياً أو في حالة استرخاء.. قد يكون في بيته أو على شاطئ البحر أو أثناء عمله.. يداعب طفلاً، يقرأ كتاباً، يشرب كوبا من الماء. في هذه اللحظة يتغير كل شيء في حياته، فإن عرف حقيقة هذا الوصال واستثمره قد تمثل له هذه اللحظة ولادة جديدة في حياته.

اليقظة الروحية تغير العديد من برمجة مشاعرنا، فمن خلالها سنشعر بحب عميق ساحق لكل المحيطين بنا.. بل لكل الموجودات. شعور جارف عميق متدفق بالحب نشعر به لأول مرة لا يقارن بحب العاشقين، حب من نوع آخر لا نشعره بقلوبنا فحسب بل يخرج من صميم أرواحنا وكل خلايانا، وكأننا

أصبحنا أشبه بكائنات مشعة يتدفق منها رذاذ الحب للكون. نشعر باتساع كبير في القلب وكأنه يلامس كل الوجود. حالة من الانفتاح والتوسع والتمدد الروحي وكأنه يطاول السماء، في داخلنا سلاماً وفضاءً واسعاً من السكون والهدوء. يتوقف الزخم الفكري والذهني والتحليلي للأفكار فهي الآن تسبح في فضاء لا محدود لا يمكن حبسها في الدماغ المادي. إدراك قوى في الوعي بحيث تهون وتتلاشى كل صورة وأشكال المعاناة والمآسي التي تكون عالقة في النفس. نشعر كأن العالم كله بين أيدينا، وكأننا قطرة تذوب في محيط من الحب والبهجة. نشعر بقشعريرة في الجسم، وخفة في الأعضاء، حتى يقول البعض ظننا للوهلة الأولى وكأن قانون الجاذبة توقف عن العمل.

هنا تكون اليقظة أشبه بصدمة، انتفاضة داخلية، أشبه بسد كان يحجر الماء ثم يتصدع ويتشقق فيتدفق منه الماء بقوة ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء﴾ لحظة تدفق الماء وانفجاره وسريانه بقوة هي لحظة اليقظة الروحية. ومن هذا الماء المتدفق بقوة تنشأ وتتشكل أنهاراً ومسارات مائية أخرى تلامس كل المستويات العقلية والقلبية والنفسية والتوعوية والروحية، وحتى الجسدية.

ما يحدث اثناء اليقظة أن الإدراك والوعي البشري الإرادي الخارجي بدأ يرتبط ويلامس ويتواصل مع الملكات والصفات الروحية المودعة في أعماقنا، فنبدأ في الشعور بتلك الصفات عن كثب. أي أننا نعيش ونعايش هذا الشعور.. سواء الحب.. التوسع، حالة الحضور القوية التي نشعر بها.. تماسنا ومحاكاتنا بالاندماج مع كل شيء حولنا.. كل هذا يحدث نتيجة للتواصل أو التماس مع الملكات الروحية الباطنية.

أي بمجرد أن يرفع الحجاب الذي يحول بيننا وبين هذه الملكات ويتصدع السد الحائل بينها وبين الخارج.. بمجرد أن

تنقشع الغيوم تبدأ تظهر ملكات وصفات الروح على الشخصية الخارجية.

اللحظة التي نتيقظ فيها هي لحظة المواجهة الفعلية مع ذاتنا العليا، لحظة اللقاء المباشر والحقيقي معها والذي يحدث لأول مرة في حياتنا.. لأول مرة نعرف حقيقة من نحن.. كل التعريفات التي عرفنا بها أنفسنا سابقاً سوف تتلاشى.. كل الصور التي رسمناها عن شخصيتنا وعبرنا بها عن أنفسنا وكل المسميات التي اخترناها سوف تختفي. في اللحظة التي تنقشع فيها غيوم الأوهام عبر أشعة الروح القوية، سنعرف حينها ذاتنا على حقيقتها. لذلك فالأحاسيس التي نشعر بها تكون نتيجة هذا اللقاء، فالاتساع والغبطة والبهجة الداخلية هي نتيجة ملامسة أرواحنا وذواتنا مع شعورنا ووعينا الخارجي.

لذلك من يختبر هذه اللحظة سيجد أن المشاعر التي تنتابه تكون خليطاً من الذهول والرهبة والفرح والغبطة.. وكأن كل المشاعر تتدفق دفعة واحدة.. ولكن لا تلبث أن تهدأ فيما بعد. فالحدث أقوى من سعة الوعي وإدراك العقل الذي يحاول أن يفسر ويحلل ما يحدث له.. يريد أن يعرف لم تنتابه هذه المشاعر التي لا يجد لها أي تفسير سوى أن يتركها تسـرى وتأخذ مجراها في مستوياته المختلفة.. ولكن بشكل عام يشعر الإنسان حينها وكأنه قد لامس الجنة. وأنه على اتصال مع ملكات روحية قوية لم يعهدها من قبل في حياته.

وبالتالي فاليقظة ليست هي حكراً على أحد دون الآخرين، فهي لا تتعلق بالمسميات والألقاب أو المكانة العلمية أو الوجاهة، هي تتعلق بالقلب وبتصدع الحاجز النفسي، فرب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره. من الممكن أن تتجلى في لحظة ما في حياة أي واحد منا ويستشعر آثارها. فقط كل ما علينا أن نهيئ أنفسنا وندعو الله عز وجل ونطلب منه باستمرار أن يمدنا

بالعون وأن يفيض علينا من رحمته وبركاته لكي نحقق هذه الصحوة في ذاتنا.

فالصحوة ليست كتاب نقرأه أو أفكار نتبناها هي تغيير حقيقي يلامس قلوبنا ومشاعرنا وإدراكنا ووعينا.

لا يمكن تحديد وقت ونوعية هذه الولادة.. مهما كان مستوانا الروحي ومهما بذلنا من ممارسات روحية تأملية، وأزلنا كل الرواسب النفسية، تبقى هذه الولادة بيد الله وحده الذي يثير محفزات الباطن. لذلك من الأخطاء الكبيرة التي يقع فيها الكثير هو الملل والتذمر وعدم الصبر.

فالكل يسأل نفسه متى تحدث هذه الصحوة؟ متى أصبح روحانياً وأشعر بالسلام والفرح والغبطة التي يتكلمون عنها؟

احذر.. ثم احذر.. ثم احذر.. فتلك أوهام الشيطان الذي لا يريد لهذا أن يحدث. بل إن هذا الشعور عادة ما يأتي في المراحل الأخيرة حيث يصل الإنسان إلى نقطة يشعر فيها بعدم جدوى ما يقوم به، فاحذر أن تستسلم ففي هذه النقطة يتم تغيير قدرك، ونيل مقصودك.

الولادة الجديدة أو اليقظة الروحية.. ليس مصطلحاً أو مفهوما مجازياً، هو بالفعل ولادة في عالم آخر. هو أشبه بمن كان يرى الحياة بالأبيض والأسود فقط، ويراها الآن بكامل ألوانها. عادة ما نعيش حياتنا داخل عباءة من الأفكار والمعتقدات تحدد لنا الخطأ من الصواب، كأننا داخل بيت مغلق من القناعات والمعتقدات، حين تحدث الصحوة تخترق أشعتها هذا الحجاب وتهبنا بصيرة جديدة لرؤية الأشياء على حقيقتها. كما كان النبي (ﷺ) يقول: "اللهم أرني الأشياء على حقيقتها". لذلك فالبعض قد يتراجع أو يرفض هذه البصيرة في البداية لأنه لم يعتد عليها في حياته.

البعض قد تنتابه مشاعر سلبية فيعمل على مقاومة الصحوة لأن شخصيته لا زالت غير مستعدة لهذا التغيير، لا يزال غير مستعد للتخلي عن الموروث الخارجي، وقد يرى أنها تبعده عما كان عليه آباؤه وأجداده أو ما هو مبرمج عليه.

لذلك فالصحوة قد تخرج البعض من منطقة الأمان التي اعتاد أن يعيشها، منطقة التلقي والأخذ والتلقين والتفكير بعقول الآخرين. هذه منطقة أمان بالنسبة لكثير من الناس.. أن يعيش في الحياة كمتلقي يفكر الآخرون نيابة عنه ويحددون له أهدافا بدلاً عنه.. الصحوة تخرجك من منطقة الأمان هذه وتخلق لك هوية جديدة خاصة بك.

تجد هناك عدم انسجام وتوافق بالمعتقدات والأوثان القديمة، لذلك قد تتخلى عن العديد من العلاقات وقد تشعر بالوحدة والغربة "فطوبي للغرباء" حين تنتابك هذه المشاعر اعلم أنك في غاية الشجاعة وأن ما تشعر به هو نتاج تحرير نفسك من تلك التبعات. قد تفقد بعض الأصدقاء والمعارف ولكنك ستحظى بما هو أسمى وأهم من كل الصداقات.. وأين هذا من ذاك.

اليقظة.. نقلة نوعية

اليقظة الروحية تعمل على تفتق الملكات الداخلية وعلى زيادة إدراكنا وفهمنا واستيعابنا لما نملكه من أفكار ومفاهيم، تعمل على إلقاء الضوء على الأمور المهمة في حياتنا، تغير من نظرتنا لأبعاد الحياة. فحين نصحو سنتوقف عند العديد من المفاهيم التي كنا نمر عليها مرور الكرام. في الصحوة لا توجد مسلمات بلا تحقق ووعي واختبار. لا يوجد تلقين وإنما استيعاب وحضور لتتحول المعلومة إلى يقين ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

في الصحوة تتحول آيات الله حين نقرأها إلى ومضات من نور ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾ بمعنى أن ننظر حقيقتها.

في الصحوة لا يبقى رسول الله (ﷺ) شخصية تاريخية يحتفل به يوم ولادته وتأبينه يوم وفاته، في الصحوة نعرف معنى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾.

في الصحوة نعرف معنى الجلال والجمال، معنى الألوهية، الوعي، الفيض، الولاية، حقيقة المملكة الإنسانية، حقيقة ذاتنا العليا، سنتكشف العديد من الأهداف الحقيقية في حياتنا، سنعلم جوهر إنسانيتنا، وسندرك لأول مرة ماذا تعني كلمة الله.

سندرك أن أغلب ما تعلمناه ودرسناه وسمعناه وقرآناه وحفظناه لا يعدو أن يكون مجرد آراء بشرية واجتهادات شخصية في كثير منها جانب الصواب.

وهذا ما تشير إليه الأحاديث الشريفة التي يتطرق بعضها إلى كمال العقول في آخر الزمان، بعبارة "ستكتمل العقول"، حين يفاض عليها من المدد المقدس، وهذا الكمال لا يمكن أن يحدث دون يقظة روحية حقيقية.

زمن الصحوة

لماذا نقول إننا في زمن الصحوة الروحية؟ لأن الله.. الإله المحب اللطيف تقدست أسماؤه وتجلت صفاته، يرى عن كثب واقع حالنا فيمدنا بمدد مضاعف بين فترة وأخرى حتى تتوازن قوى الخير والشر في العالم..

نحن لسنا في مستوى النبي الأعظم (ﷺ) كي يرسل لنا الأمين جبرائيل عليه السلام. ولسنا كنبي الله موسى حتى يكلمنا من وراء حجاب.. ولسنا كنبي الله داوود الذي يرسل له ملائكة يراهم عيانا. ولكنه يرسل لنا مدداً مكثفاً للعالم علنا نخرج من غفلتنا.

الله يرسل فيضاً مضاعفاً من المدد الروحي بين فترة وأخرى من شأنه أن يساعدنا في تجلي صفاتنا الروحية، وحاجتنا الآن إلى يقظة روحية أكثر مـــن أي وقت مضى. لقد وصلنا إلى نقطة تحول في التاريخ البشـري، أصبحنا بحاجة إلى اتخاذ قرارات وخيارات مختلفة في كل وقت، وما لم تكن هذه الخيارات سليمة وحكيمة فقد تسبب تقهقرنا في الحياة. صحيح أن هناك توجها مادياً إلحادياً قوياً في العالم اليوم ولكن في المقابل هناك الكثير ممن يتوقون للتوصل إلى أهدافهم الروحية واختبار الصحوة الروحية. كثير من الناس يبحثون عن معنى مختلف لحياتهم، بدأ الكثير يدرك أهمية المشاركة الوجدانية والإنسانية مع جميع البشر.

يعتقد البعض أن ثمة موجة كبيرة من النور ستغمر المعمورة وتكتمل عقول البشر، كثيرون ينتظر.. ينتظرون ولكنهم لا يشعرون ولا يدركون أن موجات النور التي ينتظرونها تغمر المعمورة بين فترة وأخرى دون أن يشعروا بها أو يلتفتوا إليها، لأنهم فقط ينتظرون، ولا يعملون، ولا يهيؤون أنفسهم لتلقى هذا النور. يعتقدون أن التغيير سيحدث من الخارج. نعم سيكون هناك مؤثر ومحفز كبير من الخارج ولكن هذا المؤثر لا يؤثر فينا ما دامت قلوبنا مريضة مقفلة ومصفدة بأغلال التوجهات المادية والأطماع الشخصية.. كيف يؤثر النور - وإن كان عظيما - على أرواح محجوبة خلف أبراج عالية غرستها الأنا في نفوسهم.

نعيش اليوم يقظة روحية عالمية، فهناك مدد وفيض مميز أمد الله به العالم قبل سنوات، يعتبر من المحفزات القوية لإثراء الحالة الروحية التي تهيئ لنا صحوة روحية مثالية، سيغير من طبيعة الأشياء على الأرض ويحول العالم إلى بداية جديدة..

إذا لم نستثمر ونستفيد من الصحوة الموجودة الآن قد لا نستطيع أن نهيئ أنفسنا للنقلة التي سيشهدها العالم مستقبلاً ﴿يوم يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ

مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انتَظِرُواْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ﴾ الله يعزز قوانا، ويغدق علينا بكل متطلبات الصحوة، ويرسل دلائل وإشارات بين فترة وأخرى علنا نتعظ وننتبه، ويحذرنا أن ثمة أمور طبيعية وكارثية ستحدث نتيجة ما اقترفته أيدي البشر على مر العصور.

الانتظار الحقيقي يكون بتغيير النفس من الداخل.. لأن هذا التغيير هو الذي يتفاعل ويستقطب المدد العظيم الذي يعتبر سنة من سنن الخلق وآية من آيات الله الكبرى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهُمُ الْمَلآئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ..﴾.

اليقظة اليوم لها طابع خاص مميز، فما يحدث الآن ظاهرة عالمية، فيما كانت في السابق ظاهرة فردية. وهذا ما يدعم التصورات القائلة بأننا على أعتاب مرحلة جديدة من تطور الوعي البشري.

هل اليقظة مطلب ديني؟

يتساءل البعض لماذا لا يوجد في الإسلام إشارة مباشرة لليقظة الروحية؟ لماذا لا نقرأ مثيلاً لما تقول في الكتب والمراجع؟

يتساءلون وهم لا يدركون ولا يعون ولا يفهمون أن أصل الدين الإسلامي خاصة، وسائر الأديان السماوية والأرضية عامة مبنية وقائمة على فكرة اليقظة الروحية.

لا يمكن لأي نبي أو رسول أو وصي أو وليّ، أن يدرك حقيقة التوجهات الرسالية والأوامر والتشريعات الربانية ما لم يختبر الصحوة الروحية.

فما من أحد منهم إلا وقد مر في حياته أو بداية حياته في لحظات يقظة تحّول أثنائها إلى نبي أو رسول أو ليّ، ورأى من آيات ربه الكبرى. فاليقظة تعد الخطوة الأولى لاصطفاء الأنبياء والأولياء والأوصياء والصالحين.. وهذه الصحوة لا تكون على مستوى واحد وإنما تتفاوت وتختلف على بمقدار

وسعة المتلقي، لذلك يقول الحق في كتابه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾.

التغيير أو (الجعل) الجوهري في حياة إنسان ما ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ينبغي أن يتم بالاصطفاء، ولا يحدث الاصطفاء ما لم يختبر اليقظة الروحية.

لذلك أعظم صحوة حدثت في تاريخ البشرية هي تلك التي حدثت لسيدنا محمد (ﷺ).. لأنه وعاؤه القلبي والروحي كان قابلا لهذا الفيض الإلهي الكبير الذي جاء به جبرائيل الأمين من عند الله تعالي.. تليها التي حدثت لأولي العزم ثم الأنبياء بالتدريج ومن ثم الأوصياء والأولياء.. وهكذا. بالطبع هناك فرق كبير بين ما حدث لهم عليهم صلوات الله جميعاً، وما يحدث لنا، من حيث النوعية والعمق، ولكنها واحدة من حيث الآلية والممارسة.

ما حدث في غار حراء تجربة مثالية للصحوة الروحية الحقيقة، بكل مفرداتها من العزيمة والإرادة والخلوة والصمت والمناجاة ومن ثم تفتق القوى الروحية بعد تجسد جبرائيل عليه السلام. والحالة الشعورية والجسدية التي مر بها النبي (ﷺ) والتي تعكسها سورة المزمل والمدثر. وفي النهاية تجلي الأهداف الإلهية بالخطاب القرآني ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ، قُمْ فَأَنذِرْ، وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ، وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وكل مفردات هذه التجربة هي ما يُعمل بها وتسلكه جميع المدارس الروحية..

أرجو أن نفهم جيداً ما نعنيه بالاختلاف النوعي والكمي بيننا وبين النبي (ﷺ) فإذا كانت يقظته وصحوته قد وصلت إلى 100% وصحوة غيره من الأنبياء قد تصل إلى 70% وهكذا.. فإن صحوتنا قد تصل إلى 1% فنحن لا ننتظر الأمين جبرائيل كي يحفز قوانا الروحية، لأن جبريل (ع): يناسب النبي (ﷺ) ولا يناسبنا لضعف قوانا الروحية عن تحمل إشراقة الفيض.

وقد نتعرض لصعقة كالتي حدثت لنبي الله موسى (ع): ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرَّ موسَى صَعِقاً﴾.

كما أن الله عز وجل يهيئ الطريق المناسبة لكل واحد على حسب استعداده وقابليته ﴿وَما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.

ولكن.. ما الذي حدث تحديداً في غار حراء تلك الليلة؟ دعونا نسري ليلاً إلى غار حراء لنشهد هذه الواقعة..

كانت الرحمة المهداة (ﷺ) قد تأهل جسده الشريف لليلة المبعث النبوي، عبر ليال عدة قضاها في الغار الذي يطل على الكعبة المشرفة من بعيد.. كان حجاب جسده المادي يغلف حقيقته الروحية المحمدية العظيمة، فلم يكن يتجلى منها إلا ما ندر ليكون الصادق الأمين بين قومه ومجتمعه، لذا كان اكتناز هذه الحقيقة خلف حجابه المادي حماية له حتى يستتم الموعد المحدد والوقت المعلوم..

شهدت تلك الليلة تحولاً جذرياً في حياة النبي (ﷺ) لأن جزءاً من تلك الحقيقة بدأ يتجلى للعالم ويخرج للعلن، وبدأ هذا السيناريو حين أظهر الأمين جبرائيل ذاته بهيئته النورانية التي كانت على أشدها أمام النبي (ﷺ).. اقترب منه واحتواه بأنواره الملائكية، حتى كاد أن يسقط مغمىً عليه فانفك منه جبرائيل وابتعد وقال له: اقرأ.. قال: ما أقرأ..

حين قال: ما أقرأ أو ما أنا بقارئ، علم جبرائيل أن الأمر لم ينته بعد، فغمره بأنواره الملائكية الروحية مرة أخرى، ثم ابتعد

عنه قليلاً، وقال له: اقرأ.. وأعاد النبي (ﷺ) نفس الإجابة، فكرر جبرائيل احتوائه للنبي (ﷺ) للمرة الثالثة، ثم قال له: اقرأ..

في الاحتواء الثالث بدأت بعضٌ من روابط الجسد المادي في التماهي مع القوة النورانية الباطنية للنبي (ﷺ).. انفك ذاك القيد الذي كان يحتضن الحقيقة الروحية والذي بدأ يأخذ زمام المبادرة والإدارة لكامل المستويات النفسية والجسدية..

لم يكن جبرائيل عليه السلام ينقل علماً أو معرفة للنبي (ﷺ) ولكن احتوائه له كان أشبه بإعطاء إشارة البدء في تفعيل القوى الروحية الباطنية لتتجلى في الخارج بصورة عملية. والتي أدركها النبي في الاحتواء الثالث، حيث بدأت الكلمات المقدسة تخرج على شفتيه.. وبالتالي لم تكن كلمة اقرأ.. كما نفهمها عملية قراءة.. وإنما هي اندماج روحي بين الحقيقة الباطنية وبين الحقائق الكونية المكنونة في الكتاب المبين.. هي إقرار الباطن والظاهر.

اقرأ تعني: ذلك التفاعل بين ما أودعه الله فينا من قوى وملكات روحية وذاتنا عالية الشأن وبين الكتاب الشامل الروحي الذي يحوي كل المعلومات الأصلية والحقيقية لكل الموجودات.. الكتاب الذي لا نراه ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.. فالطبيعة هي الكتاب المنظور، والمصحف هو الكتاب المخطوط، والمعلومات المكنونة في الأثير الروحي هي الكتاب غير المنظور.. وبالتالي فإن مدارك الوعي فتحت أبوابها حين بدأ هذا الاندماج بين الذات الحقيقية وبين الكتاب الشامل للكون وقوانينه..

لماذا نقول إنه رحمة للعالمين؟

لأنه فتح مساراً روحياً للعالم لم يكن موجوداً من قبل.. مساراً وليست مجرد طريقة أو وسيلة.. ينبغي أن ندرك هذه الفكرة

جيداً، فلقد أضاف النبي بعداً روحياً جديداً للعالم، وبالتالي فإن ليلة المبعث الشريف ليست خاصة بالنبي (ﷺ) وحدة.. بل كانت لكل العالم..! ما جرى في غار حراء لم يكن حدثاً تاريخياً نحتفل به سنوياً.. بل كان تحولاً في وعي البشرية جميعاً ومن هناك كان النبي (ﷺ) رحمة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.. فإبراهيم عليه السلام كان أمة لقومه.. أما النبي (ﷺ) فكان للعالمين إلى قيام الساعة..

وتمثلت هذه الرحمة في تعجيل وتسارع عملية فهم وإدراك آلية العروج الروحي لله عز وجل، فلحظة انبثاق وتجلي جانباً من الحقيقة المحمدية أحدث مساراً روحياً لم يكن جلياً لكثير من الناس ﴿كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ..﴾ وأضحى هذا المسار فيضاً للعارفين والسالكين على مر الدهور والأزمان، فلا فرق بين موته وحياته، فينابيع فيض رحمته ومدده باق للعالمين ما بقي الليل والنهار وما بقيت السموات والأرض.. فالنبي معنا وفينا ولهذا أشار الحق: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ..﴾ فالنبي (ﷺ) مدد لمن شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً.. هو الرحمة والأداة والوسيلة التي من خلالها تتفتح صفحات الكتاب المبين الكوني الشامل، لتتلاقى ذاتك الحقيقية مع الفيض الرباني بما يحمل من حقائق الوجود.

أراد الله لهذه الأمة أن تحيا بمحمد ﴿اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ..﴾ والحياة هنا كما بيَّنا سابقاً بمعنى الصحوة الروحية والبصيرة النافذة المتطلعة إلى مستقبل صاعد للروح، والتي غرس شجرها النبي (ﷺ) في غار حراء.. هذه الحياة التي تختلف جملة وتفصيلاً عما نراه اليوم. فلا يمكن للحياة أن تكون راكدة وعلى وتيرة واحدة.. لا يمكن لمفهوم اليقظة أن يتلاقى مع الأفكار الجامدة والعقائد البائدة.. لا يمكن للصحوة الروحية أن تقتصر على العادات ورسوم

الأعمال والانشغالات والحركات التي نقوم بها كل يوم دون أن يكون هناك شيئاً آخر يدعم تطورنا الروحي.

نؤمن بأن شخصية النبي (ﷺ) عبارة عن تجلي للحقيقة المحمدية العليا أو للذات المحمدية الواحدية، التي يقول عنها في رده لجابر الأنصاري: "أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر"، أو حين يقول: "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين". ولكن لإظهار القوى المكنونة في أعماق هذه الشخصية لابد أن يحدث شيء ما يظهرها أو يحفزها للظهور للخارج، فكانت تجربة غار حراء. وقبلها كانت تجربة نبي الله عيسى في الصحراء وتجربة موسى في الطور وغيرها من تجارب الأنبياء والأولياء الآخرين.

حدثت هذه التجربة لتكون أنموذجاً ومثالا يحتذي به المسلمون خاصة والبشرية بشكل عام..

لذلك يقول الله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾، في حين أنه يذكر في سورة الانعام حين يسرد قصص ما يقارب من 18 نبياً يقول: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ نقتدي بأفعالهم الصالحة بممارساتهم بأعمالهم بطريقة تعاملهم مع المجتمع.. ولكن حين يخص خطابه النبي (ﷺ) منفرداً يقول ﴿.. لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾. لأن الأسوة تشمل الجاني العملي والروحي.

فالله يوجهنا أن نحذو حذو الروح العظيمة للنبي (ﷺ) ونلتمس طريقها ليس في سلوكها وأعمالها وعبادتها ونتخذها قدوة، وإنما كذلك أسوة. فالأسوة تشمل القدوة مضافاً إليها السلوك الروحي، ومن أهمها طريقة وكيفية النقلة النوعية في حياتنا. هذه النقلة التي سوف تحيينا من جديد، وتحقق لنا الولادة الجديدة كما ذكرنا سابقاً.

والإسوة إجابة على من يسأل: إذا كان النبي (ﷺ) مصطفى منذ بداية الخلق، اعتماداً على حديث "أول ما خلق الله نور نبيك" فهل من الضروري أن يحدث سيناريو غار حراء؟

إضافة لما ذكرناه أن النبي خلق وأضاف مساراً روحياً للحياة "فتح بوابة روحية" فإن الله أراد أن يكون أسوة.. يريدنا أن ننهج المسار الذي سار عليه النبي (ﷺ). أراد الله عبر النبي (ﷺ) أن يخلق ويشيد مساراً توعوياً وثيقاً.. أن يخط منهجاً روحياً يبقى لأبد الدهر.. أنموذجاً روحياً نحتذي به في حياتنا، وأن يعرفنا من خلال هذا الانموذج كيف نصل إلى الولادة الجديدة أو الصحوة الروحية. والأمر لا يتعلق بالمسلمين فقط، بل جعل الله منه أنموذجاً لكل البشرية والعالم ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

فهناك حقائق روحية وأهداف سامية مكنونة في أرواحنا تحتاج إلى ممارسة روحية ومحفز خارجي لكي تتجلي وتظهر في الخارج. فبعد سيناريو الغار بدأت تتكشف حقيقة الأهداف الرسالية تباعاً.

لذا حين يتساءل البعض: أين موقع اليقظة الروحية من الدين؟ نقول إن الصحوة هي بداية كل رسالة سماوية للأنبياء، بداية كل نقلة روحية في حياتنا، نفهم من خلالها مفردات الدين ونتبصر أهدافه فيطلعنا الله على بعض لمسات خطته التي من أجلها خلقنا وشيد بنيان هذا الكون العظيم.

لم يعد الوعي البشري يتطور تدريجياً، بل أصبح يقفز قفزات كبيرة ومتوالية في هذا التطور. بدأ يتفحص المفاهيم ويتحقق من البديهيات ويقلب القناعات، وبدأ الكثير يتساءل عن ماهية العديد من القناعات والمسلمات التي كانت فيما مضى يحرم بحثها أو النقاش فيها. سواء عن الله، عن الخلق والوجود،

عن آدم عن الجنة عن النار، عن الروح، عن الذات، وغيرها من أمور كثيرة. ومع الأسف الشديد لا يجدون إلا الإجابات التي أكل عليها الدهر وشرب. إجابات مغايرة للعقل والوعي الإنساني وتصطدم بالمفاهيم الروحية والفطرة السليمة. الوعي اليوم يرفض عملية التلقين أو الإجابات الترقيعية الجاهزة التي كانت تقبل تسليماً في السابق.

هذا التطور في الوعي إن لم يرافقه صحوة روحية قوية عميقة تجيب على العديد من هذه التساؤلات أو توضح العديد من المفاهيم أو تعمق العلاقة الروحية بين الإنسان وخالقه فإننا لا نأمن على جيل الشباب الابتعاد عن جادة الصواب.

النعيم وتجلي صفات الروح

ذكرناه سابقا أن أرواحنا التي تُستضاف وتفد إلى الأرض تحوي العديد والكثير من صفات العالم الروحي. العالم الذي جاءت منه كالنور والجمال والكمال والحكمة والمعرفة والحب والألفة والبهجة وغيرها من صور أخرى.. وكل هذه السجايا تعكس صورة مصغرة عن ذلك العالم.

وملكات الروح أشبه بكتاب إرشاد أو دليل هداية يجعلنا نتخذ العديد من القرارات الصحيحة والصائبة والسليمة في حياتنا. لذلك تنعت العديد من الأحاديث الشريفة هذه الملكات الروحية بما فيها العقل الروحي بالحجة الباطنية، في حين يكون الأنبياء وما يأتون به من كتب مقدسة بالحجة الظاهرية أو الخارجية كما جاء في الحديث: "إن لله على عباده حجتين، حجة ظاهرة وحجة باطنة أما الحجة الظاهرة فهي الرسل وأما الحجة الباطنة فهي العقول".

هذه الملكات (والحجج) بما فيها التعقل الروحي هو ما سوف نُسأل عنه بعد الموت، كما قال الحق: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ

النَّعِيمِ﴾. الله عزوجل يذكر في الآية كلمة "النعيم" وليس "النعم". ولو استقرأنا جميع الآيات التي تناولت كلمة النعيم نجد موقعها مغاير لكلمة النعم، لأن النعم هي الأمور أو العطايا أو البركات التي يغدقها الله على الإنسان في الحياة الدنيا كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ أو ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ﴾ وكذلك ﴿أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

لذلك عادة ما تأخذ كلمة النعم الجانب الحسي الملموس المادي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ ما هي هذه النعمة؟ يقول بعد ذلك.. ﴿إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً﴾ أو كما يقول: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ﴾ وغيرها من آيات كثيرة..

بينما جاءت كل مفردات النعيم لتعبر عن شيء آخر غير مادي، شيء متعلق بالعالم الآخر ﴿وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وكذلك ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ وكذلك ﴿وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ وأيضا ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾.

فالله عز وجل سيسألنا عن شيء ليس من العالم الأرضي وهي الروح بملكاتها التي أودعها الله عز وجل فينا. يسألنا عن الأمانة الكبيرة والكنز العظيم الذي أودعه فينا.

أقل ما يمكن أن يقال هنا: أن الله يحب أن يرى نتاج نعمته التي أنعمها علينا تتجلى في حياتنا الدنيا، فالله كما جاء في الحديث: "إذا أنعم على عبد بنعمة يحب أن يرى أثار هذه النعمة عليه"..

إذا أنعم الله عز وجل على شخص ما بالأموال فهو يحب أن يرى آثار هذه النعمة بادية عليه، كأن يُحسن من مظهره ويشتري ما يليق به دون إسراف وتبذير. وإذا أنعم على شخص

ما بالعلم فهو يحب أن يرى زكاة ما تعلمه، وزكاة العلم نشره وتعليمه للآخرين، "فزكاة العلم نشره" كما جاء في الحديث. وإذا أنعم عليه بوظيفة أو مهنة معينة فهو يحب أن يرى آثار هذه النعمة، وكيف يساعدك الآخرين ويقضي حاجاتهم ويسهل مصالحهم ومعاملاتهم.

الله يحب أن يرى آثار نعمته على الإنسان. فإذا كان يحب أن يرى آثار النعم المادية البسيطة، فكيف بأعظم نعمة وهبها إيانا، وهي نعمة الروح وسجاياها وخصالها. يريد أن يرى تجلي وانعكاس هذا الكنز العظيم بما يحويه من ملكات وصفات سامية في حياتنا. في حياة الكائن الذي اختاره ليكون خليفته في الأرض.

في أحقاب متأخرة من الزمن أو من التاريخ البشري القديم عاشت كيانات ومخلوقات على الأرض لم تكن على تواصل مع العالم الروحي، لأن بوابة الروح (النفحة) لم تكن قد فتحت بعد. هذه الكيانات كانت تحوي ذواتاً وأنفسنا دون تواصل مع عالم الروح، لذلك كانت تعيش حالة الضياع وعدم وضوح الرؤية وانعدام للقيم والمبادئ. لم تكن تعلم شيئاً عن نواميس الخلق، مجردة من الضمير والمحكمة الباطنية. لأن الضمير هو الميزان الإلهي الذي نقيس به حركتنا في الحياة، وهو الذي يفرق بين الخطأ والصواب، الحق والباطل، وبالتالي فهو من الملكات الروحية المهمة.

سلوكها كان بعيداً عن الموازين الأخلاقية، فكان ديدنها سفك الدماء والفساد والخراب والتعدي على الغير أو التخلص منه للاستحواذ على ممتلكاته.

ولهذا حين خاطبت الملائكة الله عز وجل وقالت: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء﴾ كانت تشير إلى هذه الكيانات المخلوقة، لأنها كانت ترى ما تفعل وما تعيثه في الأرض

من فساد وسفك للدماء، فكانت تعتقد أن الخلق الجديد، أو المشروع الإلهي الجديد وهو الإنسان صورة مشابهة لهذا المخلوق وبالتالي اعتقدت أنه سيحمل نفس الصفات التي كان يحملها.

ولكن حين شاءت إرادة الله أن يفتح البوابة الروحانية وأن يصبح هناك مخلوق بشري من حيث الظاهر وإنساني من حيث الباطن يحوي ذاتاً عظيمة تتواصل مع العالم الأعلى تستقي منه القوى والملكات والسجايا، أراد أن يرى أثر هذه النعمة العظيمة على حياته، فتجلي هذه النعمة هو ما يحولنا إلى مخلوقات إنسانية ومن ثم إلى خليفة في الأرض.

وهو الهدف الأسمى للخطة الإلهية في هذا الوجود. أن تتجلي كل صفات عالم الروح في الإنسان ليكون هذا الإنسان صورة مشابهة لذلك العالم. يحاكيها حتى في الإرادة والمشيئة ويصل مرحلة الخلافة بحيث يقول للشيء كن فيكون، ومن هنا نفهم معني الحديث الشريف حين يقول: "كنت سمعه الذي يسمع به وعينه التي يرى بها وأذنه التي يسمع بها ورجله التي يمشي بها".

قد يتساءل البعض إن وصف الكيانات غير المتعلقة بالعالم الروحي التي عاشت قبلنا تشابه كثير من صفات البعض ممن يعيشون في عالمنا اليوم، من فساد وقتل وسفك للدماء والعنف والسيطرة على الآخرين، على الرغم من وجود الاتصال مع العالم الروحي، إلا أنهم يتصفون بهذه الصفات الوحشية.

صحيح أن بوابة الروح قد فتحت منذ آدم الأول، إلا أن هذا التواصل غير مُفعل في حياة كثير من الناس. فمعالم وسجايا الروح لا أثر لها في حياتهم، لذلك يصفهم الله في القرآن

الكريم بالأنعام ﴿أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَام بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ وفي آية أخرى يقول ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَام بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾، ولو رجعنا إلى ما ذكرناه سابقاً بشأن الغفلة التي تعتري الإنسان غير المتيقظ الذي يعيش حياته بلا هدف روحي، لعرفنا لماذا يصفهم الله بأنهم أكثر ضلالاً من الأنعام، ﴿أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾، فالأنعام ليس لها أهداف روحية، فهي كائنات مسيرة منقادة خلقت لأجل غاية تخدم الجنس البشري، تكون طوعاً له في قضاء حاجاته الدنيوية. فوجه الشبه هنا يتعلق بالهدفية والغاية، فكثير من الناس يعيشون بلا هدف، يكونون أداة لغيرهم يستخدمونهم كيفما شاءوا وهو خلاف مبدأ الحرية والإرادة التي وهبها الله للإنسان. سجايا وخصال الروح موجودة بأعماقنا ولكنها لا تُفعل إلا بإرادة الإنسان وباختياره.

الاقتراب والتماس والتواصل مع الملكات الروحية أمر نسبي يتفاوت بين البشر. فومضات الروح وصفاتها لا تشرق بصورة مشابهة عند الجميع، سواء في النوعية أو الشدة، الإلهامات تتفاوت بين البشر، الشعور بحالة الغبطة يختلف من إنسان إلى آخر.. فما يشعر به شخص قد لا يشعر به غيره، لذلك يقول الحق: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ فلكل إنسان وعاءه الخاص الذي يقبل نوعية وشدة ما يتلقاه من هذه الملكات الروحية. ولكن أولئك الذين يصفهم الله بالأنعام، أغلقوا أبواب كل هذه الملكات ومكنوا قوى النفس لوحدها أن تتحكم في حياتهم. لذلك حسب ما جاء في الخطاب القرآني ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاء﴾.

نعتقد اعتقاداً جازماً أننا كأرواح خُلقنا في هذه الفترة الزمنية كي نحصل على تجارب خاصة لم تكن متاحة لغيرنا فيما مضى. سنجني من خلالها تغيرات كبيرة وملحوظة على مستوى أنفسنا ومحيطنا الاجتماعي والعالمي. فمن يقرأ هذه الكلمات الآن، أو

من يصل إلى هذه المفاهيم يكون قد خطا الخطوة الأولى في طريق هذه اليقظة، خطوة توصله إلى معرفة داخلية عميقة بأنه أكثر من جسده المادي، وأكثر من عقله، وأكثر من عواطفه ومشاعره، سيعرف أنه كائن أبدي خُلق من عالم مثالي روحي نوراني، وفد إلى هذه الأرض كي يحقق أهدافا جليلة وسامية - سواء على مستوى نفسه أو محيطه - كائن مفعم بالإرادة الحرة التي من شأنها أن تغير العديد من المعتقدات والأفكار.

فهل ستكون حياتنا نسخة مستنسخة من غيرنا أو من مجتمعنا وتقاليدنا وأفكارنا، نسير وفق لما يرتضيه الواقع ومع ما وجدنا عليه آباؤنا أم نتوقف ونتأمل لنعرف حقيقة وجودنا، وما يريده الله منا في هذه الاستضافة الأرضية..

بعد أن بيّنا أهمية اليقظة الروحية في حياتنا كفكرة مبدئية وأساسية سوف نتطرق للعديد من المواضيع التي تصب في محيطها وترسم معالمها، مواضيع تعكس الواقع وترشدنا لكيفية الخلاص منه وتغييره بقناعات نظرية وأخرى عملية.

الوعي الجسدي والتألق الروحي

تبدأ اليقظة حين يعي الإنسان نشأته الأولى قبل كل شيء، فإدراك الجانب النظري يدعم فيما بعد كل الممارسات العملية والدرامية التي نعيشها في الحياة، كما جاء في الحديث: "لو علم الناس كيف خلق آدم لما اختلف رجلان". لذا سنتناول هنا شطراً يختص بالتكوين الخَلقي للإنسان.

كان الإنس في بداية أمره كيان مثالي لا مادية عاش في أطوار متعاقبة ومتعددة من الخلق، وحين أرادت المشيئة الإلهية أن يسكن الأرض اقتضى ذلك وجود هياكل جسدية مؤقتة تستضيف هذه الكيانات أو الذوات والتي يطلق عليها "أرواح".

فالحياة الأرضية بما فيها من عناصر مادية مركبة يتطلب العيش فيها أجساداً تتلاءم وتتناغم مع طبيعتها.. لذلك فالأرواح المهيأة للنزول إلى الأرض، أو تلك التي وقع عليها الاختيار تبدأ رحلتها إلى الأرض بما يعرف في عالم الأرواح باسم "الحج الأكبر" كما ذكرنا فتنتقل من عالمها الروحي البعيد - ليس بعد مسافة وإنما بعد اللطافة والمستوى - إلى مكان قريب من العالم المادي الأرضي انتظاراً للموعد المقرر لتجسدها وميلادها. وبالتالي يتحول الإنس بعد أن يمتزج بآلية الزمن "آن" إلى إنسان.. فيتحول إلى صيغة وشكل آخر بمقدوره أن يتعامل مع حياته الجديدة.

طبيعة الحياة الأرضية تتطلب لباس أو مركبة مادية يمارس فيها الإنسان دوره ويؤدي رسالته المكلف بها من العالم الآخر

والتي تمت صياغتها واختيارها بالتعاون مع الأرواح العالية الذين يأتمرون بأمر الله عز وجل. وبالتالي فإن أجسادنا لا تعبر عن حقيقتنا الأصلية، وأن نفوسنا التي تشكلت نتيجة سكن أرواحنا في الأجساد لا تعبر هي كذلك عن حقيقتنا الأصلية.. أفكارنا وتصوراتنا ومفاهيمنا التي تراكمت عبر سنين طويلة نتيجة التربية والتعليم لا تعبر عن حقيقتنا الأصلية.. معتقداتنا التي نحملها عن الحياة لا تعبر عن حقيقتنا.. ومشاعرنا التي تبرمجت نتيجة الحوادث التي مررنا بها لا تعبر عن حقيقتنا.. فنحن لسنا الأجساد المادية، ولا الأفكار والمعتقدات التي نحملها، ولا المشاعر التي نختزنها، ولا النفوس التي تتحكم بمصائرنا..

حقيقتنا تكمن في الذات.. في ذواتنا الحقيقية الإنسية التي جاءت من عالم آخر. فالأجساد وجدت لضرورة الحياة المادية فقط، أشبه بمعطف نرتديه ثم نخلعه حين نصل إلى وجهتنا. أشبه بمنزل نسكنه ثم نرتحل عنه بعد فترة من الزمن، وبالتالي فإن ارتحالنا عنه لا يعني فنائنا أو نهايتنا ولكن يعني انتقالنا إلى مرحلة أخرى، فالحياة الأرضية تتعامل مع الموجودات المركبة المادية، مما تحتم وجود جسد بمقدوره أن يرى ويسمع ويحس ويتذوق ويشعر بهذه الموجودات وإلا فإن حياته ستكون صعبة أو مستحيلة. ومن هنا زود الله الإنسان بكل الوسائل والأدوات التي تمكنه من العيش في الوسط المادي الأرضي.

ولكن هل يعني ذلك أن الإنسان أثناء حياته الأرضية لا يدرك سوى الأمور المادية المركبة؟ وكيف يأمرنا الله أن نؤمن بالعديد من الأمور الروحية والمعنوية، كالإيمان بالغيب والملائكة وتجسيد الأعمال إذا كانت أجسادنا لا تدرك إلا الماديات المركبة، في حين تخرج هذه الأمور - الروحية والمعنوية - عن نطاق الحواس الخمسة؟ هل هناك شيء ما بمقدوره الشعور بالعالم

الروحي، هل تم تزويد الإنسان بآلية بمقدورها محاكاة الحقائق الغيبية والروحية؟

القاعدة الأساسية التي يتعامل الله بها مع البشر أنه ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾، وبالتالي يصبح وجود أداة التواصل مع العالم الروحي أمراً يقينياً وبديهياً لا مراء ولا شك فيه، فحين يأمرنا بالإيمان بالغيب وبالملائكة والجنة وعالم البرزخ والعرش والكرسي وغيرها من المفردات ينبغي أن يزودنا بآلية نتحقق بها من هذه الأمور، وإلا كيف يطالبنا بشيء نعجز عن التحقق منه أو إدراكه.. فالإنسان إذن يحمل شفرة التواصل، ولكن أين تكمن؟.

صحيح أن حواسنا تدرك الأبعاد المادية، ولكن في الوقت نفسه تدرك ذواتنا الأبعاد غير المادية من حولنا، تؤثر وتتأثر بها. فبمقدور الروح أن تحلق عالياً في الملكوت الأعلى وهي داخل جسد ثابت مستقر في مكانه. لذا من الخطأ القول: "إن الروح محبوسة في قفص الجسد"، أو أسيرة للحواس المادية فقط، فالجسد لا يحد الروح ولا يقلل من قوتها وإدراكها للأمور والحقائق.

ولكن لأننا اندمجنا وتماهينا في حياتنا مع أجسادنا وحواسنا حتى اعتقد كثير منا أن حقيقتنا هي تلك الأجساد، فقدنا الشعور والتواصل مع ذواتنا وأرواحنا، وبالتالي غيبت عنا الكثير من المعارف وحالات الألق الروحي الذي بمقدور ذواتنا أن تحققه وتصل إليه في الحياة.

حين يدعونا الله لمعرفته، والإيمان بملائكته، واليقين بعالم غيبه، لا يدعونا للتحقق والمعرفة بحواسنا المادية ولكن بأرواحنا وقلوبنا ونقاء سريرتنا. فحين تسيطر الحواس على حياتنا سنخرج منها مجردين عن كل معرفة روحية، سوف لن ندرك من حياتنا إلا ما كان مادياً حسياً. وهذا حال الفكر الإلحادي

الذي ينفي وجود الروح وبالتالي وجود الله وعالم الغيب لأن هذه الامور لا تدرك بالوسائل الحسية المادية.

الحواس تدلنا وترشدنا لأننا نستقبل المدركات عن طريقها، فهي أدوات للمعرفة الفكرية والعقلية، ولكن تثبيت هذه المعرفة والوصول لليقين لا يكون إلا عن طريق الملكات الروحية. فآيات الخلق تدل على وحدانيته إلا أن التثبت من جوهر الوحدانية وتلمس آثارها يتم بالباطن، وهو المعنى الحقيقي للإيمان.

لذلك أبدع أبو العتاهية حين قال:

فَيا عَجَباً كَيفَ يُعصى الإِلَهُ ... أَم كَيفَ يَجحَدُهُ الجاحِدُ

وَفي كُـــلِّ شَيءٍ لَهُ آيَـــةٌ ... تَـــدُلُّ عَلى أَنَّهُ واحِـــدُ

وَلِلَّهِ في كُـــلِّ تَحريكَـــةٍ ... وَتَسكينَةٍ في الورى شاهِدُ

لذا حين خلق الله لنا أجساداً مادية، خلقها لتكون خاضعة لنا لا أن نكون خاضعين لها. ولا نعني بالخضوع كبتها أو تعذيبها أو قمع غرائزها، ولكن أن نعي أنها مجرد لباس أو سكن مؤقت وجد لضرورة وسوف يتلاشى حين تنتفي حاجته. وأن في داخل هذا اللباس تقبع روح عظيمة جاءت من عالم الملكوت تريد أن تحقق شيئاً ما في هذه الرحلة الأرضية.

لذلك لا يمكن أن نستشعر بتألق حركة الروح ويقظتها وقوتها والتماس معها ما لم تكن لنا قدرة الانفصال عن الحواس. ألا ترى أنك حين تنام تشعر بروحك تحلق في عالم غير محدود وتزور أماكن لم تزرها في حياتك. ألا يتراءى لك المستقبل أحيانا، وتجد الحل لمشاكلك أحيانا أخرى. كثير من الأمور ندركها في المنام لأن أدوات الحس تكون معطلة غير نشطة آنذاك، فنبدأ في إدراك أن هناك معرفة أخرى تصل إلينا من عالم الروح.

لقد تطلبت ولادة الإنسان الأولى وجود الحواس، ولكن الولادة الروحية الثانية تتطلب تجاوز الحواس والبحث عن مفهوم الحياة الحقيقية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لِلّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ..﴾ فالحياة الحقيقية تعني أن تكون لك قدم هنا وقدم هناك. تدير شئون حياتك المادية بجسدك ونفسك ووعيك الظاهري، ويكون قلبك متعلقاً بأبعاد روحية غيبية. تدرك أن جسدك للفناء وروحك للبقاء. تعلم أن ما تراه وتلمسه في الحياة ليس هو كل شيء فما خفي كان أعظم مما ظهر ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ، وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ، إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.

حين يختلي الإنسان بنفسه برهة من الزمن.. ويتمثل ولو بالوهم والخيال مفارقة الحواس الخمس، ثم لينظر بعد ذلك هل يدرك شيئاً غير ما كان يدركه بالحواس..؟ هل يشعر بشيء آخر لم يكن يدركه حين كان يقظاً؟

فإذا وجد أنه يدرك شيئاً غير ما كان يدركه بالحواس فقد تحقق له رجوعه إلى ذاته وروحه وبلوغه غايته ومرامه، فالوعي الروحي يتحرك ويعمل حين تسكن الحواس ويبدأ في إدراك المؤثرات البسيطة (الروحية) غير المركبة (المادية). ويعمل على التعمق فيها وفصلها عن متعلقاتها وصورها المادية حتى يدركها إدراكا روحيا بذاته.

فكما أنك تدرك الأبعاد المادية حين تكون يقظا منتبهاً بأدوات حسك، كذلك تدرك الأبعاد الروحية حين تتوقف هذه الحواس عن العمل. وبعبارة أخرى نقول إن الوعي الجسدي المادي يعمل حين تكون أدوات الحس نشطة وفعالة، بينما يعمل الوعي الروحي حين تكون أدوات الحس خاملة أو شبه متوقفة.

ومن هنا تأتي أهمية التأمل في إدراك الحقائق والعلم بالأشياء. فالتأمل الحقيقي لا يقتصر على الراحة النفسية والتخلص من

الاكتئاب والقلق والتوتر، بل هو لأجل فتح آفاق غير محدودة من العلم الإلهامي غير المتناهي. فالإنسان هو الكائن والمخلوق الوحيد الذي أراد الله من خلقه أن يتذوق ويشعر بجمال الكون الخارق، وأن يتواصل مع كل العوالم التي بمقدورها أن تجعل منه خليفة الله في أرضه، ولا يمكن تحقيق هذا الأمر إلا بالوعي بشقيه الجسدي والروحي..

فالله خلق الإنسان ليكون قناة ووسيطا له في خلق النظام والجمال في الكون، لأنه الكائن الفريد الذي منحة الوعي الروحي الذي من خلاله يتأمل الكون ويصل إلى العرفان الحقيقي والقرب منه تقدس اسمه.

فهذه الطبيعة المزدوجة.. أو وجود الإنسان في مسكن الجسد تعطيه موهبة خارقة ليس بمقدوره الحصول عليها حتى حين يكون في عالم الأرواح المجرد. ومن هنا تتضح أهمية الحياة الأرضية، وأهمية وجود الجسد المادي.

أي أن قدرة الإنسان العقلية والفكرية والروحية والتخيلية تكون في أوجها حين تكون روحه في جسده المادي. ففي الوقت الذي يتغذى جسده ويرتبط بطاقات طبيعية وبقوى حيوية يستقبلها من الأثير الكوني، فإن روحه ترتبط وتتواصل مع عالم الروح، وعقله يتصل بالذاكرة الكونية أو بالعقل الكلي. وهذه القوى مجتمعه لا يمكن أن تتحقق إلا في حياة الإنسان الأرضية.

ومن هنا جعل الله رتبته ومنزلته فوق كل الكائنات، وأصبح المخلوق الوحيد الذي لديه قدرة الإبداع في الممكنات. فالتركيبة التي يعيش فيها تهيئه لسبر أغوار المدركات العقلية والروحية للوصول إلى مرحلة القرب أو المعرفة بالله، فما زوده بكل تلك القدرات إلا ليكون مؤهلا لهذه المعرفة. لذلك حين يفقد جسده المادي ويرتحل عن الحياة ويموت تقل لديه هذه الخاصية.

ما أعظمها من منزلة وضعنا الله فيها، وما أروعه من إله صورنا على شاكلة نستطيع من خلالها التحليق في آفاق الكون. ولكن كم واحد منا فكر في منزلته الراقية هذه؟ وكم واحد منا علم أن هناك كنزا في أعماقه قد يمخر به محيطات العلم والإلهام والمعرفة والوصول إلى ينابيع الفيض الإلهي.

ومن هنا يكمن الفرق بين الإنسان الروحاني اليقظ وغير الروحاني، بين من تسود روحه جسده، وبين من يسود جسده روحه، بين: "من غلبت الدنيا عليه عمى عما بين يديه".. بين من يجعل جل همه تجلي الأمنيات وتحقيق الرغبات الدنيوية، وبين من يتشوق لتطال روحه السماوات، بين من يكتفي بنوافذ حواسه المحدودة وبين من يطلق العنان لبريق روحه النافذة، بين من يرى الحياة سجناً كئيباً وبين من يراها كنزاً ثميناً، بين من يترنح كأشرعة فلك تتقاذفه أمواج البحار وتأخذه مشاغل الحياة وهمومها ومشاكلها يمنة ويسره، وبين ثابت القدم الذي لا يعبأ بظواهر الأقدار ومتغيرات الأحوال.

ولكن لماذا حدثت هذه المفارقة بشكل واضح في السنوات الأخيرة من عمر الزمن؟

قبل ما يقارب من ثلاثة آلاف عام - وأكثر من هذا في دول الشرق - وبعد أن استكان الإنسان إلى نفسه وأصبح بمقدوره تحقيق وتوفير حاجياته الأساسية من مأكل ومشرب ومسكن وتكوين أسرة وبناء مجتمعات.. بدأ يفكر في أصل الخلق والخالق وعلة وجود الحياة والبحث عن هوية الإنسان وأصله التكويني، ومن هنا نشأت الفلسفات، ونشأ الفكر الفلسفي الذي تحول فيما بعد إلى مدارس ومشارب متعددة كلاً يدلو بدلوه تجاه هذه الأفكار والمسلمات.. فبرز اتجاه يرى أن الحياة عبثية وأن الإنسان منقطع لا امتداد له بعد الموت، وأنه لا يوجد شيء حقيقي في العالم إلا ما هو مادي ملموس ومحسوس أو يخضع

للحواس البشرية فلا وجود للملائكة والكيانات الأخرى أو الأرواح أو عالم الأمر أو عالم الأفكار. وأن الخوف هو الشر الوحيد في هذه الحياة سواء الخوف من الآلهة أو من الموت أو من الطبيعة.. فحين يموت الإنسان ينعدم إحساسه وتنطفئ مشاعره، ويرجع جسده إلى عناصره الأولى في التراب أو إلى ذرات تنتشر في الطبيعة، فالحياة فترة زمنية عبثية (ليس لها هدف) تنتهي بموت الجسد وتلاشيه. وعلى الإنسان أن يستثمر حياته في العمل والأنس والملذات سواء الفكرية منها أو الجسدية فلا شيء آخر.

هذا الاتجاه يؤيده ذوي النزعة المادية الإلحادية أو من يطلقون على أنفسهم الإنسانيون أو اللاأدريون..

وفي المقابل برز اتجاه آخر يرى أن عمر الإنسان لا ينتهي بانتهاء حياته بل يستمر في عالم مثالي، وأن هذا العالم هو سر بقاء العالم المادي، هو أشبه بالروح بالنسبة للإنسان، وحتى يكون الإنسان سعيداً ينبغي ألا يصلح حياته المادية فقط وإنما عليه أن يصلح أبعاده الروحية التي تتجلى في العالم المثالي كذلك. فهذا العالم هو عالم البهجة والنور والغبطة التي يشعر بها، والذي تتسرب من خلاله العديد من الإلهامات والأفكار النيرة التي تدعم مسيرته في الحياة. فالحياة ليست عقلاً ولا مادة ولا إحساساً فقط وإنما هي فوق ذلك فيوضات وإمدادات مستمرة من عالم الروح تفتح مدارك الوعي ليكون للحياة قيمة حقيقية وأهداف عليا يتطلع الإنسان لتحقيقها.

هذا الاتجاه يؤيده الروحانيون الذي لا يرون أن الحياة مجرد عبث أو أنها تنحصر في أهداف مادية محدودة.

جاءت الديانات السماوية كي تؤكد وتثبت الاتجاه الثاني (العالم الغيبي) وتمخضت كتبها المقدسة عن تأييد الجانب

الروحي وجعلته الأصل في الحياة، ففي حين اعتبر الاتجاه الأول أن عالم الغيب مجرد وهم وخيال لا أساس له، وأن الحقيقة كل الحقيقة في المادة، اعتبر الاتجاه الروحي أن الحياة المادية مجرد وهم وأن الحقيقة كل الحقيقة في عالم الروح، وأن المادة ما هي إلا تجلي لبعض شذرات عالم الروح..

ومن هنا انقسم الفلاسفة والمفكرين والناس إلى مؤيد أو منتقد لهذا الجانب أو ذاك.. وبالتالي فإن الروحانية ليست متعلقة بالدين كوجود لأن الروحانية كانت سابقة للديانات السماوية بآلاف السنين بأشكالها وطقوسها المختلفة، ولكن الأديان عمدت إلى وضع الأسس والركائز والمناهج الأساسية السليمة التي ينبغي السير عليها، وكشفت عن حقائق لم تكن واضحة فيما سبق.. حقائق كانت ممزوجة بأساطير وخيالات وخرافات ظهرت في أحقاب مختلفة من الزمن.

وحتى بعد نزول الديانات السماوية فهناك من آمنوا بشكلية الدين وطقوسه العبادية، ورفضوا المبادئ الروحية والغائية ولم يلتفتوا إليها واكتفوا بالطقوس الآلية الحركية المجردة، كالديانة اليهودية التي لم تكن تؤمن في سابق عهدها بعالم الأرواح وحياة البرزخ كما ذكرنا. وكما حدث في بعض الطوائف المسيحية التي أشعلت فتيل الحروب الصليبية، وكما حدث ويحدث في الإسلام حين تم تفريغ العديد من الطقوس والعبادات من محتواها الروحي وتحول مفهوم العبادة إلى عادة ومفهوم الإيمان إلى مجموعة معتقدات فكرية جامدة.

فالروحانية مبدأ إلهي تكويني فطري إنساني.. صحيح أن الديانات السماوية أقرته في كتبها المقدسة وركزت عليه، شأنه شأن العديد من الأسس والمبادئ الأخلاقية الاجتماعية، بل جعلته من أهم المبادئ في ترقي وتطور الإنسان الروحي. ولكن هذا لا يعني أن كل المؤمنين بهذه الديانات يؤمنون بالروحانية، فهناك

من يمتعض من ذكر الروح والروحانية من علماء دين ودعاة ومبلغين لأنهم انغمسوا في البعد المادي في الدين والتفقه في أبعاده الجسدية كالاهتمام بالطهارة والنجاسة والنفاس والإرث والمواقيت وغيرها من أمور تحفل بها كتب الفقه والاستنباط.

فالروحانية ليست حكراً على أحد دون آخر ولا على فئة دون أخرى، ولا على متدين دون غيره. فالله منح أداة الاتصال الروحي لكل البشرية على حد سواء منذ القدم، فحين وصل الجنس البشري إلى مرحلة من الوعي والنضج الفكري الذي اكتسبه من الحياة العملية التي عاشها. أمر الله الملك العظيم، ملك الروح أن يُفعل عملية التواصل بين العالمين، والتي يعبر عنها القرآن الكريم بالنفخة ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ فدخلت الإنسانية طوراً جديداً من الحياة. كانت فيما سبق أشبه بمن يملك هاتفاً نقالاً ولكن من دون أي إرسال أو استقبال، وحين تمت نفخة الروح تم تفعيل الإرسال. ونقصد بالإرسال هنا الإرسال الخاص وإلا فإن العالم الأرضي يستمد مدده كله من العالم الروحي، فالعالم مبني على الإيجاد والإمداد.

ولكن إذا كانت أداة التواصل منحها الله لجميع البشر، فلماذا إذن الاختلاف بين مؤيد ومعارض للأبعاد الروحية؟ ولماذا يشعر البعض بنشوة هذا التواصل ويغيب عن البعض الآخر؟ لماذا يعاني البعض على كثرة صلاته وقيامه من عدم تلمس آثارها الروحية؟

الروحانية لا تُبنى على الاعتقاد التلقيني، ولا على الأفكار العرفانية النظرية، ولا على مقولات فلسفية جامدة، بل تؤسس على التجربة الروحية، فمعرفة الله والعالم الآخر لا تتحقق

بحرفية الاعتقاد ولا بحفظ أصول الدين وفروعه، ولا بالطقوس العبادية والشعائرية، فنحن هنا نتعرف على أوامر الله وليس الله.. نعرف عن الله ولا نعرف الله. نعرف ماذا يريد منا الله ولكننا لا نعرفه عن قرب، ننفذ أوامره ونجتنب نواهيه ولكننا لا نعلم عنه شيئاً.. الله ليس هو ما يُكتب عنه في الكتب ولا ما نسمع عنه على المنابر، ولا ما يُتقول عنه في علم الكلام وتوصيفات الفلاسفة، الله منزه عن كل ما ينسب إليه حتى في كتبنا وحديثنا عنه هنا.. لأنه فوق كل وصف وصورة حتى ما وصف به نفسه في القرآن الكريم إنما أراد بالوصف استيعابه من قبل البشر.

لذلك لا سبيل إلى معرفته إلا من خلال التجربة الروحية.. أنت وحدك القادر على أن تتعرف عليه بالقدر الذي تُريد معرفته ويُريد بيانه لك وبقدر استعدادك لهذه المعرفة. فالذكر من المذكور ثم من الذاكر. إن شئت أن تتعرف شاء الله أن يُعرفك، إن مددت يدك فهناك من يطاولها، لا تجد من يجيبك إن لم تسأل، ولا من يعينك إن لم تطلب العون.

والتجربة الروحية تعتمد على ثلاث مقدمات ومبادئ مهمة:

الأول:

تفعيل الاعتقاد

بمعنى أن خلف جدار الشكل المادي يكمن عالم آخر متدفق بالحياة والحيوية والعوالم النوارنية المختلفة التي كلفها الله بمساعدة الإنسان وأوكل لها مهمة دعمه في مسيرته الأرضية، وهذا الاعتقاد جعله الله مقدما على الصلاة والزكاة ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ كما

ذكرنا، شريطة ألا يبقى هذا الإيمان وهذا الاعتقاد في مجاله الحرفي أو الفكري بل ينبغي أن نستشعره على الدوام، فأداء الصلاة شيء، وأن نستشعر روح الصلاة شيء آخر. ومن هنا نعلم أن حقيقة كلمة "الإيمان" لا تعني القيام بالطقوس العبادية بقدر ما تعني تذوق الأبعاد الغيبية والروحية.. تعني البحث عن مملكة التوحيد والاقتراب منها. فالاعتقاد بالغيب لا يعني مجرد معلومة نودعها عقولنا، بل أن نعيش حياتنا في محاكاة وتناغم وانسجام مع هذا العالم. فعالم الغيب يتطلب السكون والهدوء والصمت ومراقبة حركات البدن بروية، والشعور بالمحيط الذي يلامس أجسادنا والابتعاد عن الشوشرة والثرثرة والأفكار الدخيلة.. عالم الغيب يريدنا أن تكون لنا شخصية واحدة بلا أقنعة وبلا تزييف.. شخصية خالية من المتناقضات يشترك فيها القلب والفكر واللسان في وحدة متكاملة..

اعتقادنا بالغيب يتطلب شعورنا بالمعية الدائمة.. فنحن لسنا وحدنا، فكما أن تنفسنا يعني وجود كمية من الأكسجين حولنا، كذلك بقاؤنا أحياء يعني أننا لسنا وحدنا، فلو كنا وحدنا لفنينا من الوجود.

ثانياً:

تفعيل أداة الاتصال وهي اللب

مكمن القدرة الروحية والحكمة والتعقل والنضج الوجداني والتي جاء ذكرها في العديد من الآيات القرآنية منها: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ وتفعيل هذه الهبة أشبه بإشراقة شمس بعد ليل معتم، تبعث بخيوطها الوضاءة بكامل حياة المرء فتنقله من حال الوحشة إلى حال الأنس، ومن حال الاضطراب إلى حال السكون ومن حال الجمع إلى حال الوحدة ومن حال الضيق إلى

الفسحة والحبور.. لأن في أعماق اللباب تكمن أدوات المعرفة الحقيقية للتواصل الروحي التي تصل إلى أقصى غاياتها، فمن الصدر حيث المعرفة الحسية والنفسية، إلى القلب حيث المعرفة الوجدانية والتأملية، إلى الفؤاد حيث المعرفة الشهودية العيانية، إلى اللب حيث المعرفة الحكمية والإلهية. وكل مرتبة من هذه المراتب تمثل حجاباً وستراً لما بعدها، فحين تكون قوى النفس هي الآمرة والمتسلطة فإنها تشكل حجاباً على القلب.. وحين لا يكون القلب متفقها متأملاً واعياً فإنه يشكل حجاباً للفؤاد الذي تُغيب عنه الحقائق، وحين يحجب الفؤاد عن الرؤية فإن اللب لا يصل إلى المعرفة والحكمة الإلهية.

لذلك ينبغي إزالة الحواجز النفسية بالتخلص من الأنا عبر تحلل وإضعاف قواها وملكاتها، وتدعيم القلب بالتأمل والمحبة والتفقه حتى تُمكن الفؤاد من استشفاف الأبعاد الحقيقية للوجود فيعمل اللب على استخلاص الحكمة منها. قد تأخذ هذه العملية ساعات معدودة أو أيام عدة أو سنوات.. أو عمر الإنسان بأكمله. هذا من حيث الأساس أو النموذج المثالي لإشراقة الحكمة والمعرفة أو الشعور بالنشوة الروحية، ولكن بمقدور هذه الومضات والإشراقات أن تنتاب أي إنسان دون مراعاة لهذه التراتبية، ففي لحظة ما، ونتيجة لظرف معين يتعلق بعالم الغيب تشرق بواعث قلبية من الذات للخارج مروراً بكل المستويات فتعطل قوى النفس للحظة ولبرهة تنتاب الإنسان حالة من القشعريرة والألق الروحي دون سابق إنذار وبأي مكان يكون فيه.

فالأمر إذن لا يقتصر على الروحاني إنما قد يشعر بها أي إنسان، إلا أن الروحاني يكون من خلال خبرته الروحية قد عمل على تنمية الإحساس المرهف والعميق بهذه الحالة، فهو يعلم كيف يحدث الامر، ويعلم كيف يفسر مجرياته..

وبالتالي فإن الله سبحانه وتعالى أودع في أعماق كل البشر أداة التواصل الروحي التي تشعره بحالة النشوة والألق الروحي. وإذا كان البعض يجهل هذه القدرة في أعماقه أو لا يعترف بوجودها، فإن عدم اعترافنا بشيء لا ينفي وجوده أو يقلل من قيمته، فقلوبنا تستمر تنبض سواء اعتقدنا بهذا أو أنكرناه، آمنا به أو نفيناه.. آذاننا تسمع مستويات معينة من الذبذبات سواء علمنا كنه وحقيقة هذه الذبذبات وكيف تعمل أم لا.. فإنكار البعض لهذه الهبة الربانية لا يعني عدم وجودها لأنها بحاجة إلى تجربة روحية حقيقية لبيان أثرها الفعلي. لذلك تنتاب بعض الأشخاص العاديين حالات روحية مميزة يشعرون من خلالها بفرحة داخلية تغمرهم وبحب عظيم يحتويهم وهم لا يعلمون ماذا يحدث لهم، ولا يعرفون آلية هذا الشعور وكيف تغلغل في أعماقهم.

وفي العادة فإن مثل هذه الحالات قد تكون صادمة لهم وقد تعمل على تغيير حياتهم لتصبح أكثر روحانية.

إضافة إلى ذلك، هناك أمران مهمان في تفعيل هذه الأداة الربانية:

1- التفكر والتمعن

فلو راجعنا مجمل الآيات الذي ذكرت فيها أولوا الالباب نجدها تشير إلى عملية التفكر والتأمل كما جاء في سورة آل عمران ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ﴾ التفكر يعني أن تتجاوز حياتنا بؤر الروتين القاتل، يعني أن نعيش كل يوم بتوهج جديد، بتأملات عميقة، بتساؤلات مصيرية، لا تمر علينا الأحداث والآيات والظواهر مرور الكرام، بل ينبغي تفحصها وأخذ العبرة منها.. أن نتفكر بعلة خلقنا وما يريده الله منا وما السبيل إليه.

اللب يتقوى بالتفكّر، وينمو بالتدبر، ويزهر بالتمعن فيعمل على إكمال القطع المتفرقة لأحجية الحياة وصورة الخلق وعلة وجوده.. حين يقوى تبدأ الأفكار تترابط وتنسج نفسها بصورة متكاملة يعرف من خلالها الإنسان حقيقة نفسه. واللب ينفعل بالتأمل الذي يفتح بين ثنايا النفس فجوات تعبر من خلالها ملكات الذات للخارج فتستشف بعض الحقائق في العالم الطبيعي ويصبح لديها إدراك مباشر دون مقدمات، سواء في اليقظة أو المنام، وهذا هو سبب إيمان كثيراً من الناس بالله أو بالروحانية حين تتكشف لهم الحقيقة دفعة واحدة، فما كانوا يعاندون فيه عشرات السنين قد ينهار في ثوان معدودة.

كثيراً من الفلاسفة تغيرت قناعاتهم في لحظات كهذه، كثير من الناس جذبتهم هذه الإشراقة لعالم الروح.

2- الكلمات المقدسة

الكلمات المقدسة الحقيقية تعتبر شفرة تفعيل للألباب.. فالسر الذي يلزم البوح به، هو أن الكلمات الإلهية في الكتب المقدسة والتي تُعرف في القرآن الكريم بالذكر لا تصف سمات وعظمة الخالق فحسب وإن كان هذا متجلٍ في شكلها الظاهري وباعثة على الإجلال والتقديس، ولكنها في الواقع تحمل بين طيات ميزانها الحَرفي والتقاء موجات وذبذبات ترتيل كلماتها شفرة كونية تعمل على فتح مكامن القلب والفؤاد. فالذاكر يتقلب بين عالمين، عالم الظاهر والمعنى بما يحويه الذكر من معان اسميه ودلالات معنوية، وبين باطن الذكر حيث الجوهر البنيوي للكلمة وترتيل أحرفها. ومن هنا جاءت الأحاديث التي تحث على تعلم قراءة القرآن منذ الصغر، في حين أن الطفل قد لا يفهم معانيه ولا يتدبر آياته ولكن ما يجنيه من تلك القراءة ذلك الانبعاث الروحي الكامن في روح الكلمات المقدسة. ومن هنا

كذلك نفهم كيف تؤثر هذه الكلمات المقدسة للذكر على غير الناطقين باللغة العربية.

وكما أن قطرات الماء الرقيقة بمقدورها نحت الحجر الأصم، كذلك يعمل روح الذكر في الذاكر حين يخترق مستويات النفس ويلامس شغاف القلب الذي يعمل على تجلي رؤية الفؤاد. لذلك ارتبط الذكر بكلمة (الورد) والتي من إحدى معانيها الوصول أو تحقيق الغاية بالاستمرار المتوالي لعدد الذكر حتى نهايته.

لقد حفظ الله تلك الكلمات المقدسة حتى لا تخلو الأرض من أداة التواصل الروحي التي تُفعل وتثير وتشحذ المستويات الروحية داخل الإنسان، وأودعها الصحائف والألواح والكتب المقدسة ومن ضمنها القرآن ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ وبالتالي فهي لا تختص بدين دون آخر أو بزمن دون سواه، فقد تجلت من عالم الأمر حين وجد الإنسان في أطواره الأولى ﴿هَذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ ومن هنا ندرك لماذا أصبح الذكر من أَجل وأقدس القربات والعبادات والشعائر ذلك لأنه يفتح باب القرب الباطني ويخترق حجب ظلام النفس وينقي القلب ليكون محطاً للفيوضات الإلهية.

ثالثا:

الإلهام

العالم الروحي ليس عالماً مصمتاً بل هو عالم زاخر بالحياة، تفوق درجة حيويته العالم الأرضي آلاف المرات وهذه الحياة تسبح فيها الكثير من الكيانات الروحانية النيرة المكلفة بتوجيه الإنسان ودعمه ومؤازرته في حياته الأرضية..

فنحن.. قد نراقب البذرة ما أثناء نموها، ويخيل إلينا أنها تحتاج إلى الماء والتراب والسماد والهواء وأشعة الشمس فقط، بينما هي تحتاج إلى عشرات بل مئات الأمور والمستلزمات التي

لا نراها بأعيننا، والتي تتهيأ لها بمجرد أن نضع البذرة في التربة فتعمل على مساعدتها في النمو. كذلك الإنسان هو بحاجة إلى دعم متواصل غير مرئي من عوالم محيطة به تؤازره في الحياة. فكثيراً من القرارات والإبداعات والاكتشافات والنجاحات التي حققتها البشرية على مر العصور كانت عبارة عن الهامات من العوالم المساعدة. وما يهمنا الحديث عنه هنا هو علاقة الإلهام بالشعور الروحي أو اليقظة الروحية. فحين يكون القلب نقياً صافياً واللب مستنيراً ألقاً يكون ذا قوة جذب عالية لكل الفيوضات النورانية السابحة في عالم الأثير والعالم الروحي وهو ما يخلق الغبطة الروحية.

الإنسان لا يعيش بمعزل عن العالم الروحي، لأنه الزيت الذي يضيء مصباح الوجود، وباطن هذا الوجود تيار متدفق من الحياة بشتى صورها وأنواعها، تلامس وتنجذب لمثلها من القلوب البشرية، فالقلوب السليمة تلامسها وتقترب منها الأرواح العالية والكيانات النورانية، والقلوب الدنسة الكدرة تكون محطاً للكيانات الظلامية والأفكار الهابطة.

وهذه الملامسة وهذا الاقتراب إما أنه يخلق حالة من التوجس والاضطراب كما في الكيانات السلبية أو يحدث فرحة باطنية وبهجة روحية حين يكون مهبطاً للملائكة والأرواح العالية والأفكار الإبداعية.

وبالتالي فإن شعور الإنسان بالبهجة والنشوة الروحية إما أن يكون بسبب تفعيل الاعتقاد بعالم الغيب، أو بتفعيل أداة التواصل الروحي (اللب)، أو بورود الإلهامات النيرة من الكيانات العليا.

التجربة الروحية تجعل الإنسان يخرج من التصورات العقلية والاستدلالات المنطقة والمناهج العلمية إلى حيث التجربة الذاتية الروحية المباشرة، إلى حيث المعرفة اللدنية الذاتية، فالعالم

الروحي ومعرفة الله لا يمكن إدراكهما بوسائل الحس أو العقل والمنطق أو التصور.. نعم هذه الوسائل قد تشير إليه وقد تعرفنا بوجوده وتدبيره من حيث المبدأ، فقانون العلة والمعلول، وهدفية الخلق، وضرورة أن يكون لكل تصور مصور وغيرها من مبادئ فلسفية وكلامية تؤكد على وجود الخالق ولكنها لا تعرفنا به.. قد تعرفنا ببعض صفاته ولكنها في الوقت نفسه تقيد وتحدد تصوراتنا عنه في إطار معين، وقد لا يمثل هذا الإطار حقيقة الله أو حقيقة الوحدانية، لذلك نرى الكثير من المتكلمين والاخباريين والمستنبطين ليسوا بعيدين عن الروحانية فحسب وإنما يقفون نداً معارضاً ومناوئاً لكل من يُبحر في المقاصد الروحية للشريعة الإسلامية ويستلهم بصائرها الروحية.

وفي النهاية فإن مثل من يستشعر بالروحانية ومن لا يستشعرها كمثل رجلين يمران عبر حديقة غناء تغرد فيها الطيور بأشجى الألحان، فقد لا يعبأ بها أو يلتفت إليها أحدهما بينما تشنف مسامع الآخر ويطرب لسماعها. فأصوات الطيور هي ذاتها، والآذان هي الآذان ولكن ثمة شيء في الداخل هو ما يتفاعل معها أو يرفضها.. وهذا الشيء يعتمد على تفعيل دور الأداة الباطنية التي أودعها الله في كل واحد منا.

لذلك يقول الحكماء:

في باطنك يكمن العالم كله..

فإن أردت أن تتعلم منه وتنظر إليه..

فالباب موجود هناك والمفتاح في يدك..

لا أحد على وجه الأرض يمكنه أن يعطيك..

لا المفتاح ولا الباب لتفتحه..

ما عداك أنت.. ما عداك أنت..

ينبغي أن نركز على ضرورة التحقق من هذه الفكرة في حياتنا بأننا أرواح في تجربة جسدية، ولسنا أجساد في تجربة روحية. أن نهمس في أعماقنا دائما بأننا أرواح حلت في هذه الأجساد لفترة محدودة ولغاية معلومة. وأن ندرك بيقين قوي أن ثمة أمور كثيرة ومتعددة تكمن خلف حدود حواسنا لا يمكن كشفها إلا من خلال الوعي الروحي الذي نستطيع من خلاله معرفة خالقها ومصورها بيدي قدرته العظيمة. لذلك دعونا نردد هذه الكلمات دائما: "اللهم فرغني لما خلقتني له، ولا تشغلني بما خلقته لي، ولا تحرمني وأنا أسألك، ولا تعذبني وأنا أستغفرك".

تيقظ لإدراك علة الخلق

كثيراً ما يُبحث موضوع علة خلق العالم والغاية من وجوده في إطار الأبحاث الفلسفية والعلمية والدينية والكلامية والعرفانية، فكلا أدلى بدلوه ووضع تصوراته الخاصة فيما يتعلق بالخلق الأول أو عالم النشأة الأولى.

ولا نريد هنا أن نتطرق إلى هذه الآراء بقدر ما نريد أن نركز على أمر في غاية الأهمية.

إن خلق العالم الذي استمر مليارات السنين وسيستمر أيضاً أكثر من ذلك هو من الغموض والخفاء والإبهام بحيث يصعب على عقولنا المحدودة القاصرة أن تلم بأهدافه أو أن تصل إلى جزء يسير من غاياته.

نحن مختلفون.. بل ومخطئون في بذرة وشرارة تكون العالم المادي، فكيف بنا نعرف وندرك الغاية من خلقه؟ نحن نجهل البدايات فكيف نعرف النهايات؟

فرضية الانفجار الكبير والتي يعتبرها البعض النظرية الوحيدة لنشوء الكون والتي تتصدر الأبحاث العلمية من جانب، والمنابر الدينية - مع الأسف الشديد - من جانب آخر فرضية جاءت نتيجة مخاض تفكير بشري يؤمن بالمادة كأساس في البنية الكونية.

ماذا كان قبل الانفجار الكبير؟ أين سيؤول العالم بعد أن تضغط المادة الكونية مرة أخرى؟ إلى أين يسير هذا النظام الكوني؟ لا أحد بمقدوره الإجابة اليقينية سوى مجرد فرضيات علمية كثيراً ما تخضع لميول الباحثين، ولتوجهات المؤسسات العلمية.

هل الأهداف التي وضعها الفلاسفة والمدارس الدينية والعرفانية لغاية وعلة الخلق واقعية وحقيقية أم أنها مجرد اجتهادات بشرية قد تصيب وقد تخطئ؟

لقد خلق الله الكون بمجراته وشموسه وأنظمته المحكمة وجعلها سكنا لمخلوقاته الذكية وكائناته التي بمقدورها التعرف على موجدها لغاية وهدف كبير جداً، ولكن ما هو هذا الهدف؟

قد تأخذ إجابة هذا السؤال سنوات طويلة من عمر الإنسان، وكلما لمع برق وتمخض الفكر عن هدف ما، يلوح في الأفق بعد فترة هدف أخر أكثر منه واقعية وروحانية فنأخذ به ونسلم له، ولكن لا يلبث هنيئة حتى يتصدر هدف آخر وعلة أخرى للخلق.. وهكذا. فكل الأهداف التي نضعها يُخيل إلينا أنها خطة الخالق في الوجود، أو السفر من الخلق إلى الحق كما جاء في أسفار صدر المتألهين، ولكن كلما تعمقنا روحياً أكثر كلما تبددت تلك الأهداف وبقينا في حيرة من أمرنا، فالهدف أكبر بكثير مما يستطيع العقل البشـري استيعابه وإدراكه ووعيه.

لذلك فكل الغايات أو أغلبها التي نعتقد أنها هدف الله من خلق العالم إنما هي مجرد اسقاطات وآراء وأهداف نفترضها تارة، ونفرضها على الله تارة أخرى. حتى الغايات الجزئية التي أخبرنا الله عنها بنفسه إنما أشار إليها لسد باب الحيرة ولنعي جزءاً من حقيقة الحياة، لأنه يخاطبنا وفق عقولنا البشرية المحدودة.

الله يجيب على تساؤلاتنا وفق نظرتنا ومحدودية إدراكنا للأمور. ماذا ستكون إجابتك حين يسألك طفلك عن فائدة عشبة تنبت في الصحراء لا يعلم أحد عنها شيئاً، أو عن فائدة سمكة في عمق المحيط تعيش في ظلام دامس؟

بالتأكيد سوف تجيبه وفق محدودية إدراكه ووعيه، وكلما كان أكثر نضجاً فستختار الإجابة التي بإمكانه إدراكها.. أليس كذلك!

الإنسان مخلوق محدود كسائر المخلوقات العرضية، خُلق ليواكب ويتماشى مع الأنظمة المحكمة في الكون. يبقى محدودا كونه داخل هذه الأنظمة ومحكوماً بقوانينها. وبالتالي فالإنسان حين يتكلم عن هدف الخلق هو يقدم سبباً منطقياً وعملياً لسبب وجوده ووجود العالم من حوله، دون أن ينظر إلى الصورة الكاملة والشاملة للخلق.

يؤمن كثير منا أن علة خلق العالم تتمثل في العبادة أو الاختبار أو الابتلاء أو التطور الروحي.. ثم.. ماذا بعد ذلك؟ ماذا بعد هذه الأمور؟ قد تصح هذه الأمور فيما لو كنا على أرض مسطحة تزينها النجوم والكواكب وتدور حولها الأقمار والشموس ونكون نحن مركز الكون. ولكن نحن نتكلم عن ملايين المجرات التي تحوي كل واحدة منها آلاف الشموس والأقمار. لمن خلق هذا كله؟ ولماذا خلقت؟ هذا ما نستطع رؤيته وإدراكه بحواسنا أو بوسائل التكنولوجيا الحديثة، فماذا بشأن الخلق الذي لا نراه، فهناك عوالم غير مرئية بما فيها كواكب وأقمار ومجرات، فليس كل الخلق على درجة واحدة من التذبذب والتصلب بحيث يكون بمقدورنا رؤيته؟

يخاطبنا الله جل وعلا في كتابه العزيز بمنطق فرديتنا وتفكيرنا البشري البسيط، فيجعل العبادة والابتلاء والاختبار والتزكية الروحية عللا وأهدافاً للخلق.. في حين أن هذه

ممارسات وطقوسٌ وغايات أولية تنحصر في محيط الإنسان لا غاية للخلق العام لكل مظاهر الحياة في الكون.

إلى الآن لم يكتشف العلماء وجود كيانات ومخلوقات أخرى في الكون، ولم يتوصلوا إلى أي من الكائنات التي تعيش على كواكب تفتقد للأكسجين والماء والبكتيريا الحيوية.. هم يقيسون الحياة بوجودنا الأرضي وبمقاييس الحياة على سطح كوكبنا، في حين أن لا شيء في الكون خال من الحياة، حتى الشمس التي تزيد درجة حرارتها عن 5500 درجة مئوية تسكنها كيانات أثيرية تأقلمت في سكنها العملاق منذ ملايين السنين.

فإذا كنا لا نعلم إلا القليل حتى عن الكواكب والشموس المحلقة بقربنا فكيف نعي غاية وهدف نشوء الكون؟.

بعد الموت تنكشف للإنسان العديد من الحقائق المغيبة، ولكن يبقى سر الخلق وعلة الوجود بعيد المرام وغاية لا تدرك، فمن لم يتبحر في كشف حقيقة الوجود أثناء حياته لا يتلق أية إجابة بعد مماته، فما نحمله من وعي في حياتنا هو ما يرتحل معنا للعالم الآخر. وسيتلقى الإجابة التي تناسب تطوره الروحي لا أكثر. فليس كل الأرواح تدرك هذه العلة، إلا الأرواح الراقية التي اجتازت درجات كبيرة من التطور الروحي، تلك الكيانات الأولية التي خلقها الله لتكون علة الخلق العملية والفاعلة قبل خلق العالم المادي والروحي، والأرواح القاطنة في الفردوس الأعلى تنكشف لها بعض غايات ومقاصد الخلق، بل قد تجد حتى في الجنان هناك آراء مختلفة ومتنوعة حول طبيعة الهدف الحقيقي للحياة.

لله تبارك اسمه خطة تشمل كل مخلوقاته وكل مجراته وكونه المرئي وغير المرئي، تبقى هذه الخطة مكنونة في ذاته يتسرب منها إلى مخلوقاته بقدر حاجتهم للمعرفة والفهم والإدراك

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ ليس فقط خطته وحكمته وإنما ينطبق الأمر كذلك على كلامه العظيم وآياته المحكمات، فكلما تطور الوعي الروحي كلما كان أقدر وأكثر إدراكاً لفهم واستيعاب تلك الكلمات المقدسة، كما جاء عن ابن عباس "القرآن يفسره الزمان" وأكثر وعياً في فهم إشارات الآيات والدلالات الإلهية لمراد الله وغاياته. لذلك يقول: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

حين يقول الله عن نفسه: ﴿يَسْأَلُهُ مَن في السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ ينبغي أن ندرك أننا في مقابل هذه اللامحدودية اللانهاية من الاستحالة بمكان كوننا كائنات محدودة أن ندرك غاية اللامحدود، أو أن نطّلع على المقاصد والأهداف والغايات الكاملة لله في خلقه، حتى وإن عَبرّ (اللامحدود) عن هذه الغاية بسلوكيات أو أفعال كالعبادة والابتلاء والاختبار وما أشبه فكل ذلك مرتبط بالأهداف الفردية التي تتعلق بفردانية الإنسان، فالروح مهما تطهرت تبقى رؤيتها للأبدية أو اللانهائية محدودة.

الله كامل في كل شيء، سيد هذا الكون وخالقه، يفيض عليه بكل حاجاته ومتطلباته، فيوعز بالأهداف والمقاصد التي يرتقي كلاً على حسب درجته واجتهاده ورغبته للكمال، فهو على اطلاع ودراية كاملة على أهداف خلقه وما يضعونه لأنفسهم. ولكنهم ليسوا على دراية بالأهداف العليا لله سبحانه وتعالى، فالله وحده من يدرك ذاته وغاياته الحقيقية، ولا يدركها أحد غيره، هو يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار. هو ينظر للعالم كما تنظر سبعة مليارات عين بشرية للوجود دفعة واحدة، ويدرك ما في أذهان سبعة مليارات كائن بشري دفعة واحدة. هو المهيمن على كل شيء لأن قدرته أزلية أبدية سرمدية لا يحدها حد، ولا يقيدها شرط، وتشمل كافة الكيانات المخلوقة في الكون.

الله يرى نهاية الأشياء من بداياتها، وبالتالي فإن كل اجتهادات العقل البشري لتحديد مقاصد الخلق تعتبر حلقة في فلاة.

وحين نؤكد على هذه الفكرة، فكرة استحالة معرفة علة الخلق الحقيقية، وأنها لا تنحصر في إطارها الشخصي والفردي المتعلق بالطقوس العبادية فقط، بل تشمل الكون كله، فإننا نهدف إلى اقتلاع الإنسان من محيطه الشخصي إلى كينونته الكونية. فبما أن الإنسان كيان مخلوق في هذا الكون، فهو جزء لا يتجزأ من الخطة الإلهية الشاملة، صحيح أننا لا يمكننا أن نرى خارطة هذه الخطة الإلهية خلال حياة قصيرة واحدة ولكن ينبغي أن نثق ثقة كاملة أننا جزء من مشروع أبدي تشرف عليه يد القدرة الإلهية وإلا لانتفى وجودنا من الحياة.

الخطاب القرآني يدلنا على الأهداف الفردية.. لماذا؟

لأننا حين نحقق الأهداف الفردية نحظى بلمحات بسيطة من العلة الحقيقية التي يستحيل إدراكها كاملة. حين ينبهنا الله لضرورة توجيه القلب لخالق الكون فلأنه يجعل من الطقوس والعبادات قنوات مرحلية ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} وحين يؤكد على التعايش مع الحياة وتحمل صعابها ومشاقها والصبر على المحن والفتن والابتلاءات فلأنه يجعل منه ممراً لغايات عليا ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾.. وحين يعي الإنسان ما وراء هذه العبادات والابتلاءات يوعز له بضرورة التطور الروحي الذي يجعله هدفاً فردياً لذاته ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ. أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. في جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. فالأهداف الفردية تكشف لنا (إن أدركناها ووعيناها على حقيقتها) بعض لمحات المقاصد الكلية للمشروع الإلهي في خلقه للخلق.

بل أن هذه الأهداف قد تتفاوت من دين لآخر، فالتغيرات في التشريع الإلهي الذي جاءت به الأديان السماوية يختلف بعضه عن بعض، وليس هذا الاختلاف نتيجة اجتهاد بشري من النبي أو الرسول، بل هي وصايا وتشريعات إلهية تلقاها الأنبياء وبلغوها لأقوامهم كما جاءت..

وهذه الاختلافات تماشت مع طبيعة المتغيرات الزمانية حينها، فتحريم تشريع في ديانة ما وحليته في ديانة أخرى، يتماشى مع الخطة الإلهية الكبرى لا إلى الأهداف الفردية، وبالتالي فإن هذا الاختلاف كان ظاهرياً سطحياً، ولكن تحت السطح والمظاهر الخارجية يكمن هناك غرض غير قابل للتغير، وهي الخطة الأبدية الروحية التي يريدها الله لهذا الخلق بشكل عام.

فالتغيرات لم تكن إقصاء لدين معين على آخر، ولكنها كانت تمثل نوعا من التكامل، فالكمال سواء في الكون أو حتى على المستوى التشريعي الديني هو أصل مهم في الخطة الإلهية، فالخلق بحاجة إلى آلية لكي يكتمل، وهذا الكمال يتطلب تارة عمل شيء ما أو الامتناع عن عمل شيء آخر. وكلما تطورت الأشياء كلما وصلت إلى درجة أعلى لكمالها النسبي، أما بالنسبة للإنسان فهو يصل إلى درجة من الكمال بحيث ترتبط مشيئته بمشيئة الله سبحانه وتعالى. فتتحول المشيئة إلى أفعال حقيقية، فبمجرد أن يشاء تتحول هذه المشيئة إلى فعل، وهي مرحلة الفردوس الأعلى ﴿لهُم مَّا يَشَاؤُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الكَبِيرُ﴾ وكذلك ﴿لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

ولكن غفلة الإنسان أثناء وجوده الأرضي جعلته يتهاون عن هذه الحقائق سواء فيما يتعلق بغاياته الفردية التي أشارت إليها آيات القرآن الكريم، أو بالمقاصد العليا لله سبحانه في خلق الاكوان. فالإنسان لا يتحرك وفق آلية الكواكب والمجرات مسلوبة الإرادة والاختيار، بل اختصه بملكة الوعي وحرية الاختيار

كناموس تفرد به عن غيره، فهو لا يشذ عن القوانين والنواميس الإلهية، لأن الله جعل حرية الاختيار والوعي ضمن هذه السنن. وبالتالي بمقدورنا القول إن الإنسان مسَير كبقية الكيانات، ومن ضمن هذا التسيير أن تكون له حرية الاختيار، بل وجعل هذه الملكة (ملكة الاختيار) بمكان الوجوب اللازمة له، وعبر عنها بالعبادة حين قال: إلا ليعبدون..

ونتيجة هذه الحرية دخل الإنسان في صراعات نفسية مع ذاته وفي صراعات وجودية مع أقرانه البشر. أفنى عمره هدراً في جمع الثروات والممتلكات وفي استرضاء الآخرين وفي إنجازات كثيرة لا تخدم مصلحته العليا. يبحث عن أرض الميعاد في الوجود الخارق، ويتوهم أن بمقدوره فعل كل شي والاستحواذ على كل شيء. أصبحت الحياة بالنسبة له دار صراع وتكالب واكتناز وجشع. يُخيل له أن مسئوليته تنحصر في الحركة الظاهرية للحياة وتحقيق مطالبها أو الاستمتاع بما تعرضه من ملهيات ومباهج. لقد جهلنا أو تجاهلنا أننا ضمن خطة إلهية كونية، ونسينا ما أودعه الله فينا من ملكات وقوى روحية بمقدورها أن تلهمنا الكثير من الحكمة وتفيدنا في تيسير حياتنا.

حين خلق الله الكون المادي وتجلي كواقع طبيعي منظور فلهدف وغاية لا يمكن تحققها إلا من خلال هذا العالم المادي المنظور، وبالتالي فإن كل مفردات هذا العالم (مادية- فكرية - روحية) تخضع لهذه الغاية التي لا تستثني شيئاً. فهناك مشروع واحد فقط للحياة المادية والبرزخية، هذا المشروع يتلقى الإفاضة المستمرة غير المنقطعة من الخالق، ونقول غير المنقطعة حتى لا يتوهم البعض أننا مفصولون عن الفيض طرفة عين، فلو انقطع المدد لتلاشى كل شيء، فالعالم مبني على الإيجاد والإمداد، وحين تصل هذه الخطة إلى غاياتها تطوى السماء

كطي السجل للكتب ويعاد الخلق كما بدأه الله ما قبل الخلق المادي.

لتكن لدينا بصيرة كونية

بعد كل ما ذكرناه ينبغي أن تتغير آفاق نظرتنا للحياة التي حصرناها - كما أخبرونا أو يخبرونا - في الأوامر الإلهية أفعل ولا تفعل، حلال وحرام، مكروه ومستحب.. ينبغي أن نتساءل ماذا بعد هذه الأوامر؟ ينبغي أن ندرك أن خلف هذه التشريعات تكمن خطة إلهية كبيرة. لقد علمونا ضرورة أداء الواجبات والعبادات، ولكن لم يعلمونا لماذا؟ لم يعلمونا ما هو اليقين الذي أشارت إليه الآية الشريفة ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

عشرات من كتب العقيدة والفلسفة وعلوم الكلام تناولت موضوع علة الخلق وغاية وجود الإنسان، تزخر بالعديد من الآراء والتصورات الحقيقية منها والأسطورية الخيالية، يصيب بعضها ويخطئ العديد منها. لذلك ينبغي أن لا نعول عليها كمصدر مثالي وحيد، بل نبدأ في تزكية أنفسنا لنحظى بشيء من هذه المعرفة الإلهية. نركز على غاياتنا الفردية من خلال التقرب إلى منبع الفيض، بالتأمل والصلاة والتهجد وتطهير الفكر، والتحلي بمكارم الأخلاق الفاضلة، والتمسك بالأرواح الطاهرة المرشدة التي تعيننا لفك لغز الخلق، والسير في الخلق بتواضع ورأفة ومحبة وإيثار وعطاء.

ولنضع في اعتبارنا ثلاثة أمور مهمة نذكرها باختصار ونسهب بها فيما بعد:

1- أن الهموم والأحزان والتجارب والاحباطات والفشل جزء لا يتجزأ من الخطة الإلهية العليا، فالفحم الحجري يتحول إلى ألماس بعد ضغطه، ولأننا لا نعي ما يعترينا أثناء حالة الضغط هذه فإننا ينبغي أن نتجرع ونصبر على مرارة

الأحداث، لذا كانت الابتلاء والفتن ﴿وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ والاختبار هدفاً فرديا ينبغي اجتيازه.

2- التقرب إلى منبع الحـــب والفيض الإلهي يتم عبر العبادة الحقيقية والفعالة التي تتمثل في الحضور التام الكامل، وأن نختار هذا الطريق بمليء إرادتنا دون إجبار أو إكراه من أحد، بل نمارسه بكل حب وشغف وتودد، لذا كانت العبادة ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هدفاً فردياً ينبغي اجتيازه.

3- لا نتوقف عند حد ونرى أنفسنا وقد أصبحنا شيئاً مذكورا، فمهما علت درجتنا لا يمكننا أن ندرك منتهى اللانهائية، وما أعده الله في عوالمه من درجات روحية سامية ورفيعة، لذا كان التطور الروحي ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ هدفاً ينبغي اجتيازه..

حين نحقق في أنفسنا هذه الأمور سندرك عمق وغور عملية الخلق، وعظيم خطة الله في خلقه وعلة وجود العالم، فهل ستجعل فكرك يسبح في محيط هذه الخطة الإلهية العظيمة أم سوف تتلاشى بمجرد أن تنهي قراءة هذه الكلمات.

من طرق الباب.. فُتح له

يتساءل البعض: لماذا لا يستجيب الله دعائي ولا يستمع لندائي واستغاثتي؟ لقد دعوته مراراً وتكراراً.. تفننت بفنون الدعاء والذكر والابتهال ولكن دون فائدة؟.

للكلمة والدعاء والذكر أثر كوني قد يغير العديد من معادلات الحياة، فالكلمة عبارة عن اهتزازة نابضة بالروح والحياة كفيلة بتفعيل القانون الكوني لأجل تحقيق طموحاتنا واستجابة صلواتنا ودعائنا. وهذا ما أكدته سيرة الأنبياء والعظماء عليهم السلام. فحين سُئل الرسول (ﷺ): "هل حقاً كان المسيح يمشى على الماء.. قال: بلى ولو ازداد يقينا لطار في الهواء".

لقد وعدنا الله باستجابة الدعاء فهو القائل ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ شريطة أن تكون الكلمات المنطوقة قوية ونابضة بالحياة وتعبر عن الذات الحقيقية غير الملوثة..

فالكلمة اهتزازة حية تنبع من الفكر والقلب، فإن كان القلب سليما والفكر نقياً خرجت الكلمة قوية مؤثرة، وإن كان القلب مريضاً والفكر مضطرباً خرجت الكلمة ضعيفة مترهلة أو ميتة ليس لها أي تأثير في القانون الإلهي أو الكوني.

نعم.. الكلمة الميتة ليس لها أثر فاعل في الكون وكذلك هي كلماتنا التي ندعو ونتلفظ بها، فلا شيء أصدق من كلام الله

حين يقول ادعوني أستجب لكم.. ولكننا ندعوه بكلمات ميتة لا روح فيها ولا حياة، كلمات منفصلة عن ذاتنا.. كلمات ملوثة لا تملك من قوة التأثير شيئاً.

لقد قتلنا روح الكلمة حين أطفأنا سراج القلب الذي يغذيها بالنور، قتلناها حين بدأنا نتفنن بلفظها دون أن نعيها بأرواحنا، قتلناها حين استخدمنا ألسنتنا كأداة للثرثرة والغيبة والنميمة والكذب والباطل والقيل والقال.

لا يعلم السائل حين يقول لماذا لا يستجيب الله دعائي أنه يدعوه بكلمات ميتة وبلسان محمّل بخطايا وأوزار تنحدر منه كالسيل الجارف.

إن قوة الكلمة أو الدعاء على اللسان تضمحل حين نستخدم هذا اللسان في جرح مشاعر الآخرين، أو التدخل فيما لا يعنينا، أو الاستهزاء بخلق الله، أو الثرثرة التي تستجلب معها فتنة الغيبة، أو التصيد لأخطاء وزلات الآخرين. إن لساناً يقضي جل وقته بتلفظ الكلمات الواهية العقيمة والنابية ستنعدم قوته وتضمحل فاعليته، لأن الكلمة لا تصدر إلا عن فكر، والفكر لا يصدر إلا عن القلب والنفس، فإذا كانت أصالة النفس مشوهة ومضطربة وبعيدة عن منبع النور فكيف ستكون كلماتنا التي نتلفظ بها.

إن الله يعطي من سأله ومن لم يسأله تحننا منه ورحمة، ويمن علينا بالعطايا لا لاستحقاقنا لها ولكن بفضله ورحمته علينا. ولكن يجب أن نعرف حقيقة الدعاء الذي لا يُستجاب، وأن نعرف أن قوة الذات الروحية هي التي تعطي قوة فاعلة للكلمات بمقدورها اختراق السموات السبع والوصول إلى عرش الرحمن.

كلمات الدعاء بحاجة إلى أصالة وصفاء النفس وهدوء للمشاعر، وشوق ملتهب بالحب، بحاجة إلى صمت وسكون، وفيض من الحماس والحنين لكي تنطلق من كمونها القابع في

النور لتحلق إلى حيث الاستجابة. إن قوة الكلمات تحملها أجنحة الروح التي تشع من بين جنبيك لتحلق بها عالياً إلى السماء..

هناك العديد من الأبواب بمقدورك دخولها، شريطة أن تعرف كيف تقرع الباب. ولا يعني هذا أن تـُفتح لك كل الأبواب، فالله إن استجاب دعاءك يفتح لك الأبواب الخاصة بك (ما هو ممكن الحصول عليه أو ما هو لك وليس لغيرك)، أي الأبواب التي بإمكانك دخولها والحصول على نتائجها، فهناك أبواباً ليس من مصلحتك فتحها لأنها لا تدخل في نقطة اختبارك وابتلائك، أو تكون خروجاً من أمر تختبر فيه هو في طي التحقق. فقد تنجح في اختبار ما بالغش مثلاً، أو بواسطة معرفتك لناظر المدرسة، ولكن هذا النجاح لا يعني أنك فهمت، أو علمت، أو أدركت حقيقة المادة التي اختبرت بها.

قبل أن تسأل لماذا لا يستجيب الله دعائي ابحث في أعماقك عن السدود والحواجز والقضبان التي حالت دون بلوغ صوتك إلى السماء، أطرق الباب بالكيفية التي أمرك الله بها وسيفتح لك حتماً، تخلص من الحقد والكراهية والثرثرة، تخلص من فكرة تقييم الناس والحكم عليهم.. تخلص من التفكير المادي والتشويش السلبي.. تخلص من الشعور بالذنب وعش في تجربة روحية مع الله ملؤها السلام والمحبة وعمادها الصمت والسكينة حينها ستعلم كم ستكون كلماتك قوية ومؤثر في عالم تحكمه الكلمة.

التجربة الروحية تنحصر في كلمة واحدة.. اطرق.. واستمر في الطرق.. أي أن نطرق الباب.. وبدون الطرق لا تكون لنا أية تجربة روحية حقيقية.. فما لم نطلب ونشعل الرغبة العميقة في داخلنا لن ننال سوى الأشعة المرسلة من ثقب الباب.

البعض يطرق الباب حين يكون مرغماً محتاجاً ملهوفاً، والله برحمته يفتح له على قدر حاجته فيعطيه.

البعض يطرق ليعرف حقيقة النور الكامن خلف الباب، فيغدق عليه على قدر ما يود معرفته.

البعض يطرق ثم يغيب ويتيه ثم يأتي طارقا مرة أخرى ثم تهجم عليه لواعج الدنيا فينسى طرق الباب إن لم ينس الباب ذاته..

البعض لا يبرح مكانه عند الباب ففي قربه من الباب حياته، فلا يوجد أبواب بديلة يطمح ويرجو فتحها.

بمقدور كل واحد منا طرق الباب، فباب الله في متناول الجميع، وبمقدور أي منا الوصول إليه، فمعرفة الحق وتحري الطريق الروحي إلى الله أو القرب منه ليس بالأمر الصعب المستصعب كما يُخيل للكثيرين، أو كما أراد البعض إيهامنا بتعقيده وغموضه وتعسر تحققه، حين جعلوا له مراتب ومراقي ومنازل وحالات، وحددوا له تعاريف ومصطلحات وقيدوه بأفعال وممارسات.. فالله جعل التقرب منه أمراً جوهرياً في حياة المؤمن، وهذه الجوهرية ينبغي أن تكون في متناول فهم واستيعاب وإدراك الجميع، وإلا فكيف يدعونا لشيء يصعب علينا إدراكه، أم كيف يطالبنا بشيء نعجز عن الوصول إليه. بل إن عدالته - سبحانه وتعالى - تتحقق حين يجعل هذا الأمر يسيرا لجميع بني البشر يمكنهم الوصول إليه. فلا نحتاج إلى سنوات لندرس الكهانة، أو نصبح من رجال الدين، أو نمارس طقوس التقشف، أو ندرس التشريع المقارن، أو نراجع مناهج الاستنباط، أو المباحث العقلية لنحظى بالقرب من الله. بل على العكس من ذلك فتلك الأمور إن لم تُبحث وتدرس بوعي فقد تحجبنا عن الحقيقة وعن الله، لأننا سنركز على المعلومة وننسى المعلوم.

فأبوابه مفتوحة للراغبين كما نقرأ في الأدعية المأثورة: "«بابُكَ مَفْتُوحٌ لِلرَّاغِبينَ، وَخَيْرُكَ مَبْذُولٌ لِلطَّالِبِينَ، وَفَضْلُكَ مُباحٌ لِلسَّائِلِينَ، وَنَيْلُكَ مُتاحٌ لِلآمِلِينَ". ومن هنا كان العلم بالله والقرب منه في متناول كل البشر شريطة أن يقرع الباب، ويستمر في قرعه، حتى يفتح له. وكما نؤكد مراراً وتكراراً: "من قرع الباب يوشك أن يفتح له".. فكثيراً منا يتهاون أو يمل من قرع الباب في الوقت الذي يوشك أن يفتح له. فلا تستكثر ليونة قطرات الماء التي بمقدورها أن تفتت أقسى الصخور لو استمرت في السقوط عليه. ينبغي أن نعي هذه الفكرة في أذهاننا جيداً قبل كل شيء.

فعلى الرغم من كثرة التشعبات والتشريعات والطقوس التي وضعتها الديانات إلا أنها اتفقت جميعاً على أن الطريق إلى الله متاح لكل بني البشر، لا تعقيد، ولا تزمت، ولا تعصب، ولا صعوبة في دين الله، بمجرد أن تصفي ذهنك من واردات الأفكار، وتوجه بوصلة قلبك في العشي والإبكار، وتتخلى عما يشدك ويثقلك عن التحليق في سماء الأسحار، ستشعر بإشراقة روحانية وبتوجه قلبي، وهذه الإشراقة هي تذكرة القرب من الحضرة العلية.

البعض يهجر الطريق لما يجده من تعقيدات ومصطلحات ومفاهيم مبهمة في أدبيات السالكين النظرية. ومع الأسف الشديد، وضع الجهل سدوداً بيننا وبين الله.. وفرة المعرفة المكتسبة دون وعي روحي يجعل رؤيتنا ضبابية تجاه الحقيقية وقد يبعدها عنا.. الاجتهادات البشرية الوضعية جعلتنا نؤسس حقائق لا دخل لها في العقيدة وكما قيل "العلم نقطة كثرها الجاهلون".. تغليب الآراء الشخصية التي ألقت بظلالها على النصوص أبعدتنا عن مفهوم الخطاب الرباني وجعلتنا نصغي للخطاب البشري الفاني.

إن منهج الوصول إلى عالم الأصول في العقيدة الموحدة لله مؤسس على الآية الكريمة ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ مؤسس على الكلمة، "في البدء كانت الكلمة" في المسيحية، وعلى كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" في الإسلام، وعلى المحبة والسلام عند أصحاب التأمل والتبتل..

فالطريق إلى الله واحد إلا أن عقول البشر صعبّت السير فيه، فتشعب، وتشتت، وأصبح لباساً يتشكل وفق معتقدات الناس، ويخاط وفق آرائهم وأهوائهم الشخصية.

ابتعادنا عن البصائر الربانية جعلنا نعيش في عالم كئيب مضطرب متوتر حزين، عالم نتساءل فيه عن الحق وعن الطريق السليم الذي نتبعه، ولماذا نتعرض لكل هذه الكوارث والمحن والفتن؟ وكما جاء في أحاديث آخر الزمان، "سيأتي زمان على أمتي يقولون فيه أين الله؟ ولِمَ يفعل بنا هذا؟" من شدة أهوال ما يلاقونه..

ولكن حتى يخطو الإنسان خطوته الأولى في هذا الطريق بوعي وإدراك، وحتى لا يدور كثيراً حول الحمى دون أن يقع في نقطة الحق عليه أن يعي أربعة حقائق وركائز مهمة:

الركيزة الأولى: العبادة

ينبغي أن نعي حقيقة العبادة بمعنى حرية القرب والاقتراب.. فالعبادة بالمفهوم التشريعي إقامة الأركان الدينية الأساسية من شعائر واجبة والالتزام بالمباحات واجتناب المحرمات، كما تأتي بمعنى الخضوع والتذلل والاستكانة. بينما في المفهوم القرآني والروحي فإن العبادة تعني حرية اختيار شيء ما عن قناعة ويقين لتقترب منه، فالعبادة كمفردة مجردة تشير إلى الاختيار الإرادي الحر، أو الاختيار الحر المكلل بالإرادة الشخصية. أما عملية الخضوع فهو نتاج هذا الاختيار، فمن يختار أمراً ينساق

ويتماهى معه ويتمثل له بالطاعة. وبالتالي فالعبادة أن تختار القرب والتماهي مع شيء ما، فيكون هذا الشيء هو الأقرب إليك من كل شيء آخر، فمن عبد شيئاً فقد اختاره ليكون الأقرب إليه، أو اختاره ليعبده أي يقترب منه ويتقرب إليه. فالعبادة إذن: الاختيار الحر للتقرب أو الاقتراب من شيء ما.

فقد يختار الإنسان شيئاً دون أن يقترب منه، وهنا لا نقول أن هذه عبودية صادقة.. فالعبودية اختيار واقتراب إلى درجة التقديس والتبجيل والإكبار والتوقير ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ اقتراب إلى درجة أن يملأ المعبود كل حياة العابد، ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ بحيث لا غنى له عنه ولا سند له غيره، ولا ملجأ منه إلا إليه.

لذلك حين نقول: عباد الله، فنقصد بهم الأشخاص الذين اختاروا الله عن وعي ويقين ليقتربوا منه ويتمسكوا بتعاليمه وتوجيهاته، فتأله قلوبهم إليه على الدوام.. فقد يختار الإنسان هواه ويعبده ويعيش حياته في دائرته، فيكون الهوى معبوده وإلهه لشدة اقترابه منه وعدم استغنائه عنه ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ كما نسمع عن عبادة المال والثروة والجاه والمنصب، حتى أننا ننعت الرجل الذي يعشق عمله ويندمج فيه أنه "يعبد عمله". لذلك فحين نقول في الشهادة: "أشهد أن محمداً عبده ورسوله" لأنه أقرب الكائنات والمخلوقات إلى الله وحامل لواء دعوته ومبلغ رسالته ومجلى لصفاته وأسمائه.

وبالتالي فإن ما يترتب على هذا الاختيار الحر أي العبادة أن نكون في كنف المعبود الذي قال لبني آدم تقربوا إليّ أكفيكم أمر دنياكم، وأستبدل معاناتكم وآلامكم بفرحة وغبطة وسعادة..

ومن هنا نعلم كذلك لماذا يتصدر الذكر سائر العبادات الأخرى ويسود عليها ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ لأنه أداة القرب المثالية التي

تربط العابد بالمعبود والذاكر بالمذكور والمحب بالحبيب "من أحب شيئاً لهج بذكره" فالذكر يمد لنا بساط الحضور والحظوة الآنية مع الله سبحانه وتعالى واستشعار فيضه الدائم.

العبادة بمعنى الاختيار تُخرج طقوسنا الدينية من كونها عادات روتينية إلى انفعال وجداني ومشاعري وروحي.. تتحول إلى أدوات تعبدية (تقربية) مع الله سبحانه وتعالى.. فمن أعظم الهفوات التي نقع فيها أن تتحول طقوسنا العبادية إلى عادات سلوكية نؤديها لإسقاط التكليف الشرعي لا أكثر، حتى لا يسألنا الملكان فيما بعد عن تقصيرنا في أدائها. في حين أن عبادتنا ينبغي أن تكون كعبادة أولياء الله، وعلى رأسهم أمير المؤمنين (ع) الذي يقول: "ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، ولكن وجدتك أهلا للعبودية فعبدتك".

لذلك علينا نقف وقفة جادة مع أنفسنا.. وأن نحول ما ورثناه من آبائنا واسلافنا من طقوس ومفاهيم عن الدين إلى وعي واختيار. أي أن نحول العادة إلى عبادة بمعني القرب بالاختيار، أن نمارس طقوسنا برغبة وهمة وتفاعل حقيقي لا كفرض ولكن حباً وشوقاً ورغبة وتعلقاً بمن نعبد ونتعلق.

الركيزة الثانية: الحب

حين تختار (تعبد) الله رغبة وشوقاً وتقديساً لشأنه، ستشرق في قلبك ومضات الحب على حين غرة، ويتفتح وعيك على حقيقة الحياة والعالم، ستشعر بانسجام وتناغم بينك وبين الموجودات جميعها بلا استثناء وفي مقدمتها الإنسان.

تبدأ في النظر إلى الموجودات كأرواح مجردة يحكي كلاً منها قصته في سيناريو الحياة، وكلاً له مهمة ووظيفة يقوم بها.

هذا الحب يشعرك بالانسجام وبحالة من الرضا والقبول لكل ما يحدث لك، وبأن ما يخالج صدرك من غبطة روحية بفعل الحب يرسم معالم حياتك ويدبرها أفضل تدبير.. فحين تذوب الأحقاد والضغائن وتنصهر المشاحنات والصراعات من قلبك يحل محلها إكسير الحياة الذي يعد من أقوى الجسور للعالم الروحي.. فلا تدخل ملكوت الله قلوبٌ تلوثها الأحقاد لأن أحب الناس إلى الله أحبهم لعباده.

ولأهمية هذه الركيزة.. ركيزة الحب فقد جعلته العديد من الديانات المصدر الأول أو الإله وأطلقت عليه اسم المحبة.. أي أن الله هو المحبة لأنهم وجدوا فيها سر خلق العالم وسر بقائه.. لأنهم رأوا أن لا شيء يسبق المحبة وبالتالي جعلوها المصدر الأول في الخلق.. على الرغم أن هذا الرأي يجانبه الصواب سنتطرق لبحثه آنفاً، إلا أننا أوردنا هذه الفكرة لبيان أهمية الحب كقنطرة وجسر للعالم الروحي.

لذلك إذا شعرت بتدفق ومضات الحب في قلبك أثناء حياتك أو أثناء ممارستك لمفهوم العبادة الحقيقي فتقبلها ولا ترفضها، تقبل الشعور الذي سيطغى على كل شيء آخر، لا تجعل أحاديث التراث ورواة التاريخ عامل هدم لما تشعر به..

لا تجعل الممارسات المسيئة للبعض حاجزاً يمنع تدفق الحب في قلبك. فالشيطان بذل قصارى جهده من بداية الخلق في نشر العداوة والبغضاء والأحقاد والعصبيات بين البشر لسببين:

الأول: لأنه يعلم أن ما من شيء يثقل كاهل الإنسان ويعيق تحليقه في السماء وعروجه في مدارج الكمال كما تفعل الأحقاد والعداوات. فالحقد قيد يكبل الإنسان ويجمد العديد من القدرات الروحية.

الثاني: لأنه يعلم أن حياته تقوم على الطاقات المنبعثة من الأحقاد والكراهية فهو يتغذى على هذه الانبعاثات التي تصدر حال الحقد والغضب والعصبية.

فالحب ليس عاطفة إنسانية شعورية فقط، إنما هو أحد صور القهر الإلهي في الخلق غيبه عن خلقه لشدة ظهوره وتجليه في الموجودات، يظهر ويتجلى حين نزيل العوائق السلبية والأحقاد المتراكمة على القلوب. فالحب لا يحتاج إلى أسباب ومسببات لكي يظهر في حياتنا.. هو يحتاج فقط أن نفك أغلاله ونتجنب عوامل انكفائه وأن نتخلص من برمجة الأحقاد الشخصية والطائفية والمذهبية والحزبية والعنصرية والعرقية ومن براثن الأنانية والحسد والفوقية.. إن تخلصنا من هذا سيتجلى الحب تلقائياً في قلوبنا وسيلون حياتنا بأزهى الألوان.

الركيزة الثالثة: تناغم العالمين

حين نقترب (نعبد) وتتجلى معالم الحب في حياتنا، ستذوب الفواصل التي تحول بيننا وبين الحقيقة، سنقترب منها أكثر فنشهد جوهرها، فتتبدى وتظهر لنا الحقائق كما هي، لا كما تتوهمها عقولنا وأفكارنا.. وهو ما يعرف بومضات الإلهام التي توصلنا إلى المعرفة والحقيقة دون المرور بالوسائط والأسباب والمسببات.. نشعر بتناغم العالمين الروحي والمادي، فيكون لنا "قدم هنا وقدم هناك". وهذا التداخل يكشف لنا العديد من علل وغايات الأحداث التي تحدث في حياتنا سواء على الصعيد الخاص أو العام، نجد أن وراء كل حدث غاية أو علة ما. كما يكون بمقدورنا أن نحظى بإلهامات جميلة وإشارات متنوعة ترشدنا في مسيرتنا الحياتية..

حين نصل إلى هذه المرحلة نشعر أن حياتنا لم تعد كسابق عهدها، لقد بدأنا نأنس بالخلوة أكثر من وجودنا بين الناس، وبالهدوء أكثر من الضوضاء، وبالليل أكثر من النهار.. لم تعد

الأحاديث الجانبية الهامشية تشد انتباهنا ولا تأخذ حيزا من تفكيرنا. نبدأ نشعر بنبضات قلوبنا تدق كالساعة تسابق الزمن، فالزمن يبدأ يتقلص كل يوم، وكأننا نريد أن يمتد النهار والليل أضعاف ما هو عليه.

وتعتبر هذه المرحلة فارقة في حياة الإنسان، تبدأ فيها العديد من التساؤلات تظهر للسطح، بين ما دأب على عمله طوال سنين عمره وبين ما يشعر به الآن من فرز وتمحيص لهذه الأعمال، فيجد أن كثيراً من الأولويات لم تعد كذلك وفي المقابل هناك أمورٌ غفل عنها الكثير ينبغي أن تأخذ الأولوية.

لذلك يحدث فصل بين الحقائق التي بدأت تتجلى في مخيلته وبين الواقع الذي يعيشه. لذلك يعيش البعض في حيرة وتردد فما كان يطلبه ويتطلع إليه من أبعاد روحية بدأ يتلمس آثارها ولكنه يجهل كيفية التعامل معها، على الخصوص أنها مرحلة لا يمكن البوح بها، لأن ما يرد إليه لا يمكن وصفه من جانب وقلة من يدرك ويفهم هذه الواردات من جانب آخر.

لذا ينبغي أن تدرك أن "ما يرد إليك من الله وارد إلا لتكون إلى الله وارد" وإن اختلفت صوره وأشكاله ومسمياته والطريقة التي يلهمك بها هذا الوارد.. فقد تكون طرقاً حسية أو معنوية أو شعورية أو فكرية.. قد تكون مجرد أحاسيس أو أمور تراها وتلمسها، قد تكون بوسائط بشرية وأخرى من عوالم أخرى إلهامية.. قد تكون في اليقظة أو المنام أو أثناء التأمل والصلاة، أو أثناء انشغالك بأمر ما.

إذن..

حين تكون عبداً لله بوعي وإرادة حرة لا بالوراثة والتقليد.. تقترب منه ليكون المهيمن على حياتك شعورياً ووجدانياً وروحياً.. فإن هذا الاختيار وهذه العبادة الحقيقية ستوقد شعلة الحب

التكويني الذي شاء الله أن يكون أساس الخلق "أحببت أن أعرف.." والذي سوف ينعكس على المخلوقات والكائنات من حولك.. فتدفق الحب سيلامس كل شيء تنظر إليه أو تفكر فيه، فالقلب يصبح كالمشكاة التي يسطع من خلالها نور الله سبحانه وتعالى. وهذا الحب المتدفق هو الذي يعمل على تداخل العالم الروحي والمادي لصفاء مرآة القلب التي تبدأ في تلقي ومضات العالم الآخر. صحيح أنك تعيش في وسط مادي ولكن هذا الوسط تسري من خلاله ومضات وفيوضات روحية، فتعيش في الحياة ولكن جزء منك يلامس السماء..

ولكن ماذا بعد ذلك؟ هل ينتهي الأمر عند هذا الحد.. لقد تحققت الركائز الثلاث.. هل نكتفي بذلك؟ وهنا يأتي دور الركيزة الرابعة..

فالركيزة الرابعة: تتعلق بالدور

ماذا يريد الله منا بعد هذا كله؟ بعد أن مررنا بكل هذه المراحل؟

حين يصل الإنسان إلى مرحلة العبودية وما يتبعها من مراحل، يكون وجوده فاعلا محركاً في عالم الخلق، فيكون أداة لله في خلقه. وجوده بحد ذاته يعد منبعاً لتدفق الأنوار والخير والبركة سواء في صمته أو كلامه. ألا ترى أن هناك من الأشخاص من يملئ المكان بهجة وبركة حين يدخله أو يستقر فيه. فرب نظرة من أحدهم غيرت حياة إنسان راساً على عقب.

لذلك لو كشف الله عن عينك الغطاء لرأيت تدفق الأنوار من الذاكر والمصلي والمتهجد في محرابه أو مكان تأمله، وهذه الإشراقات لا تذهب سدى ولا تتلاشى بالأثير، بل تبقى مؤثرة بكل ما يحيطها.

لذلك هناك من يتساءل وماذا بعد ذلك؟ هو لا يعي دوره الروحي المؤثر.. فعبوديتك لله واقترابك من حضـرته بحد ذاته

عمل لا يقوم به إلا عبد مصطفى.. وهو عمل بحد ذاته.. روحانيتك ليست لك وحدك، فأنت تخدم العالم وتساعده بهذه العبودية والروحانية.. لأنك تجعل ذاتك - من خلال هذه العبودية - جسراً ومعبراً لتدفق أنوار الحق تبارك وتعالى للخلق والعالم..

حين تزيل عن قلبك أغلال الحق والكراهية أنت لا تصقل قلبك وتصفي نفسك فقط، أنت تخدم العالم أيضاً، لأن غياب الظلام في داخلك يخلق ممراً سالكاً لأنوار عالم النور أن تتخلل من خلالك وتتجلى في العالم.

من العبث أن نسأل عن دور الشمعة وقد أوقدناها لتضيء لنا الظلام.. فنقول وماذا بعد؟ ما الذي يمكن أن تفعله الشمعة؟

أن تكون روحانياً يعني أن تحقق إحدى مصاديق كلمة "الخليفة" أي أن تكون ممراً وجسراً غير مرئي تجد فيه الأنوار المباركة طريقها للعالم من خلالك. ومن هنا نعلم لماذا تؤكد كل الديانات السماوية والأرضية على ضرورة نقاء وصفاء الباطن من الكدورات والرواسب السلبية كي لا تحدث إعاقة لهذه الفيوضات والأنوار.

أن تكون روحانياً يعني أن تكون أداة ووسيلة تربط عالم السماء بالأرض. لذلك لا تخلو الأرض على مر العصور والدهور من هذه الوسيلة التي تصدرها الأنبياء والأولياء والحواريون والأصفياء والنجباء والاقطاب والأوتاد حتى انتهت إلى عباد الله الصالحين والمؤمنين. فالعبد الصالح ينهج ذات مسار الأنبياء والأولياء ولكن بنسبة أقل بكثير في تدفق الفيض وذلك على حسب قدرته الروحية ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا..﴾. فقلوب الأنبياء والأولياء أوعية بمقدورها تلقي المزيد مما لا طاقة لنا به ولكن تبقى الفكرة واحدة تتجلى بشكل نسبي.

ولعل سائل يسأل هل يحتاج المدد والفيض الإلهي إلى الإنسان كي تتدفق أنواره وفيوضاته ألا يمكن أن يحدث التدفق بشكل مباشر؟

تدفق الفيض الإلهي موجود وممتد منذ بداية الخليقة إلى نهايتها كما ذكرنا.. هذا الفيض يمد العالم بكل أنواع الطاقات والفيوضات اللازمة للبقاء. ولكن أكثر هذه الفيوضات قوة وأشدها تأثيراً تلك التي تأتي من خلال الإنسان ويكون الإنسان هو الأداة التي تمر من خلاله.. حين يخلو باطن الإنسان عما سوى المعبود يكون كالإناء الفارغ الذي بمجرد أن نقرع عليه يتضخم الصوت ويزداد صداه اتساعاً، أو كالآلات الوترية التي تخرج أنغاماً عالية.. وهذا يعكس لنا حقيقة ما يحمله الإنسان بداخله من قوة روحية بمقدورها أن تكون أداة أنوار للهداية والحب والسلام والروحانية في الأرض.

ركائز أربع تلخص سيناريو الحياة الكريمة، حملتها رسالات السماء للبشرية لبناء عالم مثالي متكامل.

عدم فهمنا وإدراكنا لهذه الركائز جعلنا نعيش في عالم كئيب مضطرب متوتر حزين، عالم نتساءل فيه عن الحق؟ وما الطريق السليم الذي نتبعه؟ ولماذا نتعرض لكل هذه الكوارث والمحن والفتن؟

لا تسأل عن بعد المسافة بينك وبين الله، أو عن طريق الوصول إليه، بل اسأل نفسك هل أنت مهيأ لدخول هذا العالم؟ هل أنت مستعد أن تعبد الله عبادة رغبة واختيار حقيقي؟ هل أنت مستعد أن تطهر قلبك من الأدناس وتفك قيده من الأغلال؟ هل أنت مستعد لتتخلى عن أنانيتك وتنفض عن نفسك ما يثقلها لتحلق في مملكة الله.. الله ليس ببعيد لتبحث عنه، هو أقرب إليك من حبل الوريد.. أنت بعيد عنه.. ولا هو

موجود في الكتب لتدرس عنه.. هو موجود في كل وقت وفي كل زمان.. أنت غير موجود، وكيف تكون موجوداً إذا كان فكرك مشوشاً، وقلبك مشغولاً، وجسدك مثقلاً، نفسك أمارة بالسوء..

ارتحالك لعالم النور لا يعني أن تطوي المسافات أو تقطع الفيافي، أو تختصر الأزمان، بل هو ارتحال روحي يحدث بلمح البصر، ارتحال فكري توجهه نحو أفكار العبودية الحق والحب الإلهي المتدفق وتناغم العالمين.. هو سفر من حال إلى حال.

الطريق إلى السعادة الروحية ليست بالأمر الصعب المستصعب إن كانت هناك إرادة حقيقية للإنسان.. هذا الطريق الكبير الواسع ضيقه البعض أشد تضييق، أغلقوا ابوابه وجعلوا مفاتيحه بأيديهم لأنهم أرادوا أن يرجع الناس إليهم لا إلى الله.. عقدوا سبل الوصول إلى الله وأعلموهم أن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، وأن الحياة دار بؤس وشقاء وعناء وحزن ونكد.. فإذا كانت الدنيا كذلك فما بال أولئك الذين يتنعمون برحيق النور كل يوم، الذين يعيشون بفرحة غامرة تلامس أرواحهم، وشعور بالأمان والسلام نتيجة الإحاطة الـربانية التي تحتويهم.

ولكن ما الذي يمنع استمرار طرقنا للباب؟

تماهينا مع الأنا وانشدادنا لأبعاد الحياة المادية هو ما يفصلنا عن جوهر الغبطة الإلهية وعن استمرارية الطرق..

وببساطة نقول أيضاً.. إن أي إنسان يريد أن يحظى أو يتميز بشيء ما ينبغي له أن يوجه كل طاقاته نحوه، فمن يريد أن يكون طبيباً متخصصاً حاذقاً ينبغي العمل بجد بحثاً ومراقبة وتفحصاً لكل جديد في مجال الطب، وكذا المستنبط الشـرعي لأحكام المسائل الشرعية ينبغي له أن يحصـر همه وجهده في دراسة وبحث كل الأحكام والآراء المتعلقة بموضوع الفقه.

وقس على ذلك جميع الأمور الأخرى، وهذا مبدأ عقلي لا يختلف عليه اثنان ولا ينكره إلا جاهل أو متعنت.

ولكن لماذا حين نأتي للبعد الروحي يهمل الكثير منا هذا المبدأ؟ فالبعض يريد أن يكون روحانياً، أو يفهم مبادئ هذا العلم، يكون له توق للبحث الروحي، ولكنه لا يبذل جهده بالقدر الكافي ليحقق غايته ومبتغاه..

لا يمكن للطبيب أو يكون طبيباً ما لم يقض من عمره سنينا طويلة يتعلم من خلالها كل مفردات الطب وآلياته المتفرقة والمتنوعة، لا يمكن أن ننتظر علوم الطب تنهل علينا من السماء، بل ينبغي دراستها وفق المناهج النظرية والعملية.. أليس كذلك!

وذات المبدأ ينطبق على العلوم الروحية والبحث الروحي.. فلهذه العلوم آلياتها ومبادئها وركائزها التي ينبغي تعلمها وفق مناهجها النظرية والعملية كذلك. فلماذا نستثني هذا البعد عن الأبعاد الأخرى؟.

إذا أردنا أن نتشرب بمعين الفيض الإلهي ينبغي أن نتوجه إليه بكليتنا.. أرواحنا وأنفسنا وذواتنا وحتى أجسادنا. ولا أعتقد أن أي إنسان جعل الله همه الأول في حياته لم يفتح له باباً من عنده أو يفيض عليه من حيث لا يحتسب أو يلهمه الحكمة وفصل الخطاب أو يهبه غبطة قلبيه تغنيه عن متع الدنيا كلها، فالله لا يخلف الميعاد.

مشكلتنا أننا نريد.. نرغب في شيء ولا نتعمق فيه ولا نجعله أكبر همنا ومبلغ علمنا، نريد أن يفتح الله لنا بابا من عنده دون أن نطرق الباب.. أو حتى نتواجد بالقرب منه، أو نطرقه حين نحتاج إلى عون ومدد وقضاء حاجة ما.

قد يجد البعض صعوبة في هذا الأمر، وهذا صحيح لا خلاف عليه، بسبب أننا تعودنا منذ سنين طويلة أن نعيش الحياة في

بعدها المادي فقط، حتى في ممارساتنا الدينية وطقوسنا العبادية أصبحت تأخذ أشكالا مادية حركية دون أن نتدبر حقيقة مغزاها أو نتفكر في معانيها الروحية. وعادة ما نصطدم بفكرة عدم السؤال عَنْ أَشْيَاء لأنها ﴿إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ..﴾ وبالتالي فلا أحد يسأل لماذا نجمع الجمرات في منى، ولماذا نطوف سبعاً، ولماذا نصلي بالليل والناس نيام، ولماذا نلبس الإحرام الأبيض في شعائر الحج.. لا تسأل.. فقط نفذ ما يطلب منك دون أية تفاصيل، فالهدف أن تؤدي ما عليك لا أن تتفكر فيما تعمل.

هذه الفكرة جردت كل طقوسنا العبادية من جوهرها الروحي، في حين يؤكد الحق أن وراء كل طقس عبادي فلسفة معنوية وفكرة تقرب الإنسان من ربه وتحبب له تلك العبادات والشعائر.

لقد طالت هذه النظرة أعظم كتاب سماوي حين نظرنا إليه بعين الحكواتي المتجسد المادي الذي ينظر للقرآن ككتاب تاريخي يهتم بتفاصيل الحدث ومكانه والمفاجآت الإعجازية الخارقة لقوانين الطبيعة. فيتساءل عن ماهية شجرة آدم هل هي شجرة تفاح أم عنب أم أزر؟، أين هو مكان جنة آدم؟، ما اسم الرجل الذي جاء من أقصى المدينة؟، ما جنس النملة التي تكلمت مع سليمان؟ ما حجم سفينة نوح والفترة التي استغرقها في صناعتها، وأنواع الحيوانات التي حملتها السفينة، ومكان قرية قوم لوط التي قلبها الله رأسا على عقب. في حين كان الهدف الحقيقي من القصص القرآني هو الموعظة والذكرى وتثبيت فؤاد النبي (ﷺ): ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاء الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءكَ فِي هَـذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وبالتالي بدل أن نؤسس منظومة أفكارنا على غايات ومقاصد ما جاء به الله سبحانه وتعالى، جاءت المدارس التفسيرية

والروائية لكي تعمق الانشغال في البحث عن تفاصيل المسكوت عنه في السرد القصصي القرآني وما يُعتقد أنه فات الوحي ذكره..

فالله أراد لنا أن نعرف المهم من القصص القرآني، ولذلك قص جزءاً من حكاية أخذت ردحا طويلا من الزمن واستمرت عشرات السنين كي يسلط الضوء على الجزء الذي ينبغي أن نأخذ منه العبرة لذلك قال في سورة يوسف: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ..﴾. وهذا ما ينبغي أن تكون عليه حياتنا.

فكثير ممن يطلب الروحانية غارق في المشتتات والتفاصيل، منشغل عن العبرة والموعظة والغاية الحقيقية، يبقى عالقاً في أوهام الأنا التي تنزح لتأصيل الحدث الزمكاني عن أخذ العبرة والموعظة منه وبالتالي ينطفئ الإلهام والحدس والبصيرة التي يفرق من خلالها بين الحق والباطل، الصالح والطالح، الجيد والرديء..

لذا حين نؤكد أن الخطوة الأولى للسير في عالم الروحانيات يبدأ من قدرتك على توجيه الهمة القلبية لهذا العالم والابتعاد عن التشتت الفكري، وطرد الأفكار الواردة الدخيلة من الخارج والتي تستهلك طاقتك وإمكانياتك وتلوث المساحة البيضاء التي وهبها الله لك في قلبك.. فإنه يصعب عليهم فهم واستيعاب ذلك!

يجد البعض متعة في الاستماع لمحاضرة روحية، ولكنه يبادر كذلك لحضور محاضرة فيها كماً كبيراً من الأفكار التي تناقض هذه الأبعاد، هذا التناقض في الاستماع يحدث خللاً معرفياً في طبقات الوعي الباطنية. نجد هناك من يقرأ كتاباً روحياً ولكن نجد سلوكه مغايراً لما في هذا الكتاب وكأن كلماته لم تمس شيئاً

فيه، هذا التناقض بين ما نعلم وبين ما نعمل يحدث مشكلة في التناغم الباطني، فمعرفة الحق دون العمل به من الممكن أن يغلق منافذ الوعي الباطني لاستقبال ما هو جديد، والسبب في هذا يكمن في جوهر الرغبة الكامنة في أعماقنا، هل مصدرها المحيط الذي نعيش فيه أم أنها تنبع حقيقة من الداخل.

بمعنى آخر.. هل رغبتنا في البحث والتنقيب والتفكر والتأمل لها دافع ومحفز باطني داخلي، أم أنها مجرد انعكاس لما يفعله غيرنا من الناس، فما دام أنهم يبحثون فأنا أبحث معهم؟ وما دام الآخرين يقرأون فأنا أقرأ مثلهم، وما داموا روحانيين فأنا كذلك أريد أن أصبح مثلهم؟ وهذا من أهم الأمور التي ينبغي أن نجيب عليها قبل دخولنا أي بُعد من أبعاد حياتنا.

إذن.. أن نوجه قلوبنا وأرواحنا لغاية واحدة تكون محور اهتمامنا، وأن نترفع عن المشتتات التي تأخذنا يمينا وشمالا. أن تكون منظومتنا الفكرية غير متناقضة وأفكارنا متوحدة مع مبادئنا الفطرية والعقلية، من أهم المبادئ في مسيرتنا الروحية.. وماذا بعد..

لقد عشنا سنين طويلة في أبعاد مادية محضة، الأمر الذي يجعل محاولة تغيير منظومتنا الفكرية ليس بالأمر اليسير، فلم نعود أنفسنا على التأمل والتفكر والتدبر والتمعن في كلمات الله وفي آياته وفي ملكوته وفي العالم الذي وعدنا أن ندخله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ إن قلوبنا مقفلة بأغلال الأفكار الهابطة التي ترد إليها، مقفلة بالأهواء التي تجذبنا هنا وهناك، مقفلة بتصفح التاريخ والماضي دون أن نعير لحياتنا وقربنا من الله أية أهمية، مقفلة حين نجعل بيوتنا وثروتنا ومقتنياتنا وأولادنا وأعمالنا وطعامنا أهم ما في حياتنا وننسى أنفسنا ونكون من الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

الهم الواحد

يعني أن نخوض غمار الشيء لا مجرد أن نعلم عنه، أن نعي حقيقة أننا أرواح تسير في مركبة الجسد وليس العكس، لذا لابد أن نراقب حركة الروح داخل هذه المركبة، وفي الوقت ذاته نراقب حركة الجسد. أن نعلم أننا أرواح كمعلومة لا تكفي، فملايين الناس يعرفون ذلك، ولكن لابد من مراقبة هذه الروح والوصول إليها عن طريق التواصل معها في الداخل. معظم حياتنا أمضيناها في الخارج وفي علاقتنا الخارجية، مع الزوجة، والأولاد، والآباء والمعلمين، والأصدقاء، في العمل في الصـراعات.. ولم نفكر يوماً في علاقتنا مع أرواحنا في الداخل، لم نفتح تلك الكنوز المخبأة في أعماقنا.

لا يكفي أن نعلم فقط.. بل لابد أن نمارس ونُفَعل هذا العلم حين نبدأ في التأمل.. وهذا لا يتطلب منك المستحيل، فقط عش حالة السلام في قلبك، اطرد كل الأفكار الواردة عليك حين تكون مستعداً، أغمض عينيك لمدة دقائق معدودة في الصباح والمساء. ستجد أنك قد بدأت في تغيير نمط الذبذبات لديك بحيث تكون مقاربة لذبذبات الروح الهادئة المطمئنة.

فنحن كلنا مدعوون.. الله يتحبب إلينا جميعا دون استثناء، لا توجد عند الله محاباة ومقاييس البشر الفئوية والطائفية والنخبوية.. ولكن إذا كنا لسنا بين المنتخبين فلأننا وضعنا ستار وحائل بيننا وبين كلام الله ولم نسلك طريقه كما جاء في الدعاء: "وإنك لا تحتجب عن خلقك إلا أن تحجبهم الأعمال دونك".

ولا ينبغي لنا أن نسير في الطريق الروحاني بعجلة رغبة منا في أن نقطع مسافات طويلة في وقت قصير، فإننا إن فعلنا ذلك

انقطعت أنفاسنا ومكثنا في مكاننا لا نتقدم، بل كثيراً ما نعود ونتراجع بنفس السرعة التي تقدمنا فيها.

إنما يجدر بنا أن نمضي في الطريق هادئين متزنين بلا اضطراب. مثبتين خطواتنا الواحدة تلو الأخرى غير ناظرين إلى الماضي الذي يشدنا إلى الأرض. وقد نخطئ كثيراً أثناء سيرنا ولكن يجب أن نتعلم من هذه الأخطاء وتكون لنا دروساً وعبر وأن نتقدم دائماً في طريقنا ولا نتوقف، فإننا إن توقفنا وفترت همتنا كان هذا مؤشر تراجعنا.

قد يبدو الطريق في أوله ضيقاً وعراً.. يجد البعض صعوبة في سيره وسلوكه، يخشى إن هو سار فيه فسوف يختنق. لذلك قد ينكص مرة أخرى إلى منهجه القديم الذي يبدوا له باسماً مرحباً مستعرضا له الأشياء الأخرى التي يفقدها إن هو سار في الطريق الضيق، ويزين له هذه الأشياء بثوب جميل، ترفيه، انشغالات عملية أكثر، علاقات متنوعة، انفتاح على عالم جديد يحمل بين طياته همسات السعادة.

ولكن قد يأتي عليه يوم من الأيام يكتشف فيه أن ملذاته هذه إنما هي تجارب مؤقتة زائلة، عندئذ يشعر في قرارة نفسه بشعور مبهم باحتياجه إلى فرح أبقى وبهجة أعمق، ويولد في قلبه إحساس بالخلود، وهذه هي لحظة انتصار القوى الروحانية الخيرة في داخله. عندئذ يسلم الإنسان قيادة نفسه لخالقه - الحقيقة الأزلية الباقية - للقبس الإلهي الذي ينير له حياته الجديدة التي تغير من مظاهر الأشياء كلها، فما كان يظنه من قبل سعادة حقيقية يبدو له الآن كئيباً غير مستساغ، ويشعر بالظمأ إلى البقاء وإلى الحق، ويتطلع أخيراً إلى مصيره الحقيقي متعجلاً الرجوع إلى الله الذي يفتح له أبواب الخير والرحمة.

قد يُخيل للإنسان أنه قد تحرر أخيراً من كل قيوده وأصبح حراً طليقاً، غير أن عليه أن يحسب حساب المفاجآت الخارجية

القادمة من أرواح الشر الموجودة بالأرض وبالمستويات السفلي، لأن أرواح الشر الشيطانية والإنسية يقض مضجعها أن يرتقي إنسان ما إلى ملكوت الله، فتحاول بشتى الوسائل أن تحول دون تقدمه، تستدرجه هذه القوى وتتلبس له بشتى الطرق موحية إليه أنها أمور صالحة أو طبيعية ولكنها لا تلبث أن تجذبه إلى محيط من الألم والشقاء. لذا لنكن حذرين، فالمؤمن كيس فطن حذر، في السابق كان المرشد الروحي يمثل حزام الأمان للمريد والطالب، يمنع عنه الأخطار بعد أن تستبان له بعين البصيرة، أما في زمن يقل أو يغيب فيه المرشدون فيتعين علينا أن نلجأ إلى الله بالدعاء والصلاة والتوسل حتى لا تحل الإيحاءات الشريرة محل أخطائنا السابقة التي تغلبنا عليها.

اليقظة وحقيقة التوحيد الروحي

قبل نزول أرواحنا للعالم الأرضي عهدت إلينا الملائكة والأرواح العليا بعدة مبادئ وأوصتنا بعدة وصايا مهمة، وكلفتنا باتباعها وعدم الزيغ أو التهاون عنها مهما كلف الأمر، نتطرق إلى وصيتين من هذه الوصايا المهمة، قالوا لنا:

1- يجب أن نعي أن الله هو القوة المطلقة في الوجود وكل ما عداه مجرد وسائط وأوهام، وأن لا سعادة لكم على الأرض ما لم ترتبطوا بهذه القوة وتستمدوا منها المدد.. إياكم أن تنسوا ذلك..

2- إنكم سوف ترتحلون لعالم أرضي مؤقت ليس بدائم، وسوف تعودون إلينا بعد أجل معلوم محدد، فاحذروا أن تتعاملوا مع الحياة كدار للإقامة والبقاء الدائم.. كونوا على استعداد دائم للرحيل.

وحين ولدتنا أمهاتنا حُجبت عنا هذه الوصايا، وبدأنا نتلقى تعاليمنا من الوالدين والأقربين والأصدقاء ووسائل التربية والتعليم.. فتمت صياغة شخصيتنا وفق الرؤية البشرية وليس وفق وصايا الرؤية الربانية.

ولكي يعيد الخالق الإنسان ويذكره بتلك الوصايا المهمة أرسل له الأنبياء والرسل ليثيروا فيه دفائن عقله وليتذكر ما نسيه ولم يجد له عزماً.

وحتى يذكرنا هؤلاء الأنبياء بالمبدأين جاؤوا بمفهوم (التوحيد) لنتذكر الفكرة الأولى.. وبمفهوم (الموت) لنتذكر الفكرة الثانية..

أما الفكرة الأولى:

فحقيقة التوحيد لا تعني الاعتقاد بوحدانية الله والتسليم أن لا شريك له في الخلق من الناحية النظرية فقط، ولكنها تعني إرجاع كل حركة وكل فعل لقوة مهيمنة واحدة تسيرّ كل شيء في هذا الكون.

يعتقد البعض بهذا الأمر نظرياً.. ولكنه حين يتماها مع الحياة ومجرياتها وينشغل بأحداثها تتخلله الغفلة فينسى إرجاع التدبير للمدبر، وتبدأ لمحات الأنانية والذاتية تطفو وتظهر على السطح شيئاً فشيئاً، حتى تغيب عنه الحقيقة وينسى القوة المدبرة والفاعلة في الكون، حتى يصل إلى مرحلة تكون ثقته بنفسه أو بالآخرين أوثق من ثقته بالله.. يعتقد أن تدبيره لنفسه أتقن وأظهر من تدبير الله له..

هو يعلم أنه لا يستطيع أن يتنفس أو يخطو خطوة واحدة أو يقوم بأية حركة بمعزل عن مدد وقوة الله المباشرة الكامنة في دماغه وقلبه وخلايا جسده.. ولكن حين يفكر ويخطط ويحدد أهدافه العملية في الحياة فإنه يفصل نفسه عن تلك القوة ويركن إلى نفسه وذاته الدنيا. أي أنه يتصرف كما لو أن اعتقاده بقوة الله وتدبيره يتعلق فقط في أمور الخلق وتصريف عجلة الحياة الطبيعية والكونية ولا علاقة له بحركته الفردية والفكرية والعملية والعقلية. الله لا يمنع الإنسان من تدبير شئون حياته كما يريد، ولكن في الوقت نفسه لا ينبغي أن يطالبه بحياة طيبة وسعيدة ما لم يشاركه في مجمل قراراته المهمة والمصيرية. أي أن تكون مشيئته متداخله مع مشيئة الله في مستوى واحد.

التوحيد وفق النظرة الروحية أن نشارك الله في مجمل قراراتنا المصيرية، وأن نرجع إليه ليس في أوقات الشدائد والمحن والكروب فحسب، إنما نعيش في كنفه على الدوام.

الإيمان بوجود خالق للكون أمر مفروغ منه منذ أكثر من 4 آلاف عام وأكدته فلاسفة اليونان والإغريق قبل ما يقارب من ألفين وأربعمائة عام.. وفكرة التوحيد كذلك أمر مفروغ منه أكدته الفلسفات القديمة قبل الديانات الإبراهيمية السماوية بردح من الزمن.. إذن ما المشكلة التي من أجلها أرسل الله الرسل والأنبياء للناس؟

أرسلهم لإثارة دفائن العقول للتصديق على ميثاق التوحيد الروحي الذي يجعل الله محيطاً ومدبراً وراعياً لحياتهم العملية يعيشون في كنفه ويشاركونه مجمل قراراتهم وتصوراتهم، يستحضرون وجوده ويتوجون وعيهم بإلهاماته النيرة ويمتعون أرواحهم بعظيم عطاياه ومننه وهباته.

ولكن مع الأسف الشديد فهم المسلمون التوحيد كمعتقد وكفكرة كانت عائمة في الوعي البشري منذ الخليقة، والغريب أن كثيراً من المسلمين لا يعلمون أن فكرة التوحيد كانت منتشرة ومعروفة وليست بجديدة على الفكر المثالي والأبحاث اللاهوتية القديمة. الجديد هو التوحيد الروحي الذي لم يأخذوه في الحسبان ولم يضعوه في الاعتبار وتجاهلوه صفحاً كما لو أنه لم يُذكر في القرآن ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ﴾.

لذلك قلة قليلة وندرة يسيرة هم الذين آمنوا بالتوحيد الروحي الحق، وجدوا أنفسهم في خضم بحر متلاطم من الآراء والتصورات والمشاحنات والتجاذبات والخيالات والسطوات وتحجيم المعتقدات، فوقفوا مذهولين وانزووا مدهوشين وتساءلوا مستغربين عن حقيقة جوهر التوحيد الذي آمنوا به عن يقين وبين ما يرونه من بعد وابتعاد وتخبط وانفلات لدى المسلمين.

الاعتقاد الفكري الصوري للتوحيد يجعل منك مسلماً، ولكنه لا يجعل منك مؤمناً، لأن الإيمان تذوق للحالة الشعورية التي يكون التوحيد الروحي أهم أسسها وركائزها.

حين تتحكم "الأنا" وتمسك بزمام الأمور متفردة في تدبير شئون الحياة، ينفصل الإنسان عن القوة العليا المهيمنة ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، أي أنه ينزح إلى قدراته الذاتية أو الطبيعية ويتخيل أنها هي السبب في نجاحه وسعادته في تفوقه ونمائه.

قد لا يرى البعض هذه الصفة في نفسه، ولا يجد أنه يفكر بهذه الطريقة. ولكن لو أمعن النظر قليلاً في حياته فسوف يلحظ أن كثيراً من تصرفاته يرجعها إلى قدراته الذاتية.

قد لا تتضح هذه الفكرة حين نكون في حالاتنا العادية الطبيعية، ولكن بمجرد أن نحرز أي تقدم في حياتنا تبدأ الأنا في مشاركة هذا الانجاز في مقابل التوجه للقوة الإلهية.

التوحيد.. أن تعتقد بيقين – من الجانب الفكري - وتعتمد بشكل مباشر - من الجانب العملي - على قوة الله كقوة مطلقة وحيدة تتجلى في كل ذرات هذا الوجود، وأن تشارك هذه القوة في كل مجريات ومناحي حياتك، فحين تستيقظ صباحاً تذكر الله الذي أحياك لتعيش يوماً جديداً.. حين تقوم تذكر الله الذي أعطاك القدرة على النهوض.. حين ترى الماء عذباً زلالاً وأنت تغسل وجهك تذكر الله.. حين تأكل، تشعر بأنفاسك، تراقب نبضات قلبك.. حين تشعر بالبهجة والسعادة تذكر الله.. حين تحقق السعادة لنفسك تذكر الله.. حين تتطور روحياً وتتألق نفسياً تذكر القوة الدافعة التي دفعتك لهذا السمو والتطور.. حين يبتسم لك طفل اعلم أن هذه الابتسامة هدية وهبة الخالق لك الآن.. حين تسكن وتهدأ اعلم أنه بانتظارك.. فما كان يمنحك الخلوة مع نفسك إلا لأنه يريد الاختلاء بك..

حين نربط كل حركاتنا وسكناتنا بالله.. حين نمنح تفكيرنا مساحة صغيرة نغرس فيها بذور الشوق إليه.. فإن حياتنا سوف تتغير بشكل لم يكن بالحسبان.

لم يكن جبريل من أنقذ الخليل إبراهيم من نار النمرود.. ولم يكن الماء هو من أغرق فرعون في اليم.. ولم تكن الملائكة هي من جعلت عاليها سافلها على قوم لوط.. ولم يكن حلم الملك هو من جعل يوسف الصديق ملكاً على خزائن الأرض.. لقد كان الله خلف كل هذه الأحداث..

التوحيد الحقيقي أن تكون كالسفينة التي توجه أشرعتها نسمات القوى الإلهية العليا.. قوى تتحكم في كل شيء.. وإذا سرت بركابها ستهبك كل شيء.. وتمنحك كل شيء..

إن أردت حياة طيبة.. تنكشف لك فيها أسرار كل شيء، وتحظى بيقين لا يشوبه شك، وبسعادة لا يخالطها حزن وغم، وبنفحات إلهية لا تقطعها منغصات الدهر، وببهجة سماوية لا يعكرها وهم المتغيرات والتقلبات.. فعليك أن تكون تلك السفينة التي تجري في محيط الحياة وفق أشرعة الإرادة الإلهية ونسمات الحب السماوي..

الإنسان يعلم أنه كائن غير منفصل عن الطبيعة وعن الأحداث من حوله، فخبرته المعيشية والحياتية جعلته يُدرك عن كثب هذا الاتصال منذ أن كان طفلاً يعتمد على أبويه في مأكله ومشربه وملبسه وشئون حياته.. وسبب هذا الإدراك أن اتصاله بالمحيط يتم بشكل مادي يراه ويلمسه ويتعامل معه سلوكياً وعقلياً. الله يريد للإنسان ألا يكتفي بهذه المعرفة البدئية الأولية لأنها المعرفة الأدنى، يريد أن يثير في باطنه ووجدانه اتصالاً من نوع آخر، يريده أن يعي كما أنه غير منفصل عن الطبيعية من حوله فهو كذلك غير منفصل عن القوة الروحية والغيبية وعن القوة

المطلقة في الكون وعن الخالق المتجلي بخلقه في كل شيء، وهذا هو المعنى الحقيقي للتوحيد.

فلا يكفي أن نعتقد أنه واحد لا شريك له، ومالك لا ند له، وغيرها من صفات كثيرة زخرت بها كتب علوم الكلام والفلسفة وغيرها من النظريات الجامدة التي حددت علاقة الخالق بالمخلوق في إطار نظري معرفي فكري فحسب..

حقيقة التوحيد تنبع من القلب الذي يرى القوة العليا تشاركه في كل حركاته وهمساته ولحظاته وتصرفاته في الحياة، قلب يشعر بمدد لا يتوقف، وبمحاكاة متواصلة مع عالم الغيب، وبوهله وشوق لخوض غمار هذا العالم وعدم الاكتفاء بالمستوى الأدنى.

أما الفكرة الثانية

الذي تم التأكيد عليه من قبل الملائكة والأرواح العليا قبل نزولنا إلى الأرض هو فيما يتعلق بوجودنا واختبارنا التجربة الأرضية.. حيث قالوا لنا: "إنكم سوف ترتحلون لعالم أرضي مؤقت ليس بدائم، وسوف تعودون إلينا بعد أجل معلوم محدد.. فاحذروا أن تتعاملوا مع الحياة كدار للإقامة والبقاء الدائم". بمعنى أن نكون ضيوفاً في الأرض ولسنا مالكين، زائرين ولسنا مستقرين.

لم تكن علة تسمية العالم الأرضي "الدنيا" تصغيراً لقدرها أو امتهاناً لمكانتها ومقامها.. ولكن نتيجة لمقارنتها بالمستويات الأخرى الأعلى في الوجود، فالبعد المادي هو الأدنى من حيث التموج والذبذبة من كل الأبعاد والمستويات الأخرى.. فهي مرحلة من مراحل الخلق، أشبه بمرحلة عبور قد يطول فيها مقامنا أو يقصر، ولكننا في النهاية مرتحلون عنها لا محال.

وكل ما جاء في الأحاديث الشـريفة عن ذم الدنيا فهي أحاديث تتكلم عن القدح في التعلق بها والتمسك بأثقالها المادية والتماهي مع أحداثها وجعلها دار قرار واستقرار أبدي.

يعيش البعض في وهم أننا أجساد منحها الله أرواحاً لتعيش في الدنيا وتختبر من خلالها تصـرفاتها إن كانت صالحة أو طالحة. في حين أن الله يؤكد لنا أننا أرواح نزلنا في تجسد أرضي مؤقت وسنعود إليه مرة أخرى ﴿هَلْ أَتَىَ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُورا﴾..

فنحن في حقيقتنا أرواح في تجربة بشـرية، ولسنا أجساد في تجربة روحية.. وحين ترتحل النفوس من عالم الدنيا بعد الموت فهي في الحقيقة ترجع إلى موطنها الأصلي الذي جاءت منه ﴿ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ فمن غير المعقول أننا نرجع لمكان لم نكن متواجدين فيه من قبل.

ولأهمية هذه المرحلة فقد زودنا الله بـ "جوهر" يساعدنا على تذكر رسالتنا في الحياة، وهو العقل الروحي أو اللب الذي أشرنا إليه سابقاً.

فحين نعيش الحياة، ومع مرور الأيام ونتيجة لسلوكياتنا غير السوية تبدأ ذرات الظلام الكدرة تتراكم في النفس - في المستوى القريب من مادية الجسد - وتبدأ هذه الذرات بالتوالد التلقائي يوماً بعد يوم كالفطريات التي تنمو على أرض رطبة مما تشكل حاجزاً وحجاباً يفصلنا عن ذاتنا الحقيقية.

حين يعمل سراج العقل فإنه يقوم بإضاءة هذه المنطقة المظلمة التي شيدتها النفس في حياتها، منطقة الوهم، مما يُعيد الإنسان إلى ذاته الأصلية.. ويُفعل الرابطة بين العالم المادي والروحي من جديد.

تفعيل دور العقل الروحي (اللب) والذي هو من سجايا الروح سوف يقضي على جميع التعلقات النفسانية القابعة في اللاوعي، يقضـي على منطقة الوهم والظلام.. ويجعلنا نتواصل مع قوة الله العظمى في الوجود.

ضيافة مؤقتة

ولكن كيف نحقق مفهوم الضيافة الأرضية؟ فكثيراً ما نسمع عن كوننا ضيوفاً في مملكة الله، نأكل ونشرب ونرتاح ونتزاوج ونمرح ونفرح، ولكن دعونا نتأمل قليلاً في كلمة الضيف والمضيف. فالضيافة تستلزم رعاية المضيف (الداعي) وشروط الضيف (المدعو).

كما أن الضيافة ليست سرمدية لا تستمر أبد الآبدين بل هي فترة محدودة بزمان ومكان معينين، وبما أنها فترة محدودة فلابد أن يكون لها هدف ما وغاية واضحة، فقد يدعوك صديق لوليمة نجاحه أو بمناسبة عودته من السفر أو لزواجه أو لقبوله في العمل أو لتخرجه أو لشراء بيت جديد أو حين يرزقه الله بمولود.. وعلى أقل تقدير هو يدعوك ليراك ويأنس بحديثك معه.. فإذا كان للضيافة هدف فما هدف ضيافتنا في هذه الحياة..

أغلبنا يعيش حياته دون أن يعرف هذا الهدف، ومن اجتهد قليلاً قد يقول: إن هدفه الاختبار والابتلاء والعبادة.. وهذه بالتأكيد ليست أهدافاً وإنما وسائل لهدف مغيب عنا جميعاً.. لا يمكن أن يستضيفك شخص ما ليختبرك أو ليعطيك مراسيم وطقوس يقيدك بها ويلزمك بتنفيذها ما لم يكن هناك هدف أو غاية من ورائها.

آداب الضيف

ولكي نعرف هذا الهدف لابد أن نعرف آداب الضيف.

الضيف لا يأخذ شيئاً من دار المضيف، هل سمعت عن ضيف أخذ مزهرية أو كرسي أو تلفاز أو لوحة معلقة عند خروجه من الدار، وكذلك نحن حين نحل ضيوفاً في مملكة الله لا يحق لنا أن نأخذ شيئا لأنفسنا مما قل منه أو كثر، فنخرج كما دخلنا لا نملك شيئاً.. فإن كنا نعتقد بأننا سوف لن نأخذ أي غرض مادي للحياة الأخرى، فلماذا إذن التعلق بالماديات والكراسي والوجاهة والأرصدة والأنا والتكبر والتكابر، فما نحصده سيبقى هنا على الأرض في ذات المملكة لأننا لا نكسب شيئاً من خارج الأرض، كل ما كسبناه من الداخل، وكأنك تحرك كرسياً من مكان إلى آخر.

إن تحريك الكرسي من مكانه لا يعطيك الحق بأن تأخذه من بيت المضيف، وكذلك ما نجمعه ونكدسه ونحارب الآخرين ونشعل الفتن ونؤجج الحروب ونقتل وننافق لأجله سوف لن نأخذ منه شيئاً، بل نتركه على الأرض.

من آداب الضيافة كذلك أن تحترم الضيوف الآخرين، فلا تحتقرهم ولا تستصغرهم ولا تهزأ بهم ولا تقلل من أهميتهم أو تزدريهم، وإن اختلفوا معك في التوجهات والأفكار والمذاهب، فرب داع له من الأصدقاء المسلمين وغير المسلمين، منهم المسيحي والهندوسي والبوذي ومن ملل أخرى، واجبك كضيف أن تحترم هذه الملل والتوجهات ولا تفرض رأيك أو فكرك أو شريعتك عليهم، فكلهم ضيوف مثلك يُستضافون لوقت معلوم ثم يرحلون كما ترحل أنت.

المضيف يأنس ويفرح حين يرى ضيفه فرحاً مبتهجاً منشرحاً قانعاً راضياً بكرم الضيافة، تعلو الابتسامة على وجهه لما يرى من مباهج تسره ومفاجآت تدهشه في كل لحظات وجوده.

أن ينسجم الضيف مع ما يقدمه المضيف ويترك شوشرة همومه في الخارج ويتفرغ ليسمع سبب هذه الدعوة أو يتأمل في أعماق نفسه، لماذا يا ترى تمت دعوتنا هنا في هذا الوقت، هو الفرح الأعظم للداعي والمضيف، لأنك بذلك توقره وتجله وتهتم لدعوته وتمتن في شكره.

لنتأمل قليلاً هذه الآداب ونحن من يعتقد أننا ضيوف في أكرم مملكة في الوجود.. مملكة الله. هل قمنا بحقها وتصرفنا فيها كضيوف؟ هل احترمنا الضيوف الآخرين؟ هل تيقنا أننا لا نأخذ شيئاَ من دار الضيافة؟ هل نفرح ونُسر بما نراه كل يوم من كرم وعطاء وسخاء؟ هل شعرنا بالغبطة والابتهاج في حياتنا لأننا في مملكة الله؟ هل أنصتنا ولو لبرهة.. هل تفكرنا ولو للحظة، في هدف الداعي لهذه الضيافة؟ هل شعرنا بالارتياح والأمان والراحة لأننا في رعاية المضيف، أم تغلبت علينا أعاصير التوتر والخوف والكآبة والحزن لأننا تعلقت بأمور لا يحق لنا أخذها من داره؟.

من يعتقد أنه ضيفٌ ويؤدي آداب الضيافة ويستشعرها سيأتيه الجواب عاجلاً أم آجلا عن سبب دعوته، لأنه سيصمت وينصت وحينها سيسمع همساً يناديه أو يرى قبساً يجاريه مشيراً إليه ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى، وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾. ما من أحد على وجه الأرض إلا وتمت دعوته ولكن كم منا تأدب ووقر وشكر واستمع لكلمة المضيف.

ينبغي أن نرجع إلى ذواتنا من جديد ونتذكر تلك الوصايا الخالدة التي غرستها بنا الملائكة قبل تجسدنا المادي. فمع كثرة المشتتات والتقلبات وتفاقهم وهج الأحداث من حولنا أصبح لزاما

علينا أن نعيد صياغة أنفسنا وتذكر تلك الوصايا أكثر من ذي قبل، نتذكر ما ينبغي أن نرتبط به ونجعله مطلوبنا وغايتنا الأولى في الحياة، وأن نفهم معنى الحياة الطيبة بمنظورها الإلهي لا بمفهومها البشري.

الحب والمحبة

الجذور.. الأصول.. والأساس التكويني

سوف نتطرق - بشيء من التفصيل - لأحد أهم المفاهيم الجوهرية والعميقة في الأبعاد الروحية والذي يعتبر الركيزة الأولية والأساسية لكل يقظة وتواصل روحي بين العوالم، أو بين الخالق والمخلوق، أو بين المخلوقات وعالم الوجود والطبيعة بشكل عام. سنتكلم بإذن الله عن موضوع الحب الإلهي والحب الروحي بجذوره التكوينية والكونية.

مفهوم الحب.. أو كلمة الحب أصبحت من الكلمات التي تطرق سمعنا ونقرؤها كثيراً في الآونة الأخيرة، سواء في الكتب أو المحاضرات أو الدورات والأمسيات، أو في البوستات التي تمر علينا عبر وسائل التواصل الاجتماعي.. ولكن بالرغم من ذلك لا يعلم السواد الأعظم البعد التكويني لحقيقة الحب، فنحن نعرّفه بالعاطفة أو الشعور المنبعث تجاه شيء ما، أو شدة التماهي والاندماج معه والذي يتجلى في حب الإنسان لخالقه أو حب الأب لولده أو حب المرأة لزوجها، ولكن ما حقيقة هذا الانبعاث العاطفي؟ ما أصوله؟ من أين جاء؟ لا نعلم.

إضافة إلى أن كثيراً مما نسمعه عن الحب إنما هو ترديد وإعادة تدوير لما يقوله أو يكتبه آخرون.. فهناك من يعيش حالة الحب بكل عنفوانها ومشاعرها وانفعالاتها وإثارتها الوجدانية، فيكتب عن تجربته الشخصية وينقلها للآخرين علهم يدركون

أن ثمة شيء عميق مبهج لا يمكن وصفه، وانجذاب روحي لا يمكن الإفلات منه، وشعور بالاستحواذ لكل الملكات الباطنية ينتاب المحب ساعة يشعر بالحب، فيحاول بقدر ما يسعفه خياله أن يعبر عن شطحات ذلك الشعور. هو لا يريد الإعلان عن نفسه أو يُشهر بخلجاته، ولكنه يأمل أن يختبر الآخرين هذا الشعور المبهج العظيم، يريدهم أن يختبروا مشاعر الحب الحقيقي وليس العقدي أو الاعتقادي أو التقليدي أو النقلي والتراثي، يريدهم أن يغوصوا في بحار الحب لا أن يقفوا على شاطئه، أن يبتلوا بمائه وينهلوا من فيض حنانه ﴿وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا..﴾.

تجارب المحبين التي نُقلت لنا على مر التاريخ لم تكن لأجل المعرفة النظرية، أو لتدوين أسمائهم في كتب التراث إنما ذكروها ونقلوا إرهاصات آلام اشتياقهم وصبابتهم ولوعتهم لنا علنا نوعز لأنفسنا في يوم من الأيام أن نختبر المعنى الحقيقي للحب.. أن نختبر شيئاً من تجربتهم الشخصية، فما نشعر به لا يقارن برياض ما كانوا يتنعمون به من تجلي سناء بهاء المحبة التي امتزجت بأرواحهم.

يُخيل للبعض أنه وصل إلى مرافئ الحب، وقد يوهم نفسه أنه من المحبين أو العاشقين. ولكن حين يقرأ سيرة سلاطين الحب ويكتشف جانباً من معاناتهم ومكابدتهم وألم فقدهم وفراقهم حين يغيبون عن محبوبهم لبعض الوقت، سيدرك أنه لم ينل نصيباً مما نالوا، فأقدامه بالكاد وطأت ساحله، وابتلت من رذاذه المتطاير من بحر الأزل.. بحر المحبة.

فسلطان الحب حين يشرق في قلوبهم يطمس نوره سائر الأنوار الأخرى، ويجردهم من كل شيء دونه، فيوكلون حياتهم

إليه، ويهبون إرادتهم له، فيوجه سفن حياتهم بنسمات نفحاته لترسو على ضفاف مملكة مشيئته.

لذلك فإن كثيراً ممن يتغنون بالحب ويتحدثون عنه - سواء في الدورات أو المنتديات أو الأمسيات - ينقلون ويرددون ويعيدون تدوير سيرة هؤلاء دون أن يلامس الحب الحقيقي أرواحهم أو يستعر وهجه في قلوبهم.. فهم أدوات ناقلة ليست بمتفحصه أو مختبرة لأبعاده الروحية غافلين عما يمكن أن تفعله كلمة مجردة من حرفين جمعت بأعماقها فلسفة كل الوجود كما سوف نبين بإذن الله تعالى. لذلك قيل: "إن الرجل اللئيم يسـرق لغة العارفين ليتلو على البسطاء أسطورة يخدعهم بها".

حين ينقل لنا التاريخ عن شخصية عظيمة يجافي جنبه في السحر فيقوم الليل حتى تتورم قدماه شوقاً للقاء محبوبه وليكون من الشاكرين.

وآخر يتلمس حيطان داره مردداً: "يا من يرى ما في الضمير ويسمعُ أنت المُعـدُّ لكلّ ما يتوقَّعُ، ما لي سوى قَرعي لبابك حيلةٌ فَلَئِن رُدِدْتُ فأيَّ بابٍ أقرعُ..".

وآخر يقول: "تركت الخلق طراً في هواك، وأيتمت العيال لكي أراك، فلو قطعتني في الحب إرباً، لما مال الفؤاد إلى سواك"..

وآخر يقول: "عذب بما شئت غير البعد عنك تجد أوفى محب لما يرضيك مبتهج"..

وغيره يقول: "لا تكن بلا حب كي لا تشعر بأنك ميت، مت في الحب وأبق حياً للأبد..".

وآخر يردد: "ما لي بغيرك أُنس من حيث خوفي وأمني، يا من رياضُ معانيه قد حويت كل فَني، وإن تمنيت شيئا فأنت كل التمني"..

هذا السفر الروحي العميق الذي خاضه سلاطين الحب كتجربة حقيقية حية قائمة على مفهوم الحب الإلهي والتوجه القلبي تعد انموذجاً نحتذي به في إثبات وجودنا الفعلي في الحياة.. فوجودنا الصوري يثبت بالحياة، أما وجودنا الفعلي والحقيقي فيثبت بالمحبة كنقطة ابتداء ونقطة انتهاء، فبداية الوجود من الحب وانتهاؤه بالمحبة.. تكمن البداية في "أحببت أن أعرف" والنهاية في "يحبهم ويحبونه" ومن يحبه الله يتحول إلى محبة خالصة.

ولكن مع الأسف الشديد أصاب هذا المفهوم والمفردة الروحية العميقة ما أصاب المفردات والوصايا الدينية الكثيرة الأخرى التي أوصانا بها الخالق، والتي نقوم بنقلها للآخرين دون أن نحقق معانيها في تجربتنا الروحية الخاصة. نحن نوصي الناس بقيام الليل أو التأمل لأن هذا القيام يخلق في الإنسان نوراً باطنيا ويكسبه جلالاً وبصيرة وإيماناً وفهماً وشرفاً وكرامةً.. وغيرها من أمور كثيرة. ولكننا لا نتحقق من هذه الأمور عملياً ونعيشها روحياً وإنما ننقلها فقط للآخرين.. ننقلها وكأن المقصود بها غيرنا. ننصح بها غيرنا وكأننا وسيلة أو آلة نسخ لا أكثر.. في حين أن الله يريدك أنت بذاتك أن تستشعر وتعيش هذه الحالة الوجدانية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لاَ يَضُـرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ عليكم أنفسكم.. وبالتالي ينبغي أن نتحقق ونختبر عمق عقائدنا وشعائرنا بآفاق روحية وبصائر قرآنية ولا ينبغي أن تبقى مجرد معارف جامدة نؤديها لإسقاط التكليف الشـرعي فقط. أو نقوم بها بشكل آلي "مجرد حركات" وبالتالي لا نصل إلى النتائج المرجوة التي وعدنا الله بها..

الله لا ينظر إلى حركاتنا في الصلاة، هو يتلقى ذلك الشعور والإحساس الذي ينبعث منا أثناء أدائها حين نتوجه إليه بقلوبنا.

هذا الوهج المنبعث منا أثناء الصلاة هو الذي يضيء شمعة التواصل بيننا وبينه ويمنحنا البصيرة والفهم والنور الباطني..

ليست الصلاة كطقس حركي بمقدورها أن تفعل ذلك، وإنما أنت من يخلق حالة التواصل التي تؤتي ثمارها والتي ذكرتها متون الأحاديث بل وأكثر من ذلك. ينبغي ألا يكون همك ما جاء في هذه الأحاديث من معطيات وهبات بقدر ما تكون غايتك القرب من الذات العلية، من الله سبحانه وتعالى.

وبالتالي فالحب كغيره من المفاهيم التي اقتطعت من أصولها الروحية، تتداول الآن كمسميات وكأفكار دون معرفة الأساس أو المنبع الذي انبثقت منه، لأن معرفتنا بأصول الأشياء هو ما يؤدي إلى وعيها وعياً سليما ناضجاً واستيعابها بشكل كامل.

في الأبعاد الدينية أو العقائدية عادة ما نسمع أن الله هو أصل المحبة والحب، وأن علاقة الإنسان بربه ينبغي أن تحكمها علاقة الحب، كما جاء في الحديث: "الحب أفضل من الخوف".. أو كما جاء في صحائف إدريس (ع): "طوبى لقوم عبدوني حباً، واتخذوني إلها ورباً، من غير رهبة ولا رغبة، ولا لنار ولا جنة، بل للمحبة الصحيحة، والإرادة الصريحة، والانقطاع عن الكل إليّ".. ولكننا لا نتلمس في الأعم الأغلب انعكاس هذا المبدأ في الخطاب الديني الذي يغلب عليه التهديد والوعيد والتخويف من جانب، ومن جانب آخر نجد أن هناك العديد من الأفكار والمفاهيم التي نجدها في متون الكتب تتعارض وفكرة أن الله هو المحبة. لذلك نجد بعض الدعاة يطرح مفهوم الحب على استحياء ومضض، لأنه يحمل في أعماقه برمجة مغايرة له - للحب - مدعمة بالأدلة والبراهين التي صيغت - في فترة من الزمن - على الحقد والكراهية والخلاف - عادة ما تكون هي الأقوى في الخطاب الديني والتي تؤجج مشاعر العداء والكراهية وتثير

العصبيات والأحقاد تجاه الآخرين لأهداف مصلحية تارة، أو نتيجة للجهل المركب تارة أخرى.

لذلك فما ينطقون به علناً بأفواههم مغايراً لسلوكياتهم الخارجية مناقضاً لما يعتقدون في قلوبهم. وهذا التناقض - بين الوعي والسلوك والمعتقد - من أخطر وأسوأ أنواع صياغة وتشكيل الشخصية الإنسانية.

لذلك فإن أكبر خلل منهجي منيت به المؤسسة الدينية القديمة والحديثة على اختلاف مسمياتها ومعتقداتها منذ أكثر من ألف عام، أنها أرادت أن تعرف الغايات والعلل الإلهية في مشروع الخلافة الأرضية من خلال عقول بشرية محدودة ومقيدة، وأوكلت لأناس مهمة فهم هذا المشروع الإلهي وأن يكونوا وسطاء وتراجمة يعبرون عن وصايا وإرشاد الله للناس. أي يكونوا حلقة وصل بين الخالق والمخلوق.. يفهمون من الله ما يريد ثم ينقلون ما فهموه للناس. ومن هنا حدث الاختلاف الكبير الذي وصل في كثير من الأحيان حد التناقض والتضاد، بين النصوص المقدسة والحكمة الإلهية وما يريده الله من البشرية، وبين ما يُنقل إلينا عن طريق هؤلاء الوسطاء أو ممن نصبوا أنفسهم موقعين عن الله.

لذلك كلما بعدت الشقة عن مصدر الرسالة والوحي كلما اسُتبدلت المفاهيم والرؤى التصورات الإلهية بأخرى تخضع لأمزجة وآراء وتقلبات الأهواء الشخصية التي تقوم باستنباط ما يناسب تفكيرها وغاياتها المصلحية.

فالقتل بدعوى الهرطقة والزندقة كان من أقوى الأسلحة لقمع المخالفين إبان الحروب الصليبية تم تشريعه باسم المسيح وباسم الدين.

الأحقاد بين المذاهب الإسلامية وتكفير بعضهم بعضاً تم تشريعها باسم النبي (ﷺ) وباسم الله..

الخلاف - وليس الاختلاف - في الطائفة الواحدة أو المذهب الواحد تم تشريعه كذلك باسم الدين..

الاقتتال بين الأديان السماوية أيضا تم تشريعه باسم الدين..

ونتيجة لهذه التشريعات استبيحت الدماء وانتهكت الأعراض وترملت النساء وتيتمت الأطفال..

من هنا نعلم أن كل هذه السيناريوهات بعيدة عن المشروع الإلهي في بناء مملكة الخلافة الإنسانية التي تقوم على مبدأ المحبة. لقد توهم الإنسان بأناه القوية أنه يدافع عن الله.. الله لا يريد أحداً أن يدافع عنه، لأنه ببساطة مالك الملك، وملك الملوك، ونحن ضيوف مؤقتين في مملكته. الله هو من يدافع عنك، أنت تدافع عن نفسك، عقيدتك، حزبك، وتعتقد أنك تدافع عن الله. الله يريدك أن تدافع عن نفسك ومالك وعرضك لا يريدك أن تدافع عنه لأنه لا يحتاج إلى أحد لأنه مستغني عن كل أحد.. ملايين الأجرام السماوية قد تسحق بأمر منه قبل أن يرتد إليك طرفك..

هو لا يحتاج إلى دفاعك عنه، ولكن لأننا نفكر بالله بعقولنا المادية والبشرية فنعتقد أنه كسائر البشر يحتاج إلى دفاع ومؤازرة ونصرة فنقوم بتشريع مواويل الأحقاد والكراهية والقتل وشن الحروب واستحباب اللعن والسب. وبالتالي نجد أن أغلب النصوص المقدسة تم إخضاعها لتشريعات بشرية محدودة العقلية تعتقد أنها الوصي الأمثل والأوحد، وأن ما يتمخض عنها إنما هو مرام الله وغاياته ووصاياه وتشريعاته الصرفة. ولتحقيق هذه الغاية تم العبث بالأحاديث الشريفة، فتم تغييب الكثير منها - مما لا نسمع له ذكراً على المنابر - كما تم استئصال

الآخر منذ أكثر من 600 عام من الوعي التراثي النبوي والإمامي.

وحين تصل الإمة، ويصل الدين إلى هذا المستوى المتدني من الوعي يعيش حالة الضياع والتيه، وهو سيناريو تتداوله الأمم منذ الأحقاب الغابرة. وهذا التيه والضياع يعبر عنه القرآن بالغي كما جاء في سورة مريم ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾..

وحين تتهاون البشرية عن الأخذ الفعلي والجاد للمشروع الإلهي وتحاول تحييده عن غاياته وأهدافه الحقيقية يأتي الله بأمره في التغيير، وبناء عالم جديد تقوم دعائمه على الحكمة الإلهية وبناء الإنسان الخليفة.

لذلك حين نسمع أو نقرأ - باسم الدين - عن نوازع الأحقاد والكراهية ونشر الفتن والطائفية لنعلم أن الحكواتي أو الكاتب إنما يمثل نفسه ويعبر عن بواطنه ولا علاقة لما يقوله بالمشروع الإلهي أو الخلافة الحقيقية وهذا مع الأسف ما تمليه المؤسسات والمدراس الدينية الشكلية على أتباعها.

في حين أن المدارس الدينية الروحية العميقة تركز بشكل كبير على فكرة الحب الإلهي الذي يتمازج والحب الروحي البشري كمنبع أساسي للعلاقة بين الخالق والمخلوق.. بل أن الروحانية لا تركز على الحب كمفهوم ومسمى فقط وإنما كأساس من أساسيات الخلق، وتنظر للحب ليس مجرد علاقة شعورية، بل له وجود وكيان خارجي، وهذا الوجود له منبع متأصل في العالم العلوي من جانب، وكوجود متجذر في الفطرة الإنسانية والروح من جانب آخر.. كما سنفصل لاحقاً.

ومن هنا ترى المدارس الروحية أن أي يقظة روحية أو تطور روحي لا ينمو ويزدهر إلا في تربة الحب، لأن الحب أشبه

بسيمفونية تتناغم أوتارها بروح الإنسان وباطنه وجوهره العميق، فأوتار الروح الباطنية مشدودة على إيقاع الحب الإلهي.

ولأننا نجهل هذه الأساسيات فعادة ما ندور حول الحمى دون أن نقع فيه، فتبقى هذه التجربة الشخصية وتحليلها ومعرفة بواطنها عصية على الفهم والإدراك، حتى قيل إنه لا يمكن تعريف الحب إلا بالحب نفسه.

ماهية الحب

إذن دعونا ندخل في صلب الموضوع ونتساءل عن ماهية الحب، مصدره ومنبعه الأصلي؟ ولماذا يعتبر من أقوى الكيانات الوجودية إذا اعتبرنا أن كل ما في الوجود له كيان مستقل، أو من أقوى الموجات غير المرئية إذا اعتبرنا أن كل شيء في الكون في حالة تموج وتذبذب حسب ما جاء في نظريات الكم الأخيرة. ما مصدر حالة الوله والاهتمام والرعاية والإيثار غير المشروط تجاه الطرف الآخر. بحيث يتداخل كلا الطرفين متجاوزين الأبعاد والمستويات المادية والنفسية إلى عمق الكيان الروحي؟.

الحب كغيره من المفاهيم الروحية لا يمكن معرفتها ما لم نذهب بعيداً في الزمن السحيق، إلى ما قبل تجسدنا المادي، لأن حقيقة وجودنا الأرضي المؤقت في عمر بداية الخلق لا يعدو أن يكون طرفة عين أو هو أقل من ذلك.

لذلك في العديد من المفاهيم الروحية العميقة لا يمكن معرفتها في إطار العالم المادي أو من خلال التفكير البشري الضيق، لا يمكن أن نعرف معنى العرش والكرسي والصادر الأول من خلال تفكيرنا الضيق المحدود، أو توصيفها بكلمات بشرية تعجز عن تبيان حقيقة المفهوم أو الحالة أو الشعور.. فاللغة تفقد قدرة التعبير، والعقل يفقد قدرة الإحاطة، ومن هنا قيل: "كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة". لهذا ينبغي أن نعرف

جذور الحب من عالم ما قبل المادة، أي ما قبل التجسد في هذه الأرض.

ولكن قبل أن نذهب في رحلة في عمق الزمن، لعل سائل يسأل لماذا ينبغي أن نذهب بعيداً لنعرف أصول الحب؟ أليس الحب هو شعورٌ إنسانيٌ تجاه الله أو تجاه إنسان آخر أو تجاه شيء ما، لماذا نذهب بعيداً في حين أن من الأولى والأصح أن نبحث هذا الموضوع في محيطه النفسي والإنساني؟.

الإجابة على هذا السؤال تكون بسؤال آخر، وهو هل شعور الحب الذي يداخل الإنسان سواء كان لله أو لإنسان آخر أو لشيء ما منشأه ذات الإنسان، نابع من كيانه، قام بتخليقه وتكوينه بنفسه فقط، أم أنه انفعال وتفاعل مع شيء آخر موجود في الخارج؟.

البعض يعتقد أن الحب شعور وإحساس ينشأ نتيجة ظروف أو إثارة معينة داخل الإنسان، ولكن لا يمكن لهذا الشعور أن يحدث ما لم يكن له وجود في العالم الخارجي. فالقاعدة الروحية تؤكد أن ما من شيء بمقدور الإنسان تخيله أو ابتكاره أو تصوره إلا ويكون له وجود خارجي. فهو لا يستطيع أن يشعر أو يفكر من العدم أو من لا شيء. فمبتكر الطائرة حين تخيلها لأول وهله في ذهنه، كانت هناك صورة مبدئية لهذا الابتكار في العالم الأثيري، وكل ما فعله المبتكر أنه توصل إلى هذه الصورة واستلهم تفاصيلها فقام بتصنيع الطائرة.

وقس على ذلك جميع العمليات الإبداعية والابتكارية والفكرية التي قام ويقوم بها العقل البشري منذ نشأته الأولى، فهي ليست عمليات شخصية محضة يقوم بتخليقها وإنشائها بنفسه بمعزل عن العالم غير المرئي أو الأثيري المحيط به. إنما هي استقاء واندماج مع الأفكار السابحة في عالم الأثير. سواء

كانت هذه الأفكار إيجابية تؤدي إلى سعادته وسعادة البشرية، أو سلبية تؤدي إلى تعاسته ودمار البشرية، أو تكون مرتبطة بأمور حياتية شخصية، على حسب المستوى الذي يستقي منه أفكاره.

وبالتالي فمن الاستحالة أن يقوم العقل البشري بإبداع أو ابتكار شيء ليس له وجود في العالم الأثيري. فكل الإبداعات البشرية والابتكارات تقوم على ركيزتين أساسيتين:

1- وجود صورة أثيرية لما يراد إبداعه أو التفكير به.

2- وجود إمكانات في الدماغ قادرة على التقاط هذه الصورة من العالم الأثيري، ومن ثم إدخالها في عمليات عقلية تعمل على ربطها بصور وأحداث أخرى مخزنة في الذاكرة والموجودة هي كذلك في العالم الأثيري.

فالدماغ يعمل على التقاط الصورة كخطوة أولى ثم يقوم بعملية محاكاة مع الصورة التي جمعها سابقاً والخاصة به، أي المخزنة في صندوقه الخاص في الأثير والتي تمثل ذاكرته الشخصية.

ومن هنا ندرك أن الإنسان ليس كائناً جامداً معلباً في هيكل وجسد مادي فحسب، فدماغه يصدر ويستقبل موجات تمكنه وتمنحه قدرة التواصل مع عالم الأثير أو العالم الروحي بمستوياته المختلفة. لهذا جعل الله الوسط الذي يعيش فيه الإنسان له قابلية نقل هذه الموجات منه وإليه. لذلك كثيراً ما نسمع عن تأثر الدماغ بالموجات المحيطة به سواء موجات الهواتف النقالة السلبية، أو موجات الاسترخاء التي توضع أثناء التأمل.

قد يستصعب البعض هذه الفكرة ويجد فيها نوعاً من المبالغة والخيال، في حين أننا نتعامل وبشكل يومي مع أغلب وسائل

الاتصال اللاسلكية سواء الهواتف النقالة أو قنوات الأقمار الاصطناعية التي تستفيد من هذا الوسط الأثيري، على الرغم أنها - وسائل الاتصال - تستفيد من أدى المستويات وأثقلها مقارنة بغيرها من الأوساط الدقيقة المخصصة والمتاحة للإنسان والكائنات العاقلة أن تستخدمها في حياتها، سواء شعرت بذلك أن لم تشعر.

فالراوتر الذي تملكه أو الهاتف الذي بيدك يستطيع التقاط الموجات من كل مكان في العالم.. من حيث الشكل والصورة أنت تراه جامداً صلداً ولكن موجاته تحلق لأقاصي الأرض ولآلاف الأميال ويلتقط موجه منبعثة من نيوزيلندا أو أفريقيا أو من أي مكان في العالم.. لولا أن الأثير يملك قابلية لنقل هذه الموجات، فلا يمكن، بل ومن الاستحالة إن تحدث هذه النقلة في عالم الاتصالات. ولولا وجود هذا الوسط الذي كان من المتطلبات الأساسية في خلق الإنسان، لما استطاع اكتشاف الاتصال اللاسلكي. ولولا وجود هذه الميزة والهبة في الإنسان (الاستقبال والإرسال) لما استطاع اكتشاف الهاتف النقال والإرسال اللاسلكي.

لما يقارب من 20 سنة تقريباً مضت كان يُعتقد أن المخ يحتوي ويتضمن الذاكرة التي تخزن فيها المعلومات. بمعنى أن المخ أشبه بالهاردسك الذي يخزن عليه الإنسان معلوماته، تجاربه، خبراته وما أشبه. إلى أن بينت الاكتشافات العلمية أن (الداتا) أو المعلومات لا تخزن في الدماغ إنما تخزن في الأثير، أي خارج جسد الإنسان، وبالتالي هي أشبه "ICLOUD" منها إلى القرص الصلب أو (الهاردسك). وضعف الذاكرة الذي يحدث للبعض لا يتعلق بوجود المعلومات أو عدمها، وإنما بقدرة الدماغ على تلقي هذه المعلومات من الوسط الأثيري واستدعائها. فقد تتلف بعض خلايا المخ أو تصاب إثر حادث فتحدث مشكلة في استرجاع هذه المعلومات، أو قد يحدث خلل في توجيه الإرسال فيتداخل مع

معلومات أخرى كما يحدث في بعض الأمراض النفسية والذهنية.

وبالتالي فإن كل أشكال التطور التي نشهدها تتعلق بزيادة قدرة الإنسان على تلقي الأفكار من العالم الأثيري، واندماج هذه الأفكار مع قواه وقدراته العقلية الكامنة فيه للخروج بنتيجة ابتكار جديد أو عمل جديد.

وقس على ذلك جميع الاكتشافات العلمية التي نراها مبهرة وهائلة وعظيمة هي في الواقع لا تمثل إلا نسبة ضئيلة لما هو موجود في عالم المثال أو العالم الأثيري..

لذلك عادة حين ترى شخصاً ما مسترسل في كتابة قصيدة أو قصة أو أثناء تفكير عميق، أو يكون مندمجاً في رسم صورة جميلة معبرة، قد لا ينتبه لوجودك.. وحين ترمقه بطرفك تجده وكأنه في عالم آخر، وحين تكلمه أو تقاطعه يقول لك: "لا تقطع عليّ حبل أفكاري".. فقد تنسل منه الفكرة التي أراد كتباتها هاربة حين تداهمه فتقطع تماهيه وتواصله مع العالم الأثيري، ولذلك يعبر عنه بقطع الأفكار.

يحدث هذا حين يكون هناك استقطاب وتماهي واندماج مع العالم الأثيري. لا ينتبه الإنسان عادة لهذا الأمر ولا يدرك هذه الآلية ولا يشعر بها لأنها تحدث بشكل طبيعي تلقائي، ولا يبذل جهداً تجاهها لا يتطلب وقتاً معيناً أو آلية خاصة ليقوم بها.

ولكن ما الذي جعل هذا الرسام يلتقط هذه الصورة هو بالذات ويقوم برسمها دون سائر الناس؟ لماذا تراود بعض الناس أفكاراً دون غيرهم؟ ما الذي جعله يصل إلى هذه الذبذبات والموجات الخاصة بالشيء الذي يريد كتابته أو رسمه أو ابتكاره.. أو أياً كان ما يقوم به؟.

هنا الأمر يتعلق بالانتباه والإرادة والتشوق والاستغراق وبالقوى العقلية والنفسية والروحية التي تستقطب هذه الأفكار. فعلى سبيل المثال: فكرة رسم صورة ما، تبدأ العملية بشيء بسيط.. بفكرة عابرة تخطر على بال الفنان، يجد العقل فيها نوعاً من الاستحسان والقبول، فتبدأ موجات الدماغ في الاتصال والتواصل بلمح البصر مع مليارات الصور السابحة في الأثير، فيختار واحدة من هذه الصور التي تبدأ تتسلل إليه شيئاً فشيئا، فيستغرق الفنان في فكرة الصورة، ويركز قدراً كبيراً من تفكيره الواعي، ويدرك القيمة الكامنة لما يقوم به، فيستقبل الصورة المعدة سلفاً في العالم الأثيري ويتلقاها وهو في حالة حضور كلي. هنا يستطيع أن يحول الصورة التي تخيلها والتقطها من العالم الاثيري إلى صورة مرئية حين يقوم برسمها. فالتقاطه للصورة لا يتم إلا حين يكون في حالة حضور واستغراق كامل، متيقظاً أو يقظاً للحظة الآنية التي يعيشها مستوعباً مدركاً محيطاً منتبهاً للفكرة التي يريدها..

وكلما كان أكثر يقظة واستغراقاً كلما كانت لوحته أكثر تعبيراً وجمالاً. تبقى المرحلة الأخيرة التي تتعلق بقدرته وإمكانات العملية في التعبير عن الصورة عبر رسمها بصورة دقيقة.

وبالتالي فإن عبارة "لا تقطع حبل أفكاري" تعني: لا تقطع التواصل الآني الذي يحدث في حالة الحضور مع العالم غير المرئي أو المثالي.. فقط تخيل معي هذه الحالة..

فكرة موجودة في الخارج، بدأت تدب في داخل عقله، تحاكيه، هو يريد أن يجذبها ويحتويها بالكامل، لأن الجزء الذي التقطته موجات الدماغ بدأ يدخل في عمليات عقلية مختلفة وبدأ العقل يقلبها هنا وهناك ويربطها مع أفكار أخرى، ولكنها لا تزال غير مكتملة لا زالت الفكرة ناقصة. فإذا أراد إكمالها ينبغي أن يستوعبها من كل جوانبها، فيعيش حالة الحضور مع

هذه الفكرة، وحينها يفقد وجوده الشخصي فلا يكون حاضراً معك، بل مع فكرته أو مع ما هو مستغرق فيه. وحينها قد تقترب منه دون أن يلتفت إليك أو يلحظ وجودك، هو يريد أن يُكمل هذا السريان من الأفكار من الخارج إلى الداخل..

لذلك لولا وجود هذه القنوات في الإنسان، ولولا وجود هذه الخاصية في الأثير لنقل هذه الموجات أو الأفكار، لولا هذين الأمرين لا يمكن أن تخطر هذه الصورة أو الرسمة أو الفكرة أو أي ابتكار على بال الإنسان إطلاقاً..

وهذه من أعمق المفاهيم الروحية التي لخصها الله في آية واحدة حين قال ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.. والتي كانت عصية على المفسرين، في حين أنها تتحدث وتشير إلى الآلية والقدرة التي يتحرك الإنسان من خلالها في الحياة..

لماذا تطرقنا إلى هذه الفكرة وبينا تفصيل هذه السنة الكونية في الخلق، ونحن نتحدث عن الحب؟.. لأن الحب أيضاً لا يشذ عن هذه القاعدة. فهو ليس مجرد شعور شخصي ذاتي يخلقه الإنسان، يعتقد أنه قام بتخليقه ودشن به مشاعره. نعم هو يملك شيئاً من الحب في أعماقه - سنعرف من أين أتي بهذا الحب - ولكن لا يمكن لهذا الحب أن يظهر ويتجلى ما لم يتفاعل مع فيض الحب الموجود الخارجي.

ولهذا فقد زوده الله بالأداة الروحية والقلبية التي تمكنه من التواصل مع كينونة هذا الحب الخارجي. كالمفكر أو الرسام الذي يستقي أفكاره من الخارج، ولكن بمستوى أعلى بكثير من الموجات الفكرية أو الإبداعية، فأثير الحب هو الأرقى بين كل مستويات الوجود.

الحب.. الكيان الخارجي

الحب له كيان خارجي كسائر الأشياء الأخرى، نتفاعل معه بقلوبنا ونستشفه من العالم الروحي، حتى يصبح في حالة تماهي قوية مع أفكارنا ومن ثم في وعينا العميق. لذلك يقول الحق: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ فقدم حب الله (الخارجي) على حبهم (الداخلي) لأنه بدون حب الله لا يمكن أن نشعر بالحب الذاتي في أعماقنا.. فالأقوام الذين سيأتي الله بهم يدركون هذه الحقيقة، ومن هنا نفهم معنى الحديث الشريف: "الذكر من المذكور ثم من الذاكر". فلا يمكن أن تتلفظ بالذكر ما لم يكن هناك إمكانية مصادقة من الله بذلك. سأل النبي (ﷺ) ربه جل علاه: "يا رب! وددت أني أعلم من تحب من عبادك فأحبه؟ قال: إذا رأيت عبدي يكثر ذكري فأنا أذنت له في ذلك وأنا أحبه".

القلب موطن الحب

والقلب هو موطن الروح الذي يستقي أنوار المحبة من الخارج، لذلك إذا كانت هذه القلوب:

مقفلة.. ﴿أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

عليها رآن.. ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾.

مريضة.. ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾.

مغلولة.. ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

آثمة.. ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾.

لاهية.. ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾.

مغطاة.. ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾.. والغمرة هو الغطاء.

منكره.. ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُون﴾ التي تنكر كل شيء.

مشمئزة.. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾.. أي منقبضة ورافضة للحق.

مغطاة.. ﴿جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ عليها أغطية أو حواجز أو سدود..

مرتابة.. ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.. أي التشكيك في كل ما يسمع أو يشعر..

عليها غلف.. ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا..﴾.

فكما أن الدماغ - جهاز استقبال الأفكار والصور والأشكال - إذا أصيب بعطب ما أو تلفت بعض خلاياه العصبية يصعب عليه استرجاع المعلومات من الأثير أو الذاكرة.. كذلك القلوب إذا أصيب بأحد هذه الحالات التي ذكرناها لا يمكنها أن تستشعر الحب الإلهي، لأنها موصدة عن العالم الخارجي، محجوبة عن التأثيرات الروحية الخارجية.

هذه القلوب أشبه بهاتف نقال خارج نطاق التغطية، معطل عن الاستقبال. بمقدورك أن ترى وتشاهد ما به من معلومات وبرامج فقط، ولكن لا يمكنه التواصل مع العالم الخارجي.

لذلك لا نستغرب حين نرى شخصاً ما قد تجرد وانسلخ عن كل معاني الحب، لأنه ببساطة لا يشعر بذلك، لا يعرف معنى الحب، لا يشعر بأكبر نعمة في الوجود، وهذا من أكبر صور معاناة الإنسان.

أعمال الإنسان السلبية التي يقوم بها تبني حواجز وسدود منيعة تحول بينها وبين التحقق من هذه الهبة الربانية، وهذا قانون إلهي سنه الله في خلقه. فالقلب أرض مقدسة ينبغي ألا تلوث بالكدر أو تدنس بالأمراض النفسية أو تعطل عن أداء

وضيفتها الحقيقية لذلك فـ" القلب حرم الله، فلا تسكن حرم الله غير الله".

حين يقول الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾.. فهو ينسب هذه القانون إلى نفسه - لأنه واضعه - لا للفعل. بمعنى أن من يتبع هوى نفسه ويتخذها إلهاً، فإن هذا من شأنه - راجع موضوع الصحوة بالتفصيل - أن يخلق حاجزاً وسداً منيعاً بين الشخصية الخارجية وإشراقة ملكات الروح المكنونة في أعماقه.

الله لا يريد للإنسان أن يتذوق المعاناة، ولكنه وضع قانوناً وسنة كونية أجراها في عالم الخلق. فالإنسان هو من يختم على قلبه وهو من يجعل على بصرة غشاوة. فمن يلقي بنفسه من شاهق مرتفع، من العبث أن نقول إن الله قتله، إنما هو من قتل نفسه.. من يتعاطى المخدرات ويموت لا نقول إن الله قتله.. بل هو من قتل نفسه.. مع الأسف الشديد نحن نفهم العديد من بصائر الوحي بصورة مغايرة للواقع، ولهذا بمجرد أن يعود الإنسان إلى رشده سيتخلص من كل هذه الأمور، سواء الغشاوة أو الختم أو المرض أو غيرها. لذلك يقول في نهاية هذه الآية ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي بمجرد أن يرفع هذه الأغلال عن نفسه يرجع لما كان عليه، إن لم يكن أفضل حالاً.

وبالتالي فإن كل أشكال وصور الحب التي نراها في الحياة نابعة من مصدر خارجي، كل روابط الحب على اختلاف صورها وأشكالها لها منبع واحد، ومن هذا المنبع تتفرع أنهر صغيرة لتدمج الخلايا بعضها ببعض سواء على مستوى الذرات أو على مستوى المجرات، من الذرة إلى المجرة. لذلك تؤكد جميع العلوم الروحية على أن كل شيء في الوجود يخضع لقانون الزوجية

﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ليس في المجال الحيوي وإنما أيضاً في المجال المادي وفق ما نفهمه من كلمة كل شيء، وهذه الزوجية لا تتم إلا بالتجاذب والتكامل وهو حقيقة الحب.

إذا توضحت لنا هذه الفكرة جيداً.. أن الحب ليس إبداع وابتكار شعوري شخصي فقط، إنما له وجود خارجي حقيقي، نستلهم منه بقدر انفتاح قلوبنا وأرواحنا عليه حتى يتجلى في حياتنا، وكلما كان هذا الانفتاح أكبر كلما وعي القلب الشيء الكثير من هذا الفيض الإلهي العظيم. إذا توضحت هذه الفكرة دعونا نتحدث قليلاً عن هذا الكيان العظيم.. ومن أين جاء وما مصدره؟.

الحب والخلق الأول

قبل خلق الأكوان المادية بملايين السنين خُلقت الأرواح من عوالم متاخمة لعرش الرحمن في العالم الروحي القريب من الفردوس الأعلى.

وجدت الأرواح نفسها دون أن تعلم في عالم يشع ويتألق بالحب، وهي لا تعلم عنه شيئاً، لأنه كان المكون الأساسي للحياة، كالطفل الذي يولد، هو لا يعلم شيئاً عن الأكسجين أو الغازات التي يتنفسها ويستنشقها. يجد نفسه بصورة تلقائية عفوية لا إرادية يتنفس الهواء. هو لا يسأل عن محتويات هذا الهواء، كل ما عليه أن يتنفس لا شيء أكثر من ذلك. وكذلك الأرواح حين خلقت ابتداءً عاشت في وسط كانت مادة الحياة فيه هو الحب، غذاءها الوحيد كان الحب، تتنفس وتعيش وترتوي رذاذ أشعة المحبة.

لم يكن الحب بالنسبة لها فكراً أو شعوراً تسعي أو تُتعب نفسها للحصول عليه، كان هو مادة الحياة. حتى نفهم هذه الفكرة

بشكل أفضل، ينبغي أن نخرج من عقولنا أن الحب مجرد مفهوم أو فكرة عقلية أو شعور نفسي، نتحدث عن الحب الآن كونه مخلوقاً له وجود حقيقي فعلي في عالم الخلق والتكوين الأول. لا يمكن أن نفهم حقيقة الحب إذا حصرناه في مفهومنا الإنساني والشعوري، ينبغي أن نفهم حقيقته من التكوين الأول ككيان وجودي.

فالموت بالنسبة لنا مفهوم مجرد يحدث حين تخرج الروح من الجسد، ولكن الله يخبر عنه أنه مخلوق ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ﴾، الحب أيضاً مخلوق له كينونة فيض ذات ذبذبات في منتهى الكمال والدقة، بهذا الفيض تحيا الأرواح في عالمها، فكما أن طاقة الأثير أو ما يعرف بالبرانا هي الطاقة التي تمد أجسامنا الأثيرية التي تحرك أجسادنا المادية، فطاقة الحب كانت غذاء وروح الأرواح في ذلك العالم.

هذا الفيض هو الأعلى والأرقى والأكثر بهاء ونورانية من سائر كل الفيوضات والكيانات الأخرى التي دون عرش الرحمن أو دون الفردوس الأعلى. لأنه الأقرب إلى عالم الألوهية الذاتية. لذلك هو يصطبغ بكل السجايا والسمات الجليلة والعظيمة، وهو البرزخ ما بين الفردوس وعالم الخلق. ومن هنا تؤكد العلوم الروحية والدينية أنه لا يمكن الوصول إلى حالة القرب ما لم نستشعر عمق هذه الموجات النورانية وهذا الفيض المتدفق من العرش. إذا لم تكن موجاتنا الروحية تتوافق مع هذا الفيض تصعب علينا مواقف العز.

وحين أراد الله لهذه الأرواح أن تعيش في عوالم مختلفة ومتنوعة غير مادية، أو غير مرئية، بسط لها فيض الحب ليكون سر حياتها في تلك العوالم كذلك. فكان يمد لها هذا الظل، وهذا الفيض، لأنها بدونه لا يمكن أن تحيا.

ففيض المحبة هو الذي يشكل حلقة جذب ووصل بين الفردوس الأعلى - مصدر الفيض في الوجود - وبين كل شيء آخر مخلوق في هذا الوجود. وبدون هذا الفيض ومدده تنفصل الأشياء عن منبعها وأصلها، وبالتالي لا يكون لها وجود من حيث الأصل، ينتفي أصل وجودها.

لذا بمجرد أن يريد الله شيئاً، أو يخلق خلقاً ما، أو يؤسس كونا أو عوالم جديدة، فإنه يمد بساط فيض المحبة ليكون الأرضية التي يبنى ويخلق عليها الخلق الجديد.

فأرضنا على سبيل المثال التي تكونت قبل ما يقارب من 4 ونصف مليار سنة، واستغرق إنشائها وخلقها لتتضح معالمها الأولية خلال 5 مليون سنة، شهدت العديد من التفاعلات والتغيرات ابتداء من تراكم الغبار الكوني الذي تأثر بقوة الجاذبية فكون الكتلة المحورة الصخرية التي غمرتها الغازات الكثيفة من أعلاها واشتعلت حمم البراكين من أسفلها، ونتيجة هذه التفاعلات تكون الماء وترسبت الغازات الثقيلة لتكون بقاياه الغلاف الجوي الذي بدأ يترشح حتى وصل إلى مرحلة قابلة لتكون سكناً للجنس البشري.

ولكن قبل كل هذا السيناريو.. وقبل أول ذرة من الغبار الكوني، وقبل أول عنصر من عناصر تكون الأرض، أي في مرحلة لم يكن هناك أي شيء، مجرد فراغ كوني.. امتد بساط الحب الذي مَكن حدوث كل هذه التفاعلات. فقبل تشكل الغازات وتكون الماء وتصلب الأرض، امتد بساط الحب ليكون الأساس التكويني الأول الذي يبدأ بموجبه الخلق. وإلا لا يمكن أن يتحقق هذا الخلق بدون وجود هذا البساط.

ومن هذا الفيض، فيض المحبة يأتي المدد ويتجلى بمختلف أشكاله وبكل أنواع الطاقات المعروفة اليوم في علوم الفيزياء

الحديثة، الحيوية والحرارية والنووية والذرية الإشعاعية والمغناطيسية، وغيرها من طاقات متنوعة.

وبالتالي بدون أرضية الحب لا يكون هناك مدد، وبدون مدد لا يكون هناك تجلي للطاقات، وبدون هذه الطاقات لا يكون هناك وجود فعلي للأشياء، وبالتالي لا يوجد خلق أو وجود..

هل نعلم كيف يخلق الله الجنين في بطن أمه؟

يمثل الجسم الأثيري القالب الذي يتشكل من خلاله الجنين في بطن أمه. هذا القالب يعتبر الأرضية التي يُبنى عليها جسد الجنين، ومن غير هذا الجسم الأثيري يستحيل أن يحدث الحمل. تارة ولأسباب معينة يخرج الجسم الاثيري من رحم الأم فتجهض الأم جنينها. وهذا الجسم يتعامل مع الشفرة الوراثية للجنين (دي إن أي) ويبدأ في تفعيل قواه وبناء الجسد. الدي إن أي ـ DNA ـ أشبه بالمانيوال MANUAL أو الكتالوج الذي يشمل خطوات بناء الجنين ويعمل من خلاله الجسم الأثيري في بناء جسده المادي خطوة بخطوة.

فيض المحبة في العالم أشبه بالجسم الأثيري بالنسبة للجنين، عليه تقوم كل عمليات التخليق في العالم..

لذلك يسبق بداية الخلق المادي بسط لهذا الفيض ليكون أرضية للمدد الذي سوف يخلق عليه الكون - بما فيه من عوالم ومجرات ونجوم وشموس وكواكب - هذا الكون المرئي الذي يمثل فقط مقدار (بوصة إلى ميل) بالنسبة للعالم غير المرئي أو الروحي. يذكر العلماء هذه النسبة التقريبية حتى تستوعبها عقولنا المحدودة.. وإلا فالفارق أكبر من هذا بكثير.

لذلك لا يمكن أن نستوعب مفهوم الحب، ولماذا أكدت عليه جميع الديانات والمذاهب السماوية منها والأرضية مالم ندرك هذه الحقيقية، حقيقة أن العالم المادي يسبح في عالم من فيض

المحبة ومن هذا الفيض ينشأ المدد الذي من خلاله يوجد فضاء الاحتمالات والاختيارات التي يؤسس عليها يستقر وينمو الخلق المادي.

يقول الإمام الصادق (ع): "أجري القلم في محبة الله (قلم التكوين، وإقرار الممكنات، وبناء العوالم) فمن اصفاه الله بالرضا فقد أكرمه (أي الذي يتماهى ويقبل ويستقي من هذه الأرضية فقد وصل إلى درجة الكرامة) ومن جعل حوادث الدنيا والأغيار حائلا بينه وبين هذا الحب فقد أهان نفسه، والرضا والسخط خلقان من خلق الله، والله يزيد في الخلق ما يشاء".

تماس قلوبنا وملامستها لهذا الفيض الوجودي والشعور به هو ما يخلق صبابة الوجد وهيام الروح، فكوننا غارقين في محيطه منغمسين فيه ينقصنا فقط أن نفتح نوافذ قلوبنا لتغمرنا نفحاته ويحتوينا فيضه. لذلك فالحب لا يحتاج إلى شروط لنخلقه ونوجده ويتجلى في حياتنا.. فهو موجود أزلي، نحتاج فقط أن نتخلص من المعوقات التي تسد طريق ولوجه في قلوبنا.

ويذكر أرباب النحو والبلاغة أن إحدى معاني كلمة الحب هو الصفاء والصفو والنقاء، وبالتالي فإن هذا الصفاء ينجذب إلى ما يشاكله ويجانسه من قلوب نقية وضمائر صافية. وبقدر سلامة قلب الإنسان وصفائه فإنه ينجذب إلى ذلك المحيط العظيم من الحب الإلهي المتدفق، لأنه حينها لا يوجد حائلٌ أو حاجرٌ بينه وبين هذا الفيض، بقدر ما يكون الإنسان نقياً فإنه سيّطلع على مكنون الحب المتأصل في الوجود..

كما أن من إحدى معاني الحب اللغوية، معنى الحِب بكسر الحاء، فسمي الحِب حباً لأنه لباب الحياة كما الحب لباب النبات

وأصل الشجر. وكما أن كل معالم الشجرة موجودة في الحبة، كذلك كل معالم الحياة توجد في الحب..

ومن هنا نعلم لماذا تدعو بعض الديانات والمذاهب الأرضية إلى أن الوصول إلى المحبة يعني الوصول إلى الله، وقالت: "إن الله هو المحبة" لأنها ترى أن كيان المحبة أو بساط المحبة هو الذي يسبق خلق كل شيء، ومن هنا نظرت إليه على أنه الخالق، لأنه يسبق كل خلق آخر، هو الأرضية التي تنبني عليها كل الأمور الأخرى، ولأنها رأته أول الخلق فقالت بأن المحبة هي الإله. في حين أن هذه المحبة منبعثة من تحت عرش الرحمن ومن الفردوس الأعلى. المحبة هي الواسطة الروحية العميقة بين الخالق والمخلوق، هي الأقرب إلى العالم المقدس..

إلى الآن عرفنا الأصل التكويني للمحبة وفيض الحب الإلهي.. ولكن دعونا نعرف ما قصة الأرواح مع هذا الحب؟

حين كانت الأرواح في عالمها البدئي كانت تعيش الحب بكل عنفوانه وطاقته كما ذكرنا، لذا أصبح إحدى سماتها الأساسية التي تسعى جاهدة لتعود إليه مرة أخرى مهما طالت أو قصرت فترة ارتحالها، هي تسعى جاهدة للعودة إلى موطنها الأصلي الذي ارتحلت عنه.

وحين عاشت في عوالم غير مرئية سواء في مجرات أو كواكب متعددة، ابتعدت عن عالمها ولكنها بقيت تشعر بقوة تأثير الحب فيها.. بقي شعورها بالحب قوياً. ولكنها حين تجسدت في لباسها المادي، وأصبح هناك حجب كثيفة تحول بينها وبين الشعور والاندماج مع هذه الطاقة النورانية الخلاقة، باتت تشعر بالغربة والحنين للعودة إلى عالمها الأصلي.

أصبحت هناك مفارقة بين الذات الحقيقية التي تحن للعالم الروحي، وبين ظاهر الإنسان حيث النفس والإيغو الذي يشعر

بالأنس والتماهي مع الأبعاد المادية في الحياة. لذلك كلما تعمق الإنسان في باطنه عبر التأمل والصلاة والصمت والتفكر كلما شعر بالحنين القوى لموطنه الأصلي في عالم الروح، فيطلب الموت قبل أن يطلبه، بينما الآخر يطلب الخلود في الحياة. لذلك عادة ما يشبه العارفين هذا الحنين بصوت الناي "استمع إلى صوت الناي كيف يبث آلام الحنين يقول: مذ قطعت من الغاب وأنا أحن إلى أصلي".

ليس فقط الحنين للموطن الأصلي وإنما التوق والصبابة والشوق لجميع الأرواح المتجسدة في العالم لأنها تذكرها بذلك الأصل والموطن..

بل أن وجود الأرواح في لباسها البشري وغربتها عن موطنها يزيد من لوعه الشوق للحب القديم أكثر، فحين كانت في عالمها الأول كان فيض المحبة يمثل حالة طبيعية تلقائية يمدها بالحياة والنور والبهجة فلم تكن قد اختبرت حالة الانفصال والابتعاد عنه، وبما أن الشيء إن كان ماثلاً وحاضراً معنا باستمرار وبشكل تلقائي فإننا لا نعيره بالاً ولا نستشعر قيمته الحقيقية إلا حين فقده أو غيابه، وكذلك الأرواح تشعر بالحب المثخن بلوعة الفراق في الحياة عما كانت عليه في عالمها لأنها اختبرت فقده.. فالإنسان لا يشعر بقيمة الماء والأكل حين يكون متاحاً وميسراً على الدوام أمامه، ولكن حين يفقده سيعرف قيمته الحقيقية.

ولكن هذا الابتعاد وهذه الغربة ليس ابتعاداً مكانياً أو تحولاً من عالم إلى آخر، إنما هو ابتعاد بسبب الحجب والحواجز التي خلقناها نحن في هذا العالم المادي. فالحب الموجود الآن هو ذاته الموجود في العالم الذي ارتحلنا عنه، وهو نفسه الموجود في العوالم غير المرئية، هو نفسه لم يتغير، نحن الذين تغيرنا. في السابق لم يكن هنا حجب تحجبنا عنه، لم تكن الأرواح تحجبها

حجب الأنا والأنانية والطمع والجشع والفوقية والكره والحقد، لم تكن القلوب مريضة أو مقفلة أو مغلولة أو مصفدة بالتقاليد والأعراف، فكانت تشعر بفيض الحب بشكل كبير.

لذلك جاء في الحديث: "كما أن الشمس والليل لا يجتمعان، كذلك حب الله وحب الدنيا لا يجتمعان". وكما ذكرنا سابقاً أن الله حين يذكر في كتابه التثاقل إلى الأرض، أو توبخ الأحاديث حب الدنيا فهي تشير إلى تقديسها بحيث تصبح الحياة هدفاً بحد ذاته لا وسيلة، تشير للانغماس فيها بحيث يكون الاستمتاع فيها هو الهم الأكبر فينشغل في أهواء شهواتها وملذاتها ويربط سعادته بما يحققه من متع وأهواء نفسية وجسدية فقط.. وإلا فالحياة التي وهبنا الله إياها من أعظم الفترات التي نجني من خلالها الخبرات الروحية، ومن هنا جاء في الحديث: "إن كنتم تحبون الله فاخرجوا من قلوبكم حب الدنيا".

بل إن أحد أهداف الخلق المادي أن تستشعر الروح فيض المحبة في الحياة المادية كما كانت تستشعره في العوالم البدئية من الخلق، بمعنى أن تتجاوز الحواجز الكثيفة للجسد المادي، وأن تتجاوز هوى النفس ومتطلباتها كي تشعر بهذا الحب وهي في هذا الغلاف البشري.

لذلك نحن الآن ككائنات متجسدة في هذا اللباس الأرضي نعيش عالم المادة ولكننا في الوقت نفسه نسبح في فيض الحب والمحبة الذي لو انقطع طرفة عين لساخت الأرض بمن فيها ولانقطع المدد وتوقفت السنن والقوانين بلمح بصر..

ومن هنا نعلم أن الأحاديث التي تطرقت إلى بداية الخلق بالحب "أحببت أن أعرف". فهي تتكلم عن أمرين، عن آلية الخلق من جانب وعن هدفية الخلق من جانب آخر. فالحب يتصدر البداية والنهاية، لأنه الكينونة التي تأسست عليها مبادئ الخلق الأول، والجذر الذي يرجع إليه كل شيء في نهاية وجوده.

ومن هنا ندرك أن الحب ليس - كما يتصوره الناس - عبارة عن مشاعر وأحاسيس، هو أكثر من هذا بكثير.. الروح متشربة بالحب متشبعة به حين كانت في عالمها، والكون منغمس في محيط الحب، ولكن هناك ما يحول بين تمازج واندماج الحب المستودع في الأعماق والحب الذي يحيطنها من كل جانب، هذا الحائل يأخذ صوراً وأشكالاً مختلفة منها الهوية، المعتقدات، الأفكار، البرمجة، العادات، التملك، الأنا (الإيغو).. وغيرها، ولكن جذر كل هذه الموانع يرجع لعلة واحدة وهي: النفس..

النفس تقتبس الصفات

لذلك فإن هذه الكلمة - النفس - هي إجابة مقتضبة لسؤال مهم يتبادر إلى أذهان البعض، إذا كان الأمر كما تقول.. وإذا كان حب الله هو الأساس الذي لا تقوم عليه ركائز الدين فقط بل يقوم عليه الخلق، فلماذا تم إغفاله؟ لماذا هجرت قلوب العباد دروب الحب منذ زمن بعيد واستبدلته بالحقد والكراهية تجاه المخلوق وبالخوف والوعيد تجاه الخالق؟

النفس تشعر بهذا الحب لأنها تطّلع عليه وتراقبه.. أو دعنا نقول إنها تتلصص على ملكات الروح. هي تعلم به وتتلمس فيض الحب الخارجي، ولكنها تريد أن توجه البوصلة لنفسها هي.. تريد أن تستحوذ على صفة الحب لنفسها لتتجلى في شخصيتها الخارجية، تريد أن تشعر بكل صفات الروح وتنسبها لنفسها..

على سبيل المثال.. الروح خالدة لا تموت بموت الجسد، واعية ومدركة، ومكانها من الجسد مكان الملكية، أي أنها كالملكة في موطن الجسد. النفس تدرك هذا الأمر باطنياً في شعورها الداخلي، فتعمل جاهدة كي تتجلى فيها هذه الصفات بمنظورها المادي، تريد الصفات العظيمة التي تتحلى بها الروح أن تتجلي

فيها، ومن هنا تسخر كل طاقاتها وقواها كي تشعر بالخلود، فتأنف الحديث عن الموت، وتتصرف في الحياة وكأنها خالدة أبد الدهر، فتجمع الثروة وتفكر بالوفرة وتبني الدور والقصور.

لذلك كانت معضلة البشرية الكبرى الأولى هي معضلة وعي وإدراك حين استطاع إبليس لوهلة أن يغير وعي أبينا آدم حين قال له: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾، إبليس يعلم أن (الخلود والملكية الحقيقية) من صفات الروح المتأصلة فيها، ولكنه أراد أن يؤثر في نظرة آدم لهذا الأمر بحيث يوحي إليه بإمكانية تجلي هذه الصفات في البعد المادي والنفسي، وأن بإمكان الإنسان أن يحققها عن طريق الوسائل المادية وليس الروحية.

لذلك يسعى البعض جاهداً لأجل البقاء وتخليد ذكراه ومكانته في الحياة ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ بالأموال والثراء والأولاد (والتكاثر) والإنجازات وغيرها من أمور. نحب أن نكون محبوبين للآخرين فنبذل الغالي والنفيس لأجل أن نكون بالصورة التي يرغبون بها.. النفس تريد هذا، لأنها تريد أن تكون الدنيا مسرحاً تسطر فيه ملاحمها البطولية، وبالتالي تكون أسيرة للأهواء الزائفة متعلقة بفروقات الأجناس والأشكال الخارجية، لذلك جاء في الحديث: "إذا تخلى المؤمن من الدنيا سما ووجد حلاوة حب الله".

ومن هنا فالصراع الدائم في حياة الإنسان في تحري هذه الصفات، فالنفس تريد أن تكون ذات سيادة مطلقة، وبفعل هذه السيادة تبني حولها جداراً سميكاً يحول بينها وبين تواصلها مع الحب العظيم، ومع الحب المكنون في أراوح الآخرين. تتجلى في أعماق الإنسان طاقة كبيرة من الحب لا يستطيع الآخر التماس معها لأن كلٌ منزوي ومتشرنق على نفسه وغير منفتح على الحب في روحه وغير منفتح على الحب في محيطه.

في حين أن المحبة ما هي إلا توسع الذات وامتدادها نحو الآخر، ورؤية احتياجاته الحقيقية، والأخذ بيده ومساعدته في عملية النمو والتطور الشخصي. لذا جاء في الحديث: "الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله، وأدخل على أهل بيت سرورا". في حين أن النوازع النفسية ترغب في تمركز الذات حول نفسها واعتبار الاخر وسيلة لسعادتها ولتلبية احتياجاتها.

حين يلامس الحب خوالج النفس تقوم بتوجيهه وفق ما تريد ووفق متطلباتها فتصيغ موازين الحب وفق رؤيتها. بمعنى أنها بدل أن تتوجه إلى الحب الحقيقي وتجعله معياراً وأنموذجاً لها، نجدها ترسم - بذاتها - وتضع هي المعيار الذي يناسبها.

لذلك فالإنسان حين يحب وفق المنظور النفسي، أي وفق متطلبات نفسه فإن حبه سوف ينتهي بانتهاء هذه المتطلبات، لأنه حب مشروط بأوهام النفس. بينما لو تعلق المحب بحبيبه روحياً فإن شدة هذه الرابطة ستكون أبدية حتى بعد الممات، إضافة إلى أنها ستقوي اتصالهما بمنبع ومصدر الحب. ومن هنا، ومن هنا فقط وليس كما نسمع - تناكحوا تناسلوا - يعادل الزواج نصف الدين.. لماذا نصف الدين؟! لما لهذه العلاقة الروحية من أثر بالغ في التطور الروحي. فالحب الذي يوحد قلبين يعتبر صورة مصغرة لإمكانية تضخيم هذا الحب ليشمل العالم. لهذا قيل: "المهم أن تعثر على الروح التي تكمل روحك، جِد الشخص الذي سيكون مرآتك" لأنك من خلال هذه المرآة ستكتشف ما لا يمكنك اكتشافه بدونها.

الله يعبر عن علاقته بالبشر بشتى الصور والوسائل والأدوات، يمد جسوراً مختلفة ومتنوعة ولكن أوثق هذه الجسور هو جسر المحبة، لأنه أوثق رباط بين العبد وربه، بل أوثق رباط

بين كل الأشياء. وعلى رحى هذا المفهوم درات جميع التوجهات الروحية القديمة والحديثة التي تدعو لإعادة العلاقة مع المصدر كما يطلقون عليه..

فحتى تتحد كل مكونات العالم ينبغي لها أن ترجع إلى بساطها التكويني الأول - الذي تحدثنا عنه - فالحب وحده هو ما يعمل على تمازج المكونات واندماجهم في وحدة تكاملية (وجدتك بعضي بل وجدتك كلي).. "يا كل كلي".. تتحول المشاعر الذاتية لتكون شعوراً كونياً يتماهى مع كل شيء في العالم، بمجرد أن تسقط حواجز الأنا يتدفق الحب، ويتوقد الوعي ويتلاشى الخوف وتسقط المسميات، فترى الآخر روحاً مقاربة لك، يفيض الحب فيلامس كل الموجودات بما فيهم الحيوان والنبات والجماد.

وقد أبدع سعدي الشيرازي في وصف صورة مثالية للعلاقة الإنسانية حين عبر عنها بأبياته الرائعة:

قال لي المحبوب لما زرته: من ببابي، قلت: بالباب أنا..

قال لي: أخطأت تعريف الهوى حينما فرقت فيه بيننا..

ومضى عام فلما جئته أطرق الباب علية موهنا..

قال لي: من أنت، قلت: أنظر.. فما ثم إلا أنت بالباب هنا..

قال لي: أحسنت تعريف الهوى وعرفت الحب فأدخل يا أنا..

لذلك إذا فتح الله عليك باب الحب فسوف يشحذ وعيك ويقربك من معرفته، أما لو اقتربت من المعرفة ولم يلامس الحب قلبك فإن هذه المعرفة تكون أشبه بمعرفة الفلاسفة أو المناطقة أو معرفة الفقهاء وعلوم الكلام في العقائد وغيرها..

المعرفة الحقيقية تفتح أبواب الحب، كما لا يمكن معرفة الله حق معرفته إلا بالحب، فالحب ثمرة المعرفة، والمعرفة ثمرة الحب. الإنسان في حال الحب يعرف محبوبه، وفي حال المعرفة

يحب معروفه، فهما وجهان لحقيقة واحدة. فلا سمو روحي إلا على أعتاب المحبة، وبالحب وحده يثبت الإنسان وجوده، ويحيا حياة مشرقة.

ينبغي أن يكون الحب أصل جميع أعمالنا، قد نحقق إنجازات عديدة في الحياة، ونعتقد أن هذه الإنجازات تقربنا من الله، قد يدخل ثواب هذه الأعمال في رصيدنا إن كانت خالية من الشوائب، ولكن الحقيقة الله يريد منا الحب قبل كل شيء. البعض يقول إن الأعمال الصالحة مصاديق للحب الإلهي.. هذا صحيح، ولكن هذا الوصف يجعلنا نعمل ونكدح في الحياة كروبوتات وآلات تعمل الصالحات دون أن تعي وتدرك لمن تعمل، تعمل بدافع الخوف تارة وبدافع الرغبة تارة أخرى. الله يريدنا أن نعمل لأجله ولا يكون هذا إلا بمعرفته، ولا تكون المعرفة إلا بالحب، ألا يقول الأمير: "وهل الدين إلا الحب" وحين يتحدث عن الدين يقول: "أول الدين معرفته" ثم يربط الباقر (ع) بين الاثنين فيقول: "الدين هو الحب، والحب هو الدين".

نعم الأعمال الصالحة تجعل لك رصيداً في عالم الغيب، ولكن.. أخبرني عن علاقتك مع الله، كيف هي؟ هل تم حصرها بالأعمال الصالحة، الله يريدك أنت بالدرجة الأولى، يريدك أن تهتدي إليه، أن يصطنعك لنفسه، يذيقك من لطفه وحنانه ﴿وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا﴾. أن تستشعر وجوده في لحظاتك وخواطرك. حينها سيقود الحب أعمالك، ستعرف ما عليك فعله وما ينبغي تحقيقه، الحب سيكون دليلك وسيصقل ما تقوم به. كما جاء في الحديث: "إذا أحب الله تعالى عبداً ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقهه في الدين، وقواه باليقين، فاكتفى بالكفاف، واكتسى بالعفاف" فالحب يفتح لك أبواب العمل بوعي رباني وبتوجيه إلهي.

حين تساعد شخصاً ما فإنك ستؤجر، ولكن حين يقودك الحب ستلامس روحك روحه وقد يفتح هذا التلامس آفاقاً روحية لم تكن تدركها سابقاً.

قد تتصدق على الغير بما تعتقد أنها أموالك.. هذه الأموال لن تدخل خزائن الله، لأنه هو من أعطاك إياها، من أين أتيت بها، لقد منحك ووهبك إياها، فهو يعطيك ثم يستقرضك، فتدخل في حسابك الشخصي لا في ملكوت الله. ولكن حين يقودك الحب ستعلم أن الله جعلك وسيلة لإيصال رزقه للآخرين، فيكون عطاؤك استرجاعاً لرزق ملكك إياه لفترة من الزمن..

كما أن هناك فرقاً بين أن تعطي صدقة كي تقي بها الحوادث والعوارض أو تدفع بها الأمراض وتداوي بها العلل، وبين أن يكون لديك شعور أن ما تملكه ليس بالأصل هو لك فتقول بكل حب لله أنا أعطي ما منحته لي بدون أية شروط فهو منك وإليك.. فـ ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾..

هناك من يعتقد أنه لابد أن يعمل كثيراً ليحظى على رضا الله سبحانه وتعالى. الحب والقبول لا يقاس بالكثرة، لأن لا شيء مهما عظم من الممكن أن يجعلنا من الشاكرين الحقيقيين. الله يريد منا عملاً قليلاً مع حب وشعوراً وجدانياً قوياً. ما نفع أن نعمل ليل نهار وينصب جهدنا في ذات العمل وحيثياته وجزئياته وننسى لمن نعمل، صحيح أننا نقول: "إن عملنا لله" حين نُسأل أو حين نخلو بأنفسنا، ولكن هل كنا تحت سلطان الشعور الآني القوي.. تحت وطأة اللمسات الروحية المحبة أثناء أعمالنا، هل ننسى أنفسنا وقت العمل حين نشعر أننا أداة بيد الله نستشعره في كل لحظة.

ينبغي أن تنطلق الأعمال الصالحة من أرضية الحب، وفي المقابل ينبغي أن تؤدي الأعمال الصالحة إلى الحب، فالله أمرنا بالعديد من الأشياء لا لذاتها ولكن لتفتح لنا هذه الأعمال والممارسات بابا نعرج فيه وإليه، وحين يفتح هذا الباب ستضاعف فيه أعمالنا، وسنشعر بحالة من الأنس في كل تلك الأعمال، ستكون صلاتنا بحب وصومنا بحب، وزكاتنا بحب، وصدقاتنا بحب. ومن هنا يكون ثقل أداء العبادات مرجعه إلى غياب الحب، الذي يحول العبادة إلى عادة.

من أولى مهام الوالدين تجاه أبنائهم غرس فسائل حب الله في قلوبهم وإغراقهم بفيض مشاعر المحبة، وتقريب صورة الله لديهم بالنعم. فنعلمهم أن كل شيء حسن وجيد فهو من الله، والأشياء السيئة هي تنغيص وقتي كي ينقلنا الله من حال إلى حال. قبل كل شيء ينبغي غرس أشجار الحب في حدائق قلوب الأبناء، قبل تعليمهم أية أحكام شرعية، وقبل سرد القصص والحكايات والأحاديث التراثية، ينبغي أن نعرفهم بينبوع الحب الأزلي والسرمدي ونقوي علاقتهم الروحية بالمدد الغيبي، فما يُبذر في أرضية الطفل منذ الصغر سيشكل نمط حياته في الكبر، وكما قيل التعليم في الصغر كالنقش على الحجر.

الآن وقد عرفنا شطراً عن مفهوم الحب وأصله التكويني وأهميته في المعرفة.. فإن هذه المعلومات تكفينا، ويبقى علينا الثقل الأكبر وهو الشعور بالحب. لا نخدع أنفسنا حين نعتقد أن مجرد التفوه بكلمة الحب يعني تحققه. قال النبي (ﷺ): "أحبوا الله من كل قلوبكم" ألا تجعلنا هذه الكلمات نعيد النظر في علاقتنا مع الله. ألا نعتقد أن شعورنا تجاه أزواجنا أو أبنائنا أو والدينا يزخر بالحب أكثر مما نشعر به تجاه الله.. لا تقل إن العلاقة مختلفة ومفارقة بين المثالين، الله لا ينظر إلى هذه المفارقة لأنه حين يتحدث عن الحب يقول: "أنا حبيب من أحبني

وصديق من صادقني وأنيس لمن أنس بذكري".. هو لا يضع تلك المفارقات التي نبرر بها جفاء مشاعرنا تجاهه سبحانه وتعالى. بل إنه حين يعدد ما يمكن أن يأخذ لباب قلوبنا ونفوسنا، يجعل ذاته المقدسة ضمنها ﴿قلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ﴾ وبالتالي فإن الله يتوقع منا مشاعر روحية وقلبية خالصة كالتي نستشعرها تجاه من نحب سواء كانوا أشخاصاً أو أشياء.

لذلك نقرأ في الدعاء: "سيدي أنا من حبك جائع لا أشبع، أنا من حبك ظمآن لا أروي، واشوقاه إلى من يراني ولا أراه". إن من يطلب حقيقة الحب ينبغي أن يغوص في الأعماق، فطالب اللؤلؤ عليه أن "يغوص في الأعماق فما على الشاطئ غير الزبد".

الزهور الجميلة قد تمتع ناظريك بألوانها الزاهية وأشكالها الجميلة، ولكن ما فائدة الزهور إن لم يفح أريجها في المكان. الحب هو الرائحة المنبعثة من الوعي الروحي والوجداني تجاه من أوجدك من العدم في هذا العالم الذي تأسس على أرضية الحب الإلهي..

حين نعي مفهوم الحب الحقيقي سوف ندرك أن الله لا يهيئ لنا الظروف الموضوعية التي تجعل حياتنا الأرضية أشبه بالجنة، أو كما عبر عنها بالحياة الطيبة ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ فحسب، بل يريد أن ينقلنا - إذا أدركنا وعي المحبة - إلى عالم الفردوس ذاته، إلى المكان الذي هاجرنا منه. فحين نندمج شعورياً بوعي المحبة بصفائه ونقائه وتجلياته وأنواره فهو ينقلنا إلى حيث بساط الوجود الأول الذي شيد من خلاله الخلق.

أعظم مكتشف في الوجود

الحب كالجمال.. فالجمال ليس شيئاً نراه، بل هو شيء نكتشفه، وكذلك الحب.

لهذا يعد المحب العاشق أعظم مكتشف في الوجود، استطاع أن يكتشف دون غيره معنى الحب ويدرك حقيقة المحبة، لقد أكتشف أعظم كنز وأبهى جوهرة في الحياة.. اكتشف ما يعده البعض وهمُ خيال أو شاردة من أساطير الأولين.

لقد استشعر ومضات أنواره وتجليات آثاره فلم يعد أسطورة بالنسبة له، لم يعد خيالاً أو أفكاراً أو مفهوماً، لقد غدا واقعاً حياً بكل أبعاده، يعيش معه يراه، يتنفسه، يحاكيه، ويستشعره. لم يعد وحيداً فهو ملازم له، لم يعد كئيباً فالبهجة مرادفة له، لم يعد حزيناً فالبسمة مرافقة له، لم يعد يهتم بالمنغصات والمحبطات فكل شيء يتبدد ويتلاشى بوجوده.

من يكتشف الحب خلال سني عمره يتصدر قائمة المكتشفين والمبدعين والمبتكرين أثناء استضافته الأرضية. فلا شيء يضاهي اكتشاف الحب واستشعار كنه المحبة، هو أشبه باكتشاف غدير ماء في صحراء قاحلة قد أضناك فيها التعب وأوشكت نفسك على الهلاك عطشاً. فغدير الماء حينها يمثل أعظم اكتشاف قمت به في حياتك، وهكذا الحب حين تقوم باكتشافه في صحراء الحياة القاحلة.

بمقدور أي واحد منا أن يكون أعظم مكتشف في الحياة، فقط دع عنك الكلمات وشاهد الآيات والدلالات، دع عنك الأنا والمسميات وأبصر الإشارات والعلامات، دع عنك الحول والتحولات وركز على تدفق فيض الحب في الخلوات، أثناء الصمت في النفس وفي كل الخطوات. وكن كالفراشة يشدها نور الوجد فتلقي بنفسها بأحضانه دون مبررات.

ليس الحب وهماً وخيالاً.. إنما الوهم أن تعيش حياتك دون أن تكتشف مكنونه بأعماقك، فالحياة بلا حب خرافة ترسخت في عقولنا عبر أحقاب زمنية متوالية، لهذا أصبحت نظرتنا قاصرة ومحدودة تجاه الحب خاضعة لبرمجتنا العقلية. نعبد الله ونمارس طقوسنا وشعائرنا لأنه لا يوجد بديلٌ عن هذا في علاقتنا معه، لقد تم ستر وكتم وطمس البعد الشعوري والروحي في علاقتنا مع مصدر ومنبع المحبة في الوجود.

اكتشف هذه العلاقة الروحية.. اكتشف الحب لتكن أعظم مكتشف على الأرض، لا تكن أنانياً فتمنع الحب أن يطرق بابك، لا تكن معانداً بآرائك متخيلاً أن ما أنت عليه هو الكمال والحق المطلق ولا داعي لاختبار شيء آخر.. فالحب لا ينساب في القلوب المتعنتة الصلدة، يبقى يحتويها ويحيطها من الخارج يطرقها بلطف منتظراً اللحظة التي يترقق فيها فيباشر بالدخول كبذرة نور صغيرة تنمو على إيقاع نبضات القلب ترتوي من تراتيل الذكر، وتتنفس من نسائم الصمت وتحتمي من الرياح القوية بسياج الفكر المتناغم والعقل الراشد.

في يوم ما سوف نفقد كل شيء.. الصحة، المكانة، الوجاهة، الكرسي، السمعة، الثروة، الزوجة، الأولاد. لا يبقى لنا سوى الحب والعلاقة الروحية مع مصدر المحبة. حينها نكون قد ملكنا كل شيء، لا نشعر بالغربة فالأرواح المحبة تكون بالقرب منا، فلا نكن مشغولين بأنفسنا بل مشغولين بأنسنا بهم ومعهم.

عايشت حالات لأناس تضطرب لأتفه الأسباب، وتتذمر لأبسط المشاكل، وتئن لأقل المعضلات على الرغم من إيمانهم الديني، إلا أنهم لم يؤسسوا في حياتهم علاقة روحية عميقة تقوم على الحب الأبدي الخالد. الحب الذي يقوم على أرق وأجمل المشاعر الوجدانية مع حبيبنا الأبدي. فالحب العقدي والفكري المنطوق لا يسعفنا في مثل هذه الحالات، فقولك لشخص ما أحبك لا يعني أنك نسجت خيوط التواصل الروحي معه مالم تُعبر كل خلاياك عن هذا التماهي كأنغام تعزف ألحان الوجد على أغصان الشوق في بساتين

القلوب، كما قال زين العابدين: "واجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق في حدائق صدورهم".

الآن.. لتكن بداية يقظة عميقه في مفهوم الحب الروحي والإلهي بعيداً عن التعقيدات والتحليلات والنظريات. حباً شعورياً وجدانياً روحياً يفيض من القلب فيخترق حجب النور حتى يصل إلى معدن العظمة. تأمل كثيراً.. أصمت أكثر.. تفكر ملياً.. اترك عنك الكثير والكثير مما يشغلك مما لا يعول عليه، تنفس المدد، انظر باعتبار، تعامل بلطف، توشح بالهدوء، انشرح بالتبسم، تروى بالحكمة، عانق الطبيعة، افرح كالطفل، تهجد كعارف، اختل بنفسك كهارب، راقب أفكارك كراصد، واذكر حبيبك كعاشق.. ولنتذكر دوماً الحديث القدسي: "يا ابن آدم خلقت كل الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي، فلا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك لأجله".

علاقة الروحانية

بالقوانين الطبيعية والسنن الكونية

نستطيع حصر علاقة الأبعاد الروحية بالقوانين الطبيعية والسنن الكونية في أربعة مبادئ أساسية ومهمة:

أولاً: ضرورة الانسجام والشعور والتماهي مع الطبيعة.

ثانياً: انعكاس القوانين الطبيعية كصورة مرئية للقوانين الروحية.

ثالثا: وحدة القوانين وسنن الخلق في كلا العالمين.

رابعا: التأمل والتمعن في ذات الطبيعة.

وسنأتي بشرح كل بعد من هذه الابعاد بالتفصيل..

المبدأ الأول:

ضرورة الانسجام والشعور والتماهي مع الطبيعة

فالانسجام مع المملكة.. اقتراب من المالك

سكان الغابات الاستوائية والأدغال وحتى الهنود الحمر في الصحاري القاحلة يعيشون حالة من التناغم الشديد مع الطبيعة، بل مع كل ما يحيطهم. تصل حالة التناغم إلى حد الشعور والإحساس المرهف المتداخل بين الروح والمادة، فقدرة السمع والبصر والحدس والتخمين والاتصال بالموجودات أضعاف ما يملكه سكان المدن.. والضوضاء.

في مذكرات قديمة لأحد المستكشفين أثناء رحلته في غابات وأدغال الأمازون حين كان يسير في قافلة فيها العديد من العمال الذي كانوا يحملون الأمتعة والخيام، أصيبت إحدى

عينيه بمرض جعلته يتألم ويتأوه منها، حتى تورمت وتقيحت دون أن يعرف سبباً لما أصابه. وفي أثناء سيرهم توقفت إحدى العاملات وقصدت شجرة معينة فاقتطعت من لحائها شيئاً قليلاً، أخذته وطحنته بأداة كانت تحملها - هاون صغير - وقالت له: ضع هذا على عينك..

فقال لها: ما هذا؟ هل هذا علاج؟ هل جربت هذا النوع من العلاج من قبل؟

فقالت: لا لم أجربه، لكن حديثاً داخلياً في أعماقي أشار إليّ بأن علاجك في لحاء هذه الشجرة، ودعاني لآخذ منها وأعطيك إياه. ثم التفتت إليه وقالت: هكذا نحن نعالج مرضانا.

لم يكن أمام المستكشف إلا أن يخضع لعلاجها بشيء من التردد والتوتر والخوف.. فالعين عضو حساس للغاية، وأي خطأ في التشخيص قد يؤدي إلى نتائج وخيمة، إضافة إلى ذلك أن المرأة لم تختبر هذا النوع من العلاج سابقاً في حياتها.

وضع الضمادة التي كانت تحوي العلاج على عينه، وأخذ قليلاً من لحاء الشجرة معه ووضعه في جيبه. بعد ثلاثة أيام بدأت عينه تتشافى ويزول الألم، وفي اليوم الذي يليه تشافت عينه تماما من المرض وعادت سليمة كسابق عهدها. وحين رجع إلى دياره أخرج العينة التي وضعها في جيبه وذهب بها إلى المختبر ليحلل محتواها، فوجد أن بها العديد من المركبات المفيدة التي تقضي على الميكروبات والفيروسات وتساعد في التخلص من التقيحات.

يستغرب البعض ويتساءل: كيف بمقدور سكان القرى النائية أو سكان الغابات العيش سنوات طويلة مع كثرة الأمراض والأوبئة التي تنتشر هنا وهناك؟ كيف يستطيعون تحمل العيش بالعراء دون أسرةٍ أو مراتب أو حتى سقف يقيهم تغير الأجواء؟ ولماذا يشعر

الواحد منا بالخوف أو الهلع لمجرد بياته ليلة أو ليلتين في تلك الأجواء؟.

ليس الأمر متعلقاً بالعادة، أو التعود فقط، ولكنه مرتبط بالتناغم والانسجام والتآلف. فرُب متعود غير منسجم أو متآلف، يقوم بعمل ما تعود عليه قسراً.

حين ينسجم الإنسان مع محيطه، ويتآلف مع متغيرات حياته، يشعر أنه أصبح جزء من المحيط الذي يكتنفه ويعيش فيه، فتتطابق نبضات قلبه مع كل الموجودات، حينها سُتيسر أموره بشكل طبيعي دون تشنج أو معوقات. يشعر بأن نواياه تتحقق بشكل مذهل ولو بعد حين، وأن إيقاع حركته يغلب عليها الحيوية والفعالية والنشاط، فلا قلق يمتطيه ولا توتر يزعجه ويردديه.

لذلك وَجدتُ سكان القرى في أفريقيا لا تفارق الابتسامة شفاههم، تخترق ضحكاتهم سكون الليل بصداها الممتع الذي يبعث على البهجة والانشراح، على الرغم أنهم لا يملكون إلا قوت يومهم، حفاة الأقدام، ملابسهم لا تستر إلا القليل من أجسادهم.

أما نحن فقد وضعنا سدوداً تحول بيننا وبين هذا الانسجام من غلبة الأنا والخوف والجشع والأنانية وحب التملك والسيطرة والاستعلاء على الغير. حتى بتنا نتمحور حول أنفسنا ونسترسل في وضع سيناريوهات مؤلمة تنغص علينا معيشتنا، ونُمني أنفسنا بمقتنيات فوق طاقتنا، فنهدر حياتنا رغبة في جمعها والحصول عليها. بتنا نخلق سدوداً في أفكارنا، سدودا تمنعنا حتى من التفكير ثم نلزم أنفسنا باتباعها والتمسك بها.. بتنا كل يوم نتوقع ونتنبأ بأحداث مأساوية ستحدث، بتنا نرى لأنفسنا استحقاقاً لا يماثله أحد، وتماهينا مع أجسادنا إلى درجة الخلود.

هذه الأمور وغيرها أبعدتنا عن حقيقية الانسجام مع الحياة والتآلف معها، حين لا نضع عوائقاً وسدوداً في تفكيرنا، حين

نتخلص من الخوف والكآبة والجشع والطمع والاحتواء والتملك.. حين تذوب الأنا في حكمة الذات وتتلاشى الأفكار في لباب العقول.. سيحدث انسجام مع الطبيعة من حولنا.

الحياة أشبه بغابة نرتادها أثناء وجودنا الأرضي.. وبما أن سكان الغابة لا تستقيم حياتهم إلا بالانسجام التام مع كل مفردات محيطهم، كذلك الحياة لا يمكن أن تستقيم إلا بهذا الانسجام. صحيح أن تماسنا وعلاقتنا بالطبيعة أقل بكثير من علاقة من تشرب بها واعتاش على خيراتها منذ نعومة أظفاره، إلا أننا بالقدر المحدود الذي تتيحه لنا الحياة ينبغي أن نوطد وننسجم في هذه العلاقة.

سكان الطبيعة مضطرون للتعلم من كل شيء يمرون به، مضطرون لخوض تجارب مستمرة ومتعبة مع الحياة، يأخذون العبر والدروس من حكماء قريتهم، يتعلمون كيف يصطادون وكيف يأكلون وكيف يشعرون وكيف يبنون بيوتهم.

هناك.. في الغابات لا يقطعون الشجرة - التي تم تحديدها - لبناء بيت جديد إلا بعد أخذ الإذن منها والحديث معها، فيسمعونها كلمات مقتضبة: "اسمحي لنا أن نستغل جذعك وأغصانك لبناء بيت جديد، اسمحي لنا أن نحولك إلى شيء آخر يعود بالنفع للآخرين" يفعلون هذا ليكون منزلهم مباركاً لا غصب فيه أو إجبار أو هيمنة كاذبة.

أما نحن.. فلا نغتصب الأشجار والأرض والماء والطبيعة فقط، بل نستبيح دماء الإنسان ونهتك حرماته ونجرده من كل حقوقه. حياتهم في انسجام تام.. أمن الممكن أن نكون مثلهم؟

الانسجام والتناغم هو الخطوة الأولى الأهم في التواصل الروحي، فبدون التناغم مع النفس والذات والمحيط والأشياء من حولنا لا يمكننا التقدم خطوة أخرى للأمام.

ومن هنا نعلم لماذا كان النبي (ﷺ) يسمي أغراضه وأمتعته من السيوف والرماح والدروع والتروس والإبل والخيل.. فكان يسمى عمامته البيضاء بالسحاب وسيفه المأثور ورمحه المثوى وترسه الذلوق ودرعه السفديه وقوسه الكتوم وفرسه سكب وهكذا بقية الأشياء..

وتسميه الشيء تدل على الصلة والأثر، وكأن النبي (ﷺ) كان يتعامل مع أغراضه وحاجياته ككيانات لها شعورها الخاص، وهذا الشعور المتبادل نجده جليا في أنين الشجرة (التي كان يتكئ النبي عليها إذا أراد أن يخطب بالناس) الذي سمعه الصحابة حين نصبوا للنبي منبراً بديلاً عنها..

ولا تخفى على أحد قصة الفقير الكفيف الذي كان أمير المؤمنين يزوره ليلاً ليطعمه.. وحين استشهد افتقده لثلاثة أيام، فبقي وحيداً في غرفته إلى أن مر الحسنان - عليهما السلام - بالقرب من داره فسمعوا أنينا من خلف الباب، فطرقوا الباب واستأذنوا الدخول وسألوه عن حاله: فقال: "كان يأتيني رجل كل ليلة يطعمني من رزق الله، وقد أبطأ عني لثلاثة أيام، ولا أعلم عن حاله"، فسألاه عن اسمه، فقال: لا أعلم.. فقالا له: "هل من إشارة تدل عليه.. فقال: "أجل.. حين كان يلقمني الزاد كان يسبح الله، فأسمع تسبيح كل شيء في البيت يسبح معه".

التوافق والتناغم مع الطبيعة بكل أبعادها خطوة أولى تنقلنا إلى التناغم مع قوانين الخلق وبالتالي مع الخالق عز وجل. فلا يمكن لمن يرجو الله واليوم الآخر أن يحتقر مملكة الله التي يعيش عليها، فنحن ضيوف في هذه المملكة سنرتحل عنها طال بنا الزمن أو قصر.

حين نحترم ونقدر محتويات هذه المملكة.. نشكره على رزقه الوفير، ونحمده بعد الانتهاء من الأكل، ونسبحه حين نرى الشروق، ونهلله حين نرمق السماء.. نمشي بتواضع على

الأرض التي تقلنا.. حتى حين نشير بإصبعنا أو بأيدينا إلى شيء ما، ينبغي ألا يكون بعصبية وتشنج بل بهدوء وروية..

نشرب الماء ونشعر بسريانه في عروقنا، فهذا الشعور هو الحمد الحقيقي. نلتفت يمينا ويسرة مع إحساس بعظمة الأعضاء التي مُنحت لنا، حين نمشي وتلامس أقدامنا الأرض نستشعر عظم الروح التي تحمل ثقل أجسادنا، نرى الجمال من حولنا فنستشعر عظيم فضله علينا.

حين نقول: إن التناغم مع المملكة يؤدي للتناغم مع المالك، لأن كل ما في المملكة هو للإنسان، والإنسان وحده للمالك الحقيقي. وهذا الانسجام يولد القرب، بل يُولد الحنان الإلهي ﴿وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً﴾ في الانسجام لا تشعر بالغربة ولا بالوحدة، بل تشعر بالقرب والمحبة، حين تتكالب عليك المنغصات والمكاره فأنت مستوطن حضرة وجوده.

في حال الانسجام ستعرف أن كل ما تتعرض له من محن وابتلاءات وصعوبات ليست لتدمرك أو لتنال منك بل لتختبرك ولتمتحن صبرك وإرادتك، وأن القوة الإلهية التي منحها الله إيانا أكبر بكثير من مخاوفنا، وأن الإفاضات الروحية عصية على كل منغصات الحياة.

التماهي مع الطبيعة من أقوى محفزات الاستنارة الروحية، لذلك نجد أنبياء الله ورسله بزغوا من قلب الطبيعة، وناداهم ربهم من قلب الطبيعة، واختبروا مخاض ولادتهم الروحية من رحم الطبيعة، فمن تأمل نبي الله إبراهيم (ع) للنجوم والكواكب، وما شهده طور سيناء من مخاض ولادة موسى (ع) في تجربته الأولى، إلى عزلة وسياحة عيسى أربعين يوماً في الصحراء، إلى تأمل ومناجاة النبي (ﷺ) في غار حراء. كلها صور تعكس علاقة التوحد الروحي بين الإنسان والطبيعة، وبما تغرسه من صفات الصبر والتحمل والمثابرة واللين والاجتهاد وتعَشق صور الجمال

وبما تحمله من آفاق التفكر والتدبر في ملكوت السماء والأرض.

فحياة الطبيعة تدعم حياة الروح البشرية، ومن هنا ندرك سر الاختلاف في الطبائع والأمزجة البشرية، بين سكان القرى والمدن، أو بين سكان المناطق الجبلية والساحلية، أو بين المناطق الصحراوية والريفية.

ولأهمية هذه العلاقة التي انتبهت لها المذاهب والمدارس الروحية القديمة منها والحديثة، فقد اختارت أن تستوطن وتشيد مؤسساتها ومراكز عملها في أماكن نائية من الطبيعة وتستخدم في بنائها الأدوات والتقنيات الطبيعية، بل أن البعض منها يمنع استخدام أية تقنية حديثة سواء في وسائل المواصلات أو الاتصالات، فحتى ترتاد أحد هذه الأماكن ينبغي عليك أن تودع كل مقتنياتك التكنولوجية الحديثة في مخزن - كشك - يبعد أكثر من كيلو متر عن مكان إقامتك. كما أنهم جعلوا الاستيقاظ مبكراً لرؤية شروق الشمس والتمتع بجمال الطبيعة والمشي حافي القدمين والتأمل في الآفاق البعيدة أحد أهم البرامج اليومية.

لماذا نثير هذه الفكرة ونذكرها بهذا التفصيل:

حب الطبيعة والتماهي معها بكل أشكالها وصورها يدعم البعد الروحي في أعماقنا ويقوي أجسامنا الباطنية، فالاندماج معها والتقرب منها والاهتمام بها يُحدث شيئاً من التواصل الشعوري، فكل شيء في الوجود له درجة وعي كما سنذكر لاحقاً، وهذا الوعي يتخلله ومضات التسبيح التكويني تقريراً لقوله تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، وبالتالي فالتعامل الواعي المتناغم معها من شأنه أن يحدث تواصلاً غير مرئي في بعده الباطني. إضافة إلى أن تعشق

الطبيعة والسير فيها وتأمل خصالها من شأنه أن يبعدنا لو لبرهة من الزمن عن حياتنا الروتينية التي غلب عليها الكسل والعمل الإداري والفكري والمكتبي. فبقدر ما تتيحه ظروفنا المعيشية ومكان عملنا ومقر إقامتنا ينبغي أن نستفيد من الطبيعة ونتنعم بعطائها وجمالها الرباني.

وأخيراً نقول: إذا كان انسجام سكان الغابة مع الطبيعة يشعرهم بحالة من القرب والتوحد معها.. فكيف ستكون حالنا حين ننسجم مع القوة الكلية في الكون، أي نتجاوز حد الطبيعة إلى جوهرها ومن جوهرها إلى خالقها وموجدها؟

المبدأ الثاني:

انعكاس القوانين الطبيعية كصورة مرئية للقوانين الروحية

مراقبة القوانين الطبيعية والقرب منها والنظر إليها عن كثب، تعلمنا وتفتح آفاقاً عديدة في معرفة القوانين الروحية والنفسية، شريطة أن نتأملها بتمعن ولا تمر علينا مرور الكرام. فما ينطبق على الظواهر الطبيعية المادية ينطبق على الأبعاد الروحية والعكس صحيح، مع اختلاف النسبة بينهما، فالاختلاف في النسبة لا في الجوهر والمعنى، فصانع كلا القوانين الروحية والطبيعية إله واحد، كما أن العالم المادي بمجمل قوانينه إنما هو تجلي للعالم الروحي، بمعنى أن كل شكل أو صورة نراها أو نستخدمها في حياتنا لها صورة وخلق أولي سابق في العالم الأثيري.

والآن..

دعونا نختبر أحد هذه القوانين.. درجة الغليان

البعض تنفتح أساريره حين يقرأ أو يسمع عن السمو والتطور الروحي، فيشعر بانجذاب قوي حين يبحر في مثل هذه المواضيع، فهو ينشد إليها ويبذل جهداً مضنياً في البحث عن

شاكلتها من المواضيع التي يشعر أنها تروي عطشه القلبي والوجداني في زمن جفت فيه المجالس العامة عن الإشارة إليها لا من قريب أو بعيد..

وهذه حالة إيجابية تشرح الصدر وتبشر بالخير، ولكن كثيراً ما تعقب هذه الحالة، شعوراً بالإحباط والتذمر نتيجة تأخر حصاد نتائج هذا التوجه الروحي، وعندها يبدأ في التساؤل عن سبب هذا التأخير: متى سأشعر بتلك الحالة الروحية؟ متى سيصبح فكري صافياً وقلبي مصقولاً؟ متى سأشعر بالصمت الداخلي والسكون النفسي؟ لقد داومت ردحاً من الزمن على أذكار وأوراد وتأملات.. ولكن لا زلت لا أشعر بشيء؟ إذن متى سأشعر؟

حين نضع وعاءً من الماء على النار لغليه، لا يمكننا أن نطلب من الماء أن يتبخر ما لم يصل إلى درجة الحرارة المطلوبة لغليانه وتبخره، فهذا قانون طبيعي لا يمكن تجاوزه. هناك درجة معينة يصل إليها الماء، بعد ذلك نراه يبدأ يتقلب ويتحرك ومن ثَم يبدأ في الغليان والتبخر ويتصاعد عالياً معلنا بداية تحوله إلى مادة أخرى.. يتحول من مادة سائلة إلى مادة بخارية شفافة تعلو وتتداخل في محيط آخر.

لا يعني عدم تبخر الماء أنه لم يعد ساخناً، ولا يعني سكونه أو هدوءه وعدم تحركه أنه لا زال بارداً، كما لا يعني أنه لن يتبخر، هو فقط ينتظر الوقت المناسب والدرجة الملائمة لكي يتحرر من شكله السائل ويتحول إلى بخار في الهواء. هذه أربعة أمور في غاية الأهمية ينبغي أن ننتبه لها جيداً.

حين نمارس التجربة الروحية ونضع أقدامنا في بداية الطريق، ونبدأ في التأمل والتفكر والذكر وتنقية الباطن من الأفكار، والقلب من الأوهام، ينبغي علينا ألا نتسرع ونطلب

النتيجة، فالروحانية رحلة وليست نتيجة. هي رحلة لا تنتهي، تسخن فيها قلوبنا شوقاً كلما ازداد تولهنا، كالماء الذي يسخن رويداً رويداً. كما لا يعني عدم شعورنا بالألق الروحي عدم تأثر المستويات الروحية الداخلية، فعدم فوران الماء لا يعني عدم تحول جزيئاته وزيادة حرارتها.

لذا يكفينا أن نبدأ ولا نفكر بتلك النقلة النوعية التي نتوقعها إلا حين يأتي وقتها المناسب. لأنها باختصار نقلة تتعلق ببعدين وعالمين، وليست منوطة بنا فقط، علينا أن نجهز أنفسنا ومتاعنا وعدتنا ونترك قيادة الرحلة للدليل الإلهي الذي يأخذ بأيدينا إلى حيث الأمان.

بداية الرحلة الروحية تُعبر عن مجملها وجوهرها.. لذا يخطئ من لا يشعر بالمتعة في بداية الطريق، لأن روعة ومتعة البداية والنهاية متماثلان لأنهما شيء واحد، حين تبدأ فقد وصلت، تبقى فقط عملية التحول من حال إلى حال، بدون الشعور بهذه المتعة والبهجة والسرور القلبي في بداية الطريق، أو التذمر لانتظار النتائج الملموسة، لا يجعل عملية التغير تتم بشكلها الطبيعي..

لأن عملية التحول الأخيرة ليس بأيدينا، هي بيد الله سبحانه وتعالى وحده، علينا أن نهيئ أنفسنا ونستشعر معدل ارتفاع الحرارة في قلوبنا وكياننا، وتبقى النقلة الأخيرة.. التي ستحولنا من حال إلى حال آخر.

حين تتحرر النفس من المادة وتنطلق عاليا "كما يتحرر الماء ويتبخر" ستعتريها حالة من النقاء والخفة والشفافية، حتى إذا عادت مرة أخرى إلى الجسد، لا تكون حين عودتها كسابق عهدها ثقيلة وحادة ومشتتة ولاهية، بل تكون في غاية اللطافة والنقاء والتوهج، فالماء الذي يتم تكثيفه بعد عملية التبخر يكون نقيا

خالياً من الشوائب سائغاً لذة للشاربين، لن يعود الماء كما كان، ولن تعود النفس كما كانت.

إن أبطأت عنك الإجابة فلا تتذمر ولا تتعب ولا تيأس، "فكيف ينساك وأنت تذكره" هو يذكرك من غير أن تذكره، فكيف ينساك وأنت تذكره، ولكن لكل روح وقت معلوم وأمد محدود وخطة إلهية مرسومة بإتقان بيد حكيم خبير.

نحن نعلم أن درجة غليان الماء الطبيعي 100 درجة مئوية، ولكننا لا نعلم بالضبط كم هي درجة غليانه إن كان الماء عكراً أو ملوثاً أو تحت ضغط جوي مختلف أو حين يحتوي على مكونات تتطلب حرارة أعلى لكي يتحول من حال إلى حال..

لذلك ينبغي أن تبقى النار مشتعلة، مستمرة في الاشتعال وفق ما تتطلبه مكونات الماء وشروطه الموضوعية، كذلك ينبغي لبعض النفوس أن تبقى مشتعلة متوقدة على الخصوص تلك التي تحتاج إلى صفاء ونقاء أكثر، النفوس التي تخالجها بعض العقبات.

ينبغي أن نتذكر أن الطريق الروحي لا نهاية له، تتجلى مقاماته وأحواله تباعاً، تستوقفه حالات يظن أنها النهاية، وأنه وصل إلى هدفه، فما يلبث هنيئة حتى تنفتح له أبواباً لا تحصى وسبل لا تعد..

فبداية الطريق أنس ونهايته فرح وكلاهما يتناوبان، هناك حالات مد وجزر تحدث في البحار، وهناك حالات قبض وبسط تحدث للأرواح، فلا تتذمر من حالة القبض فتلك حالة قد تنقلك إلى مرحلة أسمى وأرفع، وقد تكون هي الدرجة المناسبة للغليان.

الوسطية وحركة البندول

كمثال آخر على القوانين الطبيعية نذكر قانون حركة البندول المادية المتأرجحة وكيف تعكس حقيقة مفهوم الوسطية.

لا تعني كلمة الوسط أو الوسطية التي جاء ذكرها في القرآن الكريم نقطة فارقة بين بعدين، أو حالة وسط بين حالتين، أو حد وسط بين حدين، أو خيار وسط بين خيارين، فنقول: أن الدين يدعو إلى الوسطية بين الشدة واللين أو بين الانفتاح والتزمت، أو بين المهادنة والتطرف، أو بين التسرع والركون، أو التوكل والتواكل وما أشبه..

فالوسطية بالمفهوم الديني لا تعني كما يشاع في التفاسير أنها مرحلة بينية بين تشدد اليهودية وتسامح المسيحية في تفسيرهم للآية ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ فالآية ليس لها قرينة وارتباط باليهودية أو المسيحية، وإنما تعني الوعي والحكمة والإدراك المستنير والتوازن والعدالة والميزان الذي لا يميل ولا ينصرف إلى اتجاه متطرف..

فحين نربط الوسطية بمشاعرنا الزمنية، فهي تعني أن لا يجرنا الماضي ونعيش آلامه، ولا نغتر بالمستقبل ونترقب أحداثه. وبالتالي لا تعني أن نفكر قليلاً في الماضي وقليلاً في المستقبل بل تعني رفض الجانبين والعيش في الحاضر والآن.

تعني ثبات الفكر من أن ينفلت زمامه فيتجه شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً.. أي أن نُحكم حركة العقل والفكر وعدم زيغانه واضطرابه وتشتته.

تعني أن لا نكون عرضه للضغوط التي تخرجنا عن حالة الارتكاز والثبات والتي توجه حياتنا بعيداً عن حقيقة السيناريو الذي خلقنا الله من أجله.. فالوسيطة في الأكل لا تعني البينية بين الجوع والتخمة ولكنها تعني الأكل السليم الصحي المتوازن..

والوسطية في الانفاق لا تعني البينية بين الإسراف والتبذير وبين البخل والتقتير، ولكنها تعني الانفاق بحكمة ووعي وأن يكون في مكانه المناسب.

والتربية الوسطية لا تعني البينية بين التزمت والدلال ولكنها تعني التربية المؤسسة على القيم والمبادئ السليمة.. لذلك حين يذكر الله في كتابه: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ فلا يعني أوسطهم عمراً ولكن أكثرهم توازنا وحكمة وبصيرة ووعياً.

ولأن المفسرين أخذوا كلمة الوسط بلفظ البينية بين شيئين فقد اختلفوا كثيراً في تحديد الصلاة الوسطى في قوله: ﴿حَافِظُواْ عَلَى الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الْوُسْطَى وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ﴾ حتى أوردوا ما يقارب من خمسين رواية - كما جاء في الدر المنثور للسيوطي - تشير إلى الصلاة الوسطى، فمنهم من قال إنها صلاة الظهر، ومنهم من رجح إنها صلاة الفجر، ومنهم من أكد إنها صلاة المغرب، ومنهم من قال إنها صلاة العشاء، ومنهم من قال إنها صلاة الجمعة، ومنهم من قال إنها مخفية بين الصلوات كليلة القدر بين الليالي.

في حين أن الصلاة الوسطي هي الصلاة التي يكون فيها وعيك وفكرك ومشاعرك وقلبك ووجدانك متوجاً نحو نقطة مركزية ثابتة تحددها تكملة الآية ﴿وَقُومُواْ لِلّهِ قَانِتِينَ﴾ أي في حالة من الاستكانة والتوجه القلبي وخشوع الجوارح، لذلك يخاطب الله مريم عليها السلام ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ﴾ فالقنوت حالة العبادة بتوجه روحي منقطع عن المؤثرات الخارجية.

إذن.. فالوسطية وفق البصائر القرآنية تعني ثبات الوعي في نقطة ارتكازية تمثل الحكمة والبصيرة والعدالة والرأي السديد

والهمة الموجهة، ولكن ما علاقة الوسطية بالبندول - الرقاص - الذي يتأرجح جيئة وذهاباً حول نقطة معينة؟

تفكير الإنسان أشبه بالبندول الذي يقع تحت تأثير قوة الجاذبية التي تُسارعه إلى حين الوصول إلى حد أقصى على الناحية الأخرى فيتوقف لحظة. ثم تعيده قوة الجاذبية في اتجاه نقطة التوازن، ولكن نظرًا لسرعته المكتسبة يتعدى نقطة التوازن. فيبدو لنا أنه في حالة تأرجح مستمرة، فهو يتحرك من نهاية إلى أخرى، فحركته تعتمد على عدم الثبات والبقاء في المركز.. لأنه حين يكون ثابتاً في نقطة مركزية يتوقف الزمن حينها.

فالنقطة المركزة التي يتوقف عندها البندول هي الوسطية التي تخلص الجسم من حالة الاضطراب والتأرجح والتوتر، كما إن الزمن يرتبط بالحركة، ومن دون الحركة فإن الزمن يتوقف، هذا ما يؤكده علماء الفيزياء الكونية.. لذلك أثناء التأمل الاستغراقي المركز يتوقف الزمن في وعي المتأمل فلا يشعر به.

فالحالة الوسطية (التوازن) تومئ بتوقف الزمن مما يعني توقف التفكير عن العمل.. فحين يتوقف الزمن يتوقف كل شيء، مما يعني خلو العقل من ورادات الفكر والذبذبات الدخيلة، ووساوس الأنا المزيفة، عندها يكون وعاءً للرحمة الإلهية والفيوضات الرحمانية.. يكون بمقدور هذا الوعاء استقبال الحكمة والوعي من العالم الآخر. وإلا فما الذي يمنع بذور الحكمة أن تنبت في العقل لولا هذه الواردات التي تقضي على كل بادرة من شأنها التسامي بالوعي الإنساني.

فأصول الحكمة والرشد والتوازن بحاجة إلى ذلك الفضاء الذي تتوقف فيه آلة الزمن عن العمل، وبندول الفكر عن الحركة.. وهو المعنى الحقيقي والعملي لما يُعرف بحالة الحضور،

أو العيش في اللحظة، أو اليقظة الروحية، والتي تعد مطلباً جوهرياً في كل الأعمال الروحية، فالداعي والمتهجد والمصلي والمتأمل والقائم والمتنسك كل هذه الحالات لا تتحقق إلا في حالة حضور، وكيف يحدث هذا الحضور إن لم تكن خارج حدود الزمن متوقف الفكر، متوان التفكير، في حالة من الوسطية العقلية والروحية..

ومن هنا كانت الوسطية صفة روحية متقدمة جداً تؤهل الإنسان ليكون شاهداً على الناس.. فحين تكون في النقطة المركزية للوعي الروحي (الوسط) ستكون بعيداً كل البعد عن التوتر، والاضطراب، الأنا، العصبية، التقليد الأعمى، تقديس الأفكار.. فالأمة لا يمكن أن تكون شهيدة على الناس إلا حين تتجلى فيها هذه الصفات..

فالشهادة في الشرع لا تصح إلا لمن شهد الشيء وعاينه بوضوح حتى يكون بمقدوره الشهادة عليه، مما يعني أن هذه الملكة (الوسطية والحكمة) تمكن الإنسان من كشف حقائق الوجود والاطلاع على بواطن الأمور ودقائقها أفعالها ونواياها فيكون الإنسان (الوسط) مركز وعي العالم، وميزان عدل وحكمة وفرقان حق يُقَسِم ويشهد على أعمال وأفعال العباد ﴿تَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾. وهي الصفة التي اتصف بها الأنبياء والأولياء والصالحين والصديقين في أممهم ومجتمعاتهم، وجعل الله فوق هؤلاء الوسطاء، وسيطاً مميزاً وشاهداً مقتدراً وهو النبي المصطفى (ﷺ) ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾. فالوسطية سنخ الأنبياء ومطلب الأولياء ورجاء المحبين، هي ليست أمر بين أمرين، إنما هي رؤية الحقائق الشهودية التي تؤهل الإنسان للوساطة الروحية.

كما أن الإنسان تختلط عليه المفردات ويتوهم ما يسمع حين يحادث صديقاً له في مكان تعلو فيه الأصوات والضوضاء والصخب، فلا يفهم ولا يسمع ما يقول.. كذلك العالم الآخر لا

يمكن الشعور به حين يكون فكرك منشغل على الدوام، وبندولك يتحرك باستمرار، ومشاعرك مضطربة مشتتة في الحل والترحال.. عالم كل ما تحتاج للتناغم معه أن تكون وسطياً متوازنا منسجماً داخلياً غير منقسم وغير ممزق في أقطاب الفكر.

المبدأ الثالث:

وحدة القوانين وسنن الخلق في كلا العالمين

إذا علمنا أن قوانين الطبيعة صورة مصغرة للأسس والقوانين الروحية، فإن هذا يوجهنا ويرشدنا ويدعونا إلى معرفة العديد من القوانين الروحية حين نرى ونعرف انعكاسها وصورتها المصغرة في الطبيعة. وكأن الله يريد أن يُرينا ويعرفنا بالقانون غير المرئي بصورة مرئية وعملية في حياتنا الواقعية، ويريدنا من خلال معرفة وتأمل الطبيعة وقوانينها أن نصل إلى معرفة القوانين التي تحكم عالم الغيب. ولنأخذ مثالا على ذلك كي تتضح الصورة بقانون السبب والنتيجة.

إذا قربت إصبعك من شمعة مشتعلة فإنك ستشعر بحرارة لهيبها، وإذا نثرت قليلاً من ملح الطعام على سلطة الخضار فإن مذاقها سوف يتغير، وإذا سقط فنجان القهوة من يدك وكنت في شرفة الدور الرابع فإنه بلا شك سوف يتهشم إلى قطع صغيرة، وإذا قمت في الصباح وركبت سيارتك وقدتها دون وقود فإنها سوف تتوقف بك في منتصف الطريق. هذه الأمثلة تمثل بعض قوانين الفيزياء والكيمياء التي نعايشها في حياتنا اليومية والتي لا ينكرها أو يجهلها أحد.

ولكن ماذا لو تم إيقاف نتائج هذه القوانين.. بمعنى إنك لو وضعت يدك على نار ولم تحرقك، ووضعت ملحاً على طعام ولم

يتغير طعمه، وسقط فنجان القهوة ولم يتهشم، وقدت سيارتك دون وقود أو بنزين ولم تتوقف.. بماذا ستشعر في هذه الحالات. في البدء ستصاب بالدهشة والعجب وعندما يبدأ تحليلك المنطقي بالعمل فإن أول ما ستفكر فيه أن ما وضعت يدك عليها ليس ناراً، وإن فنجانك مصنوع من البلاستيك غير قابل للكسر، وأن ما سكبته على الطعام لم يكن ملحاً وإنما شيء آخر. أما وقود السيارة فلربما هناك خزان احتياطي يعمل وقت الطوارئ.

إذن.. قوانين الطبيعة والكون مبنية على السبب والنتيجة، الفعل وردة الفعل، فما نزرعه هو ما نقوم بحصاده. وفي حال عدم حصاد النتيجة المرجوة ينبغي أن نراجع حقيقة ما زرعناه والظروف المحيطة بما فعلناه.

ولكن هل تنطبق هذه القوانين على الأبعاد الروحية والتشريعية؟

البصائر القرآنية تؤكد أن كل عمل يقابله نتيجة، وكل سلوك يقابله أثر يعود عليه بالنفع أو الضرر. وإذا لم يجن الإنسان الأثر المرجو من العمل فهذا يعني عدم إدراكه ووعيه لحقيقة ما يقوم به، أو أن هناك نقصٌ وخللٌ في الأسباب لم تؤد إلى النتيجة المرجوة.

فالعطاء والكرم يمنحان الإنسان الثقة بالمستقبل، والصمت يعمل على تلقي الحكمة، والشكر ينمي الزيادة في الرزق والبركة، وصلاة الليل تبيض الوجه وتنير القلب، وصلة الرحم تطيل العمر، والإحسان إلى الناس يجلب النعم وبهجة الفؤاد، وقضاء حوائج الناس تذلل الصعوبات، وصدقة الخفاء تقيك مصارع السوء.. وغيرها كثير.

بل أن الربط بين الفعل والنتيجة يصل إلى الحد الذي يُقسم به الله بذاته المقدسة، فنجد العديد من الأحاديث القدسية

والنبوية تبدأ بـ"وعزتي وجلالي.." إن فعلت كذا تحصل على كذا.. كما سنذكر لاحقاً..

وبالتالي.. بناء على قسم رب العزة والجلالة بين الفعل والنتيجة، فإننا ينبغي أن نراجع أعمالنا التي نقوم بها، ونتساءل هل نقوم حقاً بالعمل الصحيح لنجني نتائجه المتوقعة المرتقبة؟ هل نقوم بأعمالنا كما ينبغي أن تكون؟

نقرأ الحديث: "من تقرب إليّ ذراعاً، تقربت منه باعاً" وكلنا نعتقد أننا نتقرب إلى الله بأعمالنا وعباداتنا وطقوسنا ولكننا لا نلمس في المقابل هذا الاقتراب الذي ننشده، أو على الأقل هذا ما نعتقده.. أليس كذلك؟

لقد أكدت جميع الديانات على حقيقة الإيمان، وأنه يخلق حالة روحانية ونورانية مفعمة بالسلام والمحبة والطمأنينة والسكينة، وأن المؤمن يعيش في غبطة وسعادة حين يقوم للصلاة أو يتأمل، أو حين يصمت ويرجع إلى نفسه. وأن الإيمان يهيئ للإنسان أرقى أنواع السعادة من حماية، ورزق، وراحة نفسية، وتيسير الأمور، وقضاء الحوائج، وزيادة الوعي والعلم والحكمة وغيرها من أمور كثيرة أشارت إليها ديانات السماء، وكل معطيات الإيمان هذه لا يشوبها شك أو يخالطها الريب.. بل هي حقيقة وسنة إلهية في الوجود. ولكن هل ما نراه اليوم مع كثرة من يدعي الإيمان في العالم يحقق هذه المعادلة؟ هل نرى (مع هذه الكثرة) انتشار السلام والمحبة والعلم وزيادة الوعي؟ هل نلتمس الراحة النفسية التي يعيشها الإنسان مع نفسه وأسرته ومجتمعه وعالمه؟

الواقع الذي نعيشه يعكس صورة مغايرة لذلك، فنحن لا نشهد سوى صور الأنانية والجهل والحقد والكراهية والحزبية وسفك الدماء والفتن الطائفية هي المعادلة التي تحكم عالم

اليوم. الكل يدعي الإيمان، في حين أن لهذا الإيمان نتائج وعلامات لابد أن تتحقق وإلا سيكون شيئاً آخراً غير الإيمان، كما أن ما نضعه في الطعام قد يكون شيئاً آخراً غير الملح. وتتجلى هذه الحقيقة في كتاب الله حين يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بالله..﴾ مما يعني أننا لم نصل إلى فهم حقيقة الإيمان الذي أراد الله أن يتجلى فينا. وقد نصاب بالدهشة حين نعلم أن ما كنا نعتقد أنه إيمان لا يمثل إلا مرحلة أولية من مراحل الإسلام كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾..

إذا كنا نطمح بالنتائج الموعودة من الله التي يغدقها على الإنسان حال تجلي الإيمان في قلبه، فينبغي أن نراقب أنفسنا في عدة أمور:

أولاً:

أن نعيش حالة الحضور الدائم مع الله.. فالله ليس طقس أو عبادة أو صلاة أو حج. الله هو كل حياتنا ﴿قلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ كل شيء لله، كل حياتنا لله. لذلك حين يأخذ الله بمجامع تفكيرنا، ويدغدغ على الدوام مشاعرنا وأحاسيسنا، سنجده يلامس قلوبنا، وتتجلى آثار هذا التلامس في حياتنا. طقوس العبادات توصلك إلى الله وتربطك به، ولكنها ليست هي الله. فكم من مصلي ليس له من صلاته إلا التعب، وكم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش، وكم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه..

أن تكون مع الله لا يعني أن تتوجه إليه وقت الصلاة، أو حين تقرأ القرآن، بل أن تكون متجها نحوه وإليه في كل وقت بفكرك وشعورك وقلبك.

لا دخل للاسم أو الرسم أو الشكل في علاقتك مع الله، دعك من التقديس المزيف وتوجه إلى تقديس من يستحق القدسية، تعلق به وسيوجهك لفهم الوسائل والوسائط..

ثانياً:

ينبغي أن ندرك جيداً إن الله يعطينا أكثر مما نستحق، وبالتالي فنحن من يخلف وعده فيما يتعلق بالنتائج المرجوة التي ننتظرها منه، فهو يغدق علينا نعمة وهباته وعطاياه، يعطينا دون نتيجة لأسباب لمجرد أنه يحبنا ويشملنا بكرم فضله. لذلك ينبغي ألا نربط عباداتنا الحركية طمعاً في النتيجة، بل بالحب وبرجاء القرب ونيل فيض المودة والرحمة.

نشكره ونحمده لأنه يستحق الشكر والحمد، لا لكي نزداد وفرة ورخاء، لا نربط أعمالنا بنتائجها ولكن نربطها بالحب والكرم الإلهي اللامتناهي، لا نسبح الله ونقدسه ونهلله لكي تُبنى لنا حدائق في الجنة وقصورٌ على نهر الكوثر، نسبحه لأنه أهلا للتسبيح، فلا شيء يستحق التسبيح غيره جل جلاله.

مع الأسف الشديد يربط كثير من الناس بين بعض الأحاديث (التي تتطرق إلى ثواب الأعمال) وعلاقتهم مع الله. بعض الأحاديث جاءت بصيغة الترغيب في الأعمال والعبادات وهي مفيدة لكثير من الناس تحثهم على العبادة وتدعوهم للمزيد، ولكن المؤمن الواعي ينبغي أن يعبد الله عبادة الأحرار، عبادة الحب.

كما قال أمير المؤمنين (ع): "إِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَغْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ التُّجَّارِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ رَهْبَةً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْعَبِيدِ، وَإِنَّ قَوْماً عَبَدُوا اللهَ شُكْراً فَتِلْكَ عِبَادَةُ الْأَحْرَارِ". العبادة المقدسة غير المشوبة بأي حوائج أو شروط أو مقدمات.

ثالثاً:

تتضح حقيقة التجلي حين يكون القلب سليما نقياً خالياً من كل شيء سوى الله.. فالبعض يطلب ويرتجي ويناجي ربه، ولكن تستوطن قلبه وسائط بشرية يعول عليها تيسير أموره وقضاء حاجته. فلا يكل الأمر برمته إلى الله، ولكن يدخل معه شركاء ووسطاء آخرين. حين يخلو القلب عن السوى فإنه يتولى إدارة شئون حياتك، وكلما زادت الوسائط كلما قلت هذه الإدارة..

لذلك حين يقول: "من قال ثلاث مرات يا لله.. قلت له لبيك عبدي" ينبغي أن يكون القلب خالياً من كل أحد، ومن كل شيء حين نطلق هذا النداء.. وما أروع ما قاله أحد العارفين حين سُئل عن اسم الله الأعظم، قال: "أن تقول الله وليس في قلبك أحد غيره".

لا غنى للإنسان عن الوسائط المادية وطلب مساعدة الغير، ولكن لا تشركهم بالله، الله هو الذي يرسل ويهيئ أمورنا من حيث لا تحتسب.

رابعاً:

حين يلامس نور الحق قلوبنا، وتذوب إرادتنا في إرادته، سنعلم أن كل ما يحدث لنا يسير وفق خطة محكمة.. ما يعتبره عامة الناس صعوبات وأزمات ومشاكل تتحول بعد الملامسة إلى محطات عبور، وتجارب ينبغي اختبارها، وتدريب يتطلب تمرسه، وكأننا ننتقل من مرحلة إلى أخرى كطلبة يدرسون مناهج تعليمية مختلفة..

لأن ما نمر به من خبرات سواء كانت مؤلمة أو مفرحة تدون في المرصد الإلهي أو الذاكرة الأزلية، التي تسجل فيها نتائج الخبرات والتجارب التي نمر بها في حياتنا.

لذلك على الرغم أنه يقول: "ما أوذي نبي مثلما أوذيت" إلا أنه في نفس الوقت أسعد خلق الله جميعاً.. فنقول: "اللهم صل أفضل صلاتك على أسعد مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم عدد معلوماتك ومداد كلماتك كلما ذكرك وذكره الذاكرون وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون".

فحين يحظى الإنسان ببهجة القرب ويتنور بالوعي الروحي تتحول جملة من المتغيرات إلى حالات، تتحول الثنائية إلى وحدة، ويبدأ في رؤية المتناقضات تصب في نهر واحد، هو نهر الحياة، أو المدرسة الأرضية التي سيتخرج منها عاجلاً أم آجلا.

حديث قدسي في غاية الروعة نختم به حديثنا في هذه النقطة:

"وعزتي وجلالي إن أتاني عبدي ليلاً قبلته، وإن أتاني نهاراً قبلته، وإن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، وإن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً، وإن مشى إلي، هرولت إليه، وإن استغفرني غفرت له، وإن استقالني أقلته، وإن تاب إليَ تبت عليه، من أقبل عليّ تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني ناديته من قريب، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد، ومن أراد مرادي أردت ما يريد. أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل طاعتي أهل كرامتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، فإني أحب التوابين وأحب المتطهرين، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، أشكر اليسير من العمل، وأغفر الكثير من الزلل، رحمتي سبقت غضبي وحلمي سبق مؤاخذتي، وعفوي سبق عقوبتي، وأنا أرحم بعبدي من الأم بولدها..".

المبدأ الرابع:

من أهم المبادئ الروحية الاعتقاد بأن كل شيء في الطبيعة له حياة وشعور وفق طبيعته التكوينية..

فما من شيء إلا ويُسبح ويَسبح في حلقة من حلقات الخلق وله مستوى معين من الإدراك..

حين ننظر للقمر ينبغي أن ندرك أنه كائن حي لا مجرد جرم جامد أعزل.. خلق مطيع لا ينير السماء في عتمة الليل ولا يضبط إيقاع حركة البحار فحسب، وإنما يؤثر فينا على المستوى النفسي والشعوري ويهبنا العديد من صفاته إن بادلناه لمسات الشعور. رؤيته والتمعن فيه زيادة ونقصاً، هلالا وكمالا يؤثر فينا وإن كنا لا ندرك هذا التأثير عن كثب، لذا جاء في الدعاء عند رؤيته: " أَيُّها الخَلْقُ المُطِيعُ الدَّائِبُ السَّرِيعُ المُتَرَدِّدُ في مَنازِلِ التَّقْدِيرِ المُتَصَرِّفُ في فَلَكِ التَّدْبِيرِ، آمَنْتُ بِمَنْ نَوَّرَ بِكَ الظُّلَمَ وَأَوْضَحَ بِكَ البُهَمَ وَجَعَلَكَ آيَةً مِنْ آياتِ مُلْكِهِ وَعلامَةً مِنْ علاماتِ سُلْطانِهِ..". هذه المحاكاة البدئية والخطاب المباشر في الدعاء "أيها الخلق المطيع" إشارة تلفت انتباهنا إلى إمكانية التداخل على المستوى الأثيري وطرفاً من المشاعري مع كل الموجودات.

الشجر والمدر والنبات والتراب والمياه والبحار والأنهار والهواء والنجوم والأفلاك والشمس والقمر.. كيانات وكائنات خلقها الله لنستفيد من عطائها ولنتفكر في خلقها ولنأخذ العبرة منها. فهذه أمور ثلاثة مهمة (عطاء - تفكر - عبرة) ركزنا على واحدة منها فقط (عطائها والاستفادة منها) دون سائر الأمور الأخرى، واختزلنا علاقتنا معها في معطياتها المادية. فالشمس تشرق كل صباح دون أن نلتفت لها ولا نعيرها أية أهمية، لا نتفاعل بصور

الجمال الذي ينبعث من الطبيعة حولنا، فلا تبهرنا زرقة السماء وتشكل لوحات السحب، لا يدهشنا شموخ الجبال ولا يذهلنا أفق الصحراء، لا نستمتع بالنظر إلى القمر ولا نشعر برقة الماء حين يلامس أقدامنا على شاطئ البحر، لا نراقب الطيور أثناء تحليقها ولا نتابع نمو البذرة في أطوارها، لا نطرب لسماع سمفونية تغريد الطيور وصدح ألحانها ولا إلى تراتيل أمواج البحر وصوت حفيف الشجر.

هذا الإحجام عن الطبيعة مرده إلى فكر اللامبالاة الذي لا يعير أهمية لكل شيء في الحياة سوى الهرولة الدؤوبة المتسارعة لتحقيق رفاهية عيش شكلية من جانب، والوتيرة المتسارعة للحياة وانشغالاتها المتراكمة من جانب آخر، وجهل كثير من الناس من الذين ولدوا في أحضان المدنية الطاغية بضرورة وأهمية التماهي مع الطبيعة من جانب ثالث. أما عامة الناس فإن الألفة الشديدة والتعود أصبحا عائقاً أمام التدبر في الطبيعة وروعة جمالها. فالتكرار الرتيب يفقد أعظم ظواهر هذا الكون روعته وعظمته، وإلا فكيف لا تهتز مشاعرنا لرؤية الشروق كل صباح؟ وكيف لا تمتلئ نفوسنا بهجة ونحن نمعن النظر لخضـرة الأشجار أو لروعة ألوان الأزهار؟ وكيف لا تطرب نفوسنا ولهاً لنسمات الفجر أو لسماع هدير المياه وإيقاع الطبيعة من حولنا؟

إن ألفة الشيء تخلق غشاوة على أبصارنا تنسينا جمال أهم الأشياء بالنسبة إلينا، حتى إذا ما فقدناها شعرنا بفقدها وبأهميتها حين كانت قريبة منا. ينطبق هذا الوصف على الأشياء والطبيعة والناس وكل شيء حولنا، كما ينطبق على طقوس العبادات ومناسك التشريع، فحين تتحول الصلاة إلى عادة تفقد جوهرها الروحاني، وعندما تتحول قراءة القرآن إلى

عادة يفرغ من مضمونه النوراني، وعندما يتحول الحج إلى سياحة يصبح رحلة مجردة من محتواها العرفاني..

لذلك طالما نبهت وأشارت آيات القرآن الكريم إلى عملية إعادة النظر، وتجديد التفكر في الأشياء والمخلوقات والظواهر الطبيعية، وأن نتخلص من سلوك العادة والنظرة الرتيبة، وأن نزيل تلك الغشاوة بنظرة متجدد متدبرة لكل ما يحيط بنا من ظواهر وأحداث.

فالخطاب القرآني يدعونا للتفكر في ملكوت السماوات والأرض والتمتع بجمال الطبيعة والصنعة الإلهية. يدعونا لتنبيه حواسنا لتتناغم مع عالم الملك والطبيعة، فمن لا يدرك عظمة الموجودات لا يدرك عظمة الخالق.. آيات كثيرة تدعونا لتأمل الطبيعة ولكن لننظر إلى روعة الصورة والتصوير في الآية 99 من سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ هل تعتقد أن هذا التوصيف الدقيق للطبيعة - الذي تتجاوز كلماته أكثر من 40 كلمة - يذكره الله في كتابه الكريم لأجل إخبارنا بالمطر والزرع وأصناف الفواكه وثمارها فقط، أم لأجل إمعان النظر فيها كصورة من صورة الطبيعة.

حياتنا العملية أفقدتنا بهجة الاستمتاع في الطبيعة، جعلتنا نعيش حياة ميتة جامدة، فمنذ الصباح يخرج الواحد منا إلى عمله مكفهر الطلعة، تفكيره منصب في برنامج يومه، ماذا سيفعل؟ من سيرى هناك؟ عن ماذا سيتكلم؟ كيف يجيب مسؤوله حين يستعلم عن عمله؟ ماذا سيأكل في فطوره؟ يرتدي ملابسه، يقود سيارته، يصل إلى عمله وهو في محيط هذا التفكير..

بينما شخص آخر يتفاعل مع كل ما يحيط به، يشعر بالماء الذي يغسل به وجهه، يشعر ببشرته وهي تلامس يديه، يشعر بحركة جسمه، بيديه، قدميه، يشعر بأنفاسه أثناء الشهيق والزفير، يستشعر لذة النظر للأشياء، يرتشف قهوته متذوقاً طعمها، يشعر بأنه محاط بالحياة متناغم مع كل شيء.

يخرج من بيته وكأنه سيلاقي صديقاً له ينتظره، ذلك هو القرص المضيء في كبد السماء، يلتقي بالشمس كما يلتقي بكائن حي، بصديق ينتظره بالخارج، صديق تتغلغل أشعته لتحتوي كل كيانه..

يقود سيارته شاكراً لله الذي سخرها له، ممتنا لخدمتها له، يرى أشباه خلقه يسيرون معه في الطريق يعتركون الحياة مثله فهو ليس وحيداً، يرى تلك اللوحات الجميلة الخضـراء التي تزين الطريق وتظلل للناس مسار حياتهم.

وحين يصل إلى عمله، يبدأ في التفكير بما ينبغي عمله أثناء وجوده في هذا المحيط.. هو يفكر حين يصل.

قد يتساءل البعض ولم أقوم بكل هذا؟ لماذا أبادل شعوري الموجودات؟ هل سيغير هذا شيئاً في حياتي؟

الطبيعة تستمر في عملها سواء قمت بذلك أم تجاهلته.. ولكن حين تشعر بالحب تجاه المخلوقات والكيانات الأخرى على مختلف مستوياتها فإنها ستهبك بعض صفاتها وقوتها ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ وهذا معنى الحديث الشريف: "لو أحسَن أحدكم ظنَّه بحجر لنفعه" أو "لو اعتقد أحدُكم بحجر لنفعَه" والحجر له أدني مستوى للشعور، ولكن رعايتك وحبك وعنايتك به وتفاعلك معه يمدك ببعض خصاله التي تعود عليك بالنفع على المستوى الأثيري.

فكيف ونحن نعيش في دنياً مليئة بالكيانات والكائنات التي لا يحصيها إلا الله ﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِـرُونَ وما لا تبصرون﴾.

حين يتملكنا شعورٌ مرهفٌ تجاه الكائنات والمخلوقات من حولنا، فهذا يعكس إحدى صور تجلي الشكر الفعلي الحقيقي لله سبحانه وتعالى.. لما يولده هذا الشعور من امتنان عميق بالموجودات التي خلقها الله لأجلنا، لا لأجل أن تستخدمها كوسائل وغايات في الحياة فحسب، وإنما لأجل احتوائها ومبادلتها الشعور الذي أمده الله فيها. هي لا تملك عقلا وروحاً كالإنسان ولكنها تملك إحساساً أثيريا يتوافق شطراً منه مع أجسامنا الداخلية الأثيرية التي تتفاعل مع كل شيء حولنا، والموجودات الحية وغير الحية إحدى هذه الأشياء ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

أثبتت الأبحاث العلمية منذ سنوات عدة حقائق مهمة في هذا الجانب، تتعلق بتجاوب وتأثير النباتات بالحالة النفسية، وكيف أنها تشعر بالخوف والاضطراب كما تشعر بالفرح والبهجة، كما أشارت إلى أن هناك أشجار تشعرك بالراحة والطمأنينة بمجرد أن تجلس تحتها برهة من الزمن. عمليا ومنطقيا أنت لا تعلم لماذا أو كيف يحدث ذلك، فتأثيرها لا يحدث على المستوى الحسي وإنما على المستوى الأثيري.

الروحاني يشعر بحياة الطبيعة من حوله لذا من الآداب الإسلامية أن تلقي تحية السلام حين تدخل المنزل حتى وإن كان خالياً، فالمنزل بكل مكوناته طاقات متنوعة، الأثير مليء بالعوالم غير المرئية لذا ينبغي تحيتهم والسلام..

في السابق كان الحكماء يقولون إننا أبناء الشمس، بالطبع ليست الأبوة النسبية وإنما أبوه العطاء والرعاية والدفء، ولكن قتلت العادة عظمة الشمس في نفوسنا (عادة طلوع الشمس كل يوم). حين ترسل الشمس شعاعها الأول وتكون حاضراً بمعيتها

سيلامس كيانك بعضاً من اشراقتها المبهرة، وقد تلامس شمسك الباطنية، فتبدد غيوم الماضي ويشـرق باطنك من جديد، وحينها ستكون الظلال على الدوام خلفك، فلا سلطة للظلال والظلام حين تزهر شمس ذاتك.

تعّود أن تكون رقيقاً محباً ودوداً في تعاملك مع كل شيء، سواء في منزلك، عملك، في الشارع أو الحديقة، في البر أو البحر، ومع كل شيء حتى ما تعتقد أنه جماد لا شعور له. لذلك لا عجب - كما ذكرنا - أن يسمى النبي (ﷺ) سيفه ودرعه وعمامته وعباءته، لا عجب أن ينطق الحصـى في كفه، ويُخبر الثعلب عن نبوته، وتظله الغمام في مشيته، وينشق السحاب إجلالا لهيبته.

حين نتفكر في عالم الطبيعة وقوانينها نجد أنها صورة مصغرة مرئية عن القوانين الروحية، وكلما ازداد تفقهنا وعلمنا بها وتبحرنا في جزئياتها كلما اكتشفنا أنها جزء من منظومة كونية تعمل باتساق متناغم وسنن عليا تنبع من مصدر واحد، وهو ما يعلل خشية العلماء ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء﴾.

جدد حياتك وعش يومك وكأنه يوم جديد، وكل ما فيه جديد، انظر إلى النجوم، وحلق معها بروحك، وتناغم مع تغريد الطيور بفكرك، واسبح بنظرك في البحار، وأملأ شعورك بتفاؤل الأزهار، فالحياة جميلة ما دمت تراها جميلة.

الحياة مختبر الروح

ماذا نعني بقولنا إن الحياة مختبر الروح؟

حين ندخل مختبر الكيمياء أو الفيزياء في المدرسة أو الجامعة نرى العديد من التجهيزات المخبرية وأدوات القياس والمواد الكيميائية والدوارق المتنوعة وأجهزة المايكروسكوب وجدول العناصر الدوري لماندليف يزين الحيطان واسطوانات الغاز مبعثرة هنا وهناك..

حين كنا ندخل المختبر، لا أحد منا كان يضع في ذهنه أنه سيغير في محتوياته، أو يستبدل بعض مقتنياته وأدواته. فالجميع يدرك أنه ما دخله إلا ليتعلم ويستفيد ويتجاوز هذه المادة الدراسية، لا أحد منا كان يهتم بترتيب الأجهزة والمعدات وتحضيرها للدرس، فهناك أفراد مختصين يقومون بهذا العمل. كل ما علينا فعله كان هو الانتباه والتركيز واستيعاب المعادلات والمعلومات التي سوف نُختبر فيها فيما بعد.

المختبر.. بكل ما فيه من تجهيزات وأدوات إنما تم إعداده وتحضيره كي نختبر ونجرب عملياً ما درسناه من نظريات ومعادلات في إطارها النظري. فعلى سبيل المثال: نعلم نظريا أن اشعال النار، أو بقائها مشتعلة بحاجة إلى أكسجين، وحتى تثبت هذه الفكرة وتترسخ في أذهاننا نذهب إلى المختبر كي نتأكد من صحة هذه الفكرة، فنأتي بشمعة ونشعلها، فنرى شعلتها متوقدة

لا تنطفئ، ثم نأتي بوعاء من زجاج أو أية مادة أخرى، ونغطي به الشمعة، بحيث نمنع الأكسجين من الوصول إليها، سنلاحظ أن ضوء الشمعة بدأ يتقلص شيئاً فشيئاً حتى ينطفئ. فنستنتج من ذلك أن النار لكي تشتعل وتستمر في الاشتعال بحاجة إلى أكسجين.

فالمختبر إذن يحول معارفنا النظرية إلى تأكيدات عملية. فمعرفة معلومة بشكلها النظري أمر جيد، ولكن حين نختبرها عملياً ونرى بأعيننا نتائج ما حفظناه ودرسناه نظرياً يكون كمال المعرفة اليقينية..

ولكن هناك شيء آخر.. فقد لا تتوقف أهمية المختبر وتنحصر في هذا الشيء فقط، وإنما قد يكتسبه تجارب وخبرات أخرى جديدة لم يكن قد درسها أو تعلمها قبل ذلك، وهذا يعتمد على همّة الطالب وسعية لاقتناص الفرص.

لذلك فالطالب النبيه الذكي يخرج من المختبر بعد انتهاء الدرس دون أن يأخذ معه شيئاً مادياً، ولكن: هناك شيء ما علق في ذهنه، لقد استفاد تجربة عملية.. معلومات.. تأكيدات.. تحقق من معادلات كانت مبهمة الرموز.. أما وقد اختبرها الآن فقد ترسخت في ذهنه بشكلها العملي والمرئي بعد أن كانت مجرد صوراً وأشكالاً.

في المختبر نتأثر بما نرى ونشاهد ونلاحظ وبالتالي نخرج باستنتاج يقيني وبأفكار ومعلومات وتصورات شبه متكاملة.

لا يختلف اثنان في هذا المثال.. ولكن كثير من الناس يختلفون حول تطبيق وتجلي هذا المثال في حياتنا وعلاقتنا بوجودنا الأرضي.

فالعالم المادي أشبه بالمختبر الذي يزودنا بالعديد من الفرص والإمكانات والخبرات والمعلومات والبصائر والحكمة.. نخرج

منه وقد تأثرنا بكل مفرداته ومقوماته وصوره وأشكاله. وبالرغم أننا لا نأخذ منه شيئا ماديا سوى قطعة قماش بلا جيوب، إلا أن هذا العالم يطور من أرواحنا إلى درجة يصعب الاستغناء عنه.

الإنسان الفطن النبيه الواعي هو من يستطيع أن يفهم ويدرك هذه الأمور ويعيها.. فهناك من الطلبة من يسترق النظر إلى أدوات المختبر دون أن يعير سمعه للمعلم أو الموجه، هناك من ينشغل بفكره ويتوه شارداً خارج إطار الدرس، هناك من يقضي جل وقته يسأل نفسه عن فائدة ما يسمع وهل سيستفيد منه فيما بعد.

لذلك حين نقول إن الحياة مختبر الروح، فلأنها تماثل عملياً ما نختبره في المختبرات الأكاديمية العلمية، فهناك حقائق ومعتقدات وتصورات مودعه في أعماق الروح حملتها معها من العالم الآخر، بحاجة إلى تجريبها والتأكد منها عملياً أثناء وجودها الأرضي.

ولكن ليس هذا كل شيء.. هناك شيء آخر مناط بهذه الأرواح من وجودها الأرضي ينبغي عليها أن توليه شيئاً من الاهتمام والانتباه.

هناك قاعدة مهمة في العلوم الروحية يؤكد: أن الأبعاد المادية كما أنها تتداخل وتؤثر في الروح، فإن بمقدور الروح كذلك - فيما لو تطورت وارتقت - أن تؤثر هي كذلك في المادة.

وبالتالي فإن اختزال فكرة أن الحياة هي فقط وسيلة أو مرحلة تحول - وفق آلياتها المادية - معارفنا ومعتقداتنا وتعاليمنا الدينية من إطارها النظري إلى الإطار العملي الواقعي، أو من القوة إلى الفعل كما يقول الفلاسفة، فكرة غير متكاملة تحجم من قدرات الروح الإبداعية.

فالحياة دار حركة مستمرة واكتشاف وابتكار وإبداع لا يتوقف، لأن كل حركة يقوم بها الإنسان سواء في بعدها الديني أو غير الديني تؤثر في تطور الروح. وهذا مع الأسف الشديد ما لا يدركه كثير من الناس.

لذا يتساءل البعض ممن يرغبون في تعلم بعض الفنون كالرسم والنحت والتصميم والهندسة، أو يجد نفسه مدفوعا لدراسة علم معين أو مهارة عملية.. هل هذا يفيد مسيرتي الروحية أم أنه ترفٌ ماديٌ دنيوي؟

بالتأكيد له فائدة، فالحياة لا يمكن حصرها في الجانب التشريعي فحسب، ويخطئ من يظن ذلك، ولكنها قنوات متعددة ومتفرعة من التطور في كافة المستويات والأبعاد. فالله حين يأمرنا ويوصينا أو ينصحنا بأمور شرعية أو أخلاقية لا يعني هذا أنه يضع لك حدوداً مقيدة مقتصرة على حرفية النص، بل جعلها مفتوحة ومنسجمة مع اتساع الوعي والإبداع البشري، فحين ينقل صورة تأمل نبي الله إبراهيم (ع) للكواكب والنجوم، فإن هذه الصورة غير مقيدة بالتفكر بالنجوم وإنما مطلقة لكل شيء في الحياة. وحين يدعونا الرسول (ﷺ) إلى طلب العلم ولو في الصين، فهو لا يقيد الصين كبلد وحيد نطلب فيه العلم، بل نطلبه بأي مكان آخر متاح لنا.

فالله عز وجل لا يحصر التعلم في الحياة ويحدده في الإطار الشرعي والديني، أو يحجمه بحرفية النص فحسب، بل جعل الحياة دار اكتشاف واختبار وتجريب لكل شيء يمكن الوصول إليه.. ولذلك قال ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.

الله يمنحنا العديد من الفرص طوال حياتنا لنستفيد منها ونتعلم الدروس والعبر، نقوي بصيرتنا ونغذي ذواتنا بالخبرات الأرضية التي لا يمكن تحققها إلا في العالم المادي، وهذه الخبرات لا تقتصر على الأمور التشريعية فقط.

فإذا أتيحت لك فرصة تفحص الغيوم في السماء، مراقبة الطيور وهي تطعم صغارها، رؤية تناغم حركة أفواج الأسماك وهي تموج في المحيط، أو إطعام قط جائع والنظر إليه وهو يأكل، أو زراعة حديقة منزلك بأصناف من الطماطم والخضار، أو تعلم كيفية صناعة العطور والصابون، فقم بذلك دون تردد، ولا تعتقد أن هذا لهو عابر، بل له تأثير في الباطن.

مراقبة هذه الفرص واستثمارها بحكمة واحدة من أهم المبادئ الروحية.. فكثير من تقلبات الحياة سواء تلك التي نحكم عليها أنها إيجابية أو سلبية ما هي إلا فرص وإمكانات جديدة يضعها الله في طريقنا كي نستفيد منها ونصقلها في مختبر الحياة بالتجارب العملية، الكثير لا ينتبه لمثل هذه الفرص، والفطن هو من يُدخلها ضمن آلية وعيه.

هناك رسائل خفية تأتي من العالم الآخر تنبه الإنسان إلى ضرورة الحركة والتعلم والاستكشاف، تدعونا لفتح آفاق جديدة، حركة أكثر وتجدد في الوعي أكبر.

لا يريد الله الإنسان كسولاً خاملاً يكتفي بما لديه، بل يريد منه أن يسعى ويتحرك ويكون أكثر استثماراً لوجوده في الحياة. ولا نعني الاستثمار المالي - الذي تكالب الناس عليه مؤخراً - بقدر ما نعني استثمار معرفة الأشياء من حوله وخوض غمارها.

تأتيك هذه الرسائل على شكل اندفاعات داخلية لا تعرف سبباً لها، شيء يدعوك للحركة والقيام بشيء معين، فقد تكون جالساً ترتشف كوباً من الشاي على مكتبك، فينتابك شعور مفاجئ بالخفة والحركة وتشعر برغبة قوية في عمل شيء ما، كثير من الرسائل تأتي على هذه الشاكلة فتهيئ لك فرصة ما، إما أن تستغلها أو تهملها.

أثناء جلوس زوجين معا.. وبدون سابق إنذار قد تقفز فكرة طارئة لأحدهما فيقول للآخر: لماذا لا نغير حياتنا المملة ونجعلها أكثر حيوية وإشراقه، دعنا نخصص لنا برنامج للقراءة والنقاش، نمارس تمارين رياضية مشتركة، نتبنى مشروع إغاثة في عمل خيري. اكتشف كلا من الزوجين في الآخر طاقات وقدرات ومواهب كانت مطمورة، اكتشفا طرقاً جديدة للتواصل مع بعضهما، أخذا يستمتعان بقربهما من بعض، كان من الممكن أن تستمر حياتهم مملة روتينية.. ولكنهما استغلا الفرصة.

دخل جناح الأمراض الباطنية، وبعد خطوات قليلة شاهد رجلا طاعنا في السن ينام على أحد الأسرة، للحظة شعر بحاجة هذا المريض للرعاية فهو لا يستطيع إطعام نفسه إلا بصعوبة، قدم له المساعدة، وقام يزوره في أوقات وجبات الطعام ليقوم بإطعامه، لأول مرة في حياته يشعر أن له أهمية، ولأول مرة يشعر بسعادة لا متناهية. كان من الممكن أن يمر عليه مرور الكرام.. ولكنه استغل الفرصة.

كان يبحث عن محل لبيع الخضار والفواكه ليبتاع حاجياته، فقادته قدماه إلى مدخل له باب كبير، فتحه وإذا به قاعة كبيرة علقت عليها قطعة قماش كتب عليها للإيجار. وقف مذهولاً متفكراً أمام الإعلان، لأنه في مرحلة بحث عن مكان يتسع لعدد كبير من الأشخاص، لم يرجع إلى بيته إلا بعد أن وقع عقد

الإيجار وأسس مركزا دراسياً روحياً أفاد به كثيراً من الناس، كان من الممكن أن يغير اتجاهه ويبحث عن بائع الخضار ويرجع إلى بيته.. ولكنه استغل الفرصة.

سافرت عائلته في العطلة الصيفية، فاقترح عليه أبوه أن يذهب إلى بيت خاله حتى يعودوا من السفر، أجابهم بالإيجاب، ولكن بعد أن رحلوا خطرت في روعه فكرة، أن يستغل وجوده في المنزل ليقرأ أكبر عدد ممكن من الأبحاث والدراسات النفسية، وبعد مرور 15 يوماً خرج بحصيلة فكرية ونفسية ومعلوماتية لم يكن تخطر له على بال. كان من الممكن أن يذهب إلى بيت خاله.. ولكنه استغل الفرصة..

حياة الإنسان محدودة بفترة زمنية مؤقتة.. ينبغي أن يستثمر الفرص التي تعرض عليه، فكثير من هذه الفرص غيرت حياة كثيراً من الناس، ولا تعتقد أنك بمعزل عن التدبير الإلهي حين تغتنم هذه الفرص، فالله سوف يعيد ترتيب الكثير من المتغيرات لكي تتماشى مع خطواتك الجديدة التي اتخذتها. هناك من يعمل خلف الكواليس من جند الله لمساعدتك..

الله لا يريدك كالماء الراكد الآسن.. يريدك أن تتحرك وتصقل حياتك بالتجارب العملية، وثقتك بالله هو ما يجعل كل شيء من حولك يسير بتناغم وانسجام مع تجارب حياتك الجديدة.

ينبغي أن ندرك جيداً أن كل واحد منا له مهمة وهدف من وجوده الأرضي، وكثير من هذه المهام قد تعُرض علينا وتتجلى أمامنا ونحن نتجاهلها ونصد عنها. فأي من هذه التجارب والخبرات ينبغي القيام به وأياً منها لا يدخل ضمن سيناريو حياتنا..؟

ثق أن الفرص التي تُتاح لنا في الحياة ليست عشوائية، فبعضها إما أن تكون بذور مكنونة في أعماقنا، تظهر كإمكانات

وتتجلى كفرص ينبغي اختبارها والعمل بها، وهي كثيرة ومتنوعة. وإما أن تكون نتيجة واردات أفكار ورغبات آنية وتطلعات نرغب بحدوثها. وتحديد اتجاه هذه الفرص كونها إمكانات أو أفكار يرجع إلى توقد وعي الإنسان وحكمته، وفيما إذا كانت هذه الفرص تخدم مسيرتنا الروحية. ولعل البعض يرى حتى بالفرص التي تكون نتيجة للرغبات الشخصية مجالا لاختبارها في الحياة، فالفرص السلبية، أو ما نعتقد أنها سلبية، والتي قد نخرج منها بانطباعات غير مريحة أو قد تسبب لنا بعض الأضرار النفسية والعملية، ينبغي اعتبارها تجارب وخبرات ندرجها ضمن الدروس التي مررنا بها وتعلمناها حتى نتجاوزها ونتجنب الوقوع فيها مرة أخرى، فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين.

لذلك حين نقف ونتساءل ما الذي فعلناه وقمنا به من إنجازات خلال السنوات الماضية؟

البعض يقول: وماذا أفعل أكثر من كوني موظفاً أوفر حياة كريمة لأبنائي وأداوم على طقوسي العبادية، وهي تقول: وماذا أفعل أكثر من كوني ربة منزل أعلم أطفالي وأدرسهم وأسهر على رعايتهم!

وهل الحياة تتوقف على الحاجات الأساسية من طعام وتدبير شئون المنزل وعلاقة حميمة واهتمام بالأطفال وطقوس العبادة فحسب!

لقد وهبنا الله قدرة كبيرة على أن نكتب جزءا كبيراً من سيناريو حياتنا بأقلام إرادتنا ووعينا.. لماذا تنازلنا عن هذا الحق الإلهي؟ وهبنا الله حرية الاختيار وجعلها ضمن أساسيات الخلق، لماذا جعلنا حياتنا تسير وفق روتين ثابت من صناعة غيرنا الذين دونوا في سيناريو حياتنا ما يريدون؟

وهذه الاختيارات لا تتم بشكل عشوائي لكنها تتم بعد تمشيط حدائق الباطن واجتثاث الحشائش الضارة لتصبح تربة خصبة لكل اختياراتنا في المستقبل.. فهناك الكثير ممكن يختارون ولكن قلة منهم ينجحون، لأن الاختيار الحقيقي لابد أن ينبع من باطن نقي وضمير حي ووعي متوقد.. وهنا يتوشح هذا الاختيار بمشيئة الله الذي يدعمه في كل شيء، بل يرتب كل شيء لنجاحه وتحقيقه.

إذن فما يتم الحديث عنه نظرياً ونؤيده فكريا لا يترسخ إلا من خلال المعايشة العملية والاختبار الفعلي، إضافة إلى مساحة الإبداع والابتكار الكبيرة التي منحنا الله إياها كي نختبر أموراً كثيرة في الحياة.

حين نعتقد أن كل شيء يخضع للتدبير الإلهي، فإن ما يجري في العالم المادي هو جزء من هذا التدبير الذي لابد أن يحظى بجانب من اهتمامنا.. ولا نقصد بالاهتمام أن نكون ذوي نزعة مادية، ولكن أن نعمل ونتحرك ونقتنص الفرص التي يعرضها الله علينا بين فترة وأخرى.

أن نكون في التدفق أو الدفق الإلهي هو ما يريده الله منا سواء في بعدنا الروحي أو المادي. وهذا السير يولد الثقة الكاملة بالمدبر العظيم، فحين نركن إلى أنفسنا ونخطط لحياتنا في محاولة منا للتحكم في النتائج من خلال هذا التخطيط.. فكأننا لا نثق بهذه القوة الإلهية، لذلك قد تصادفنا العديد من المقاومات في حياتنا، بينما لو وضعنا مشيئتنا في معية مشيئة الله فإنه سيتولى أمرنا، وهنا فقط تصدق مقولة: "قلبه دليله" لأن القلب حينها يكون ضمن إطار المشيئة الإلهية، لا في متاهات الرغبات والأمنيات.

لنمارس لعبة الحياة.. ونكون طرفاً في تدفقها المادي والروحي.. ألم يقل الله ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ فالله هنا لا يذم الحياة كونها لعباً ولهوا، وإنما يحدد مقتضياتها وأبعادها، فالحركة الهادفة هي لعبة الحياة، واللهو هو كل ما يسبب اضطراب الفكر ويحجب قنوات الوعي وبالتالي لا يخدم تطورنا الروحي.

وحتى نمارس هذه اللعبة ينبغي أن نستغل الفرص التي تُعرض علينا، وأن ننتبه جيداً لما يمر في حياتنا، انتباه الفطن الذكي النبيه الذي يستغل كل حركة في حياته لتطوره روحه.

ابحث عن سلامك الداخلي

كثيراً ما نسمع كلمة "السلام الداخلي" في التوجيه والإرشاد والدورات التدريبية، ولكن نادراً ما نجد تفسيراً حقيقياً لها.. فالجميع يؤكد على ضرورة السلام الداخلي لكنهم لا يعلمون فحوى وحقيقة هذا السلام وكيف نطبقه في حياتنا أو ما هي الأمور التي نراعيها لكي نعيش في حالة سلام حقيقي؟

السلام يعني المصالحة والتناغم والتوافق وعدم التنازع أو الصراع، ولكن ماذا نعني بالصراع والتنازع الذي يحدث داخل الكيان البشري؟

عادة ما يحدث الصراع الداخلي - أو عدم الانسجام والتناغم - بين ثلاث مكونات داخلية هي الذات الحقيقية (التي تتمحور في القلب) والعقل (الذي يتمحور في عالم الأفكار) والنفس (التي يتركز عملها في إشباع حاجات الهيكل البشري). وبما أننا نعتقد (جدلا) أن العقل هو من يقود دفة حياتنا، فإن كل حالات الصراع وعدم السلام إنما تنشأ في عالم الأفكار. فحين نعمل على تغذية متطلبات النفس على حساب الذات يحدث عدم التناغم.

فعلى سبيل المثال: الذات - أو كما يعبر عنها البعض الروح - تنظر إلى الآخر كروح مشابهة لها في الكينونة والصفات، تنظر له كمرآة لها في الحقيقة، أو كذات أخرى تشابه ذاتنا الكامنة بين جنبينا، نحن بحاجة لها وهي بحاجة إلينا وكلاهما يكمل الآخر.. بينما تنظر النفس للآخر وتتعامل معه بشكل استقلالي

ككائن آخر غريب عنها لا حاجة لها به، ولا يهمها أمره، ولا ترغب في التداخل معه.

مثال آخر: تدرك الذات أن من الحكمة أن يتصف المرء بقلة الكلام والابتعاد عن الثرثرة والقيل والقال، فالصمت والسكون عالمها ومحط رحالها.. بينما تجد النفس أن هذا السلوك - الثرثرة والاستعراض - متنفس لها كي تثبت جدارتها في التفوق على الآخرين وبيان أهميتها لهم.

مثال أخير: ذاتنا تعشق التأمل والتفكر والأماكن الهادئة المسالمة غير المضطربة التي يكثر فيها الضجيج والإزعاج، لأنها تحب التركيز على الداخل، بينما النفس تميل للصخب والهوس وتجد أن الجلوس بهدوء ساعة من الزمن مدعاة للملل والضجر، وأن الطبيعة الهادئة تصيبها بالسأم والانزعاج.

يتضح من خلال الأمثلة الثلاث عدم التناغم في المكونات الباطنية، قد لا نلحظ تأثيره بشكل واضح ومباشر، ولكنه يبعدنا عن السلام الداخلي.

اختيار الإنسان في حلبة هذا الصراع يتوقف على الصوت الأعلى والسيطرة الأقوى، فإذا كانت قوى النفس هي المتسلطة فإننا سنختار ما توجهنا إليه، فننظر للآخر ككائن غريب، ولا نتوقف عن الثرثرة، ونكره الأجواء الهادئة والطبيعة الساكنة.. بينما لو كانت الذات مشرقة وواعية فإنها ستهدينا لعكس هذه الأمور.

ومع الأسف الشديد عادة لا نستمع إلى همس ذاتنا الحقيقية القابعة في داخلنا.. فصوتها الهادئ يتطلب سماعه تعلم فنون الصمت والسكون والتأمل والتروي والهدوء، فصوت الأعماق أو همسات الذات لا يظهر ويتجلى في محيط الصخب والضوضاء والضجيج.

وحالة اللوم (الضمير) التي تنتاب النفس بين الفينة والأخرى مرده إلى الاستماع لصوت الحقيقة - الذات - ومقارنته مع ما قمنا به من أخطاء أو ما ارتكبناه من تصرفات.

أغلبنا يعيش حالة حرب داخلية مع هذه المكونات في كل لحظة من حياته، وهو ما يخلق توتراً وقلقاً نفسياً واضطراباً في مستوياته الباطنية.. أي أن هناك حروباً تشتعل في كل لحظة في كياننا الداخلي - كنار تحت رماد - قد لا تظهر نتائجها للخارج مباشرة، ولكنها تسبب خللاً في الأعماق. وفي خضم هذه الحرب الدائرة التي لا نعلم عنها شيئاً يتساءل البعض: لماذا لا نشعر بالسلام الداخلي؟ لماذا نكون في اضطراب وقلق دائمين؟

حين يدخل ميكروب أو فايروس أجسامنا فإن الخلايا البيضاء تتولى مهمة الصراع والاقتتال مع الكائن المجهول الذي تجرأ واقتحم الجسم، ونتيجة هذا الصراع تحدث أعراض في الجسد كارتفاع درجة الحرارة والتقيح واحمرار بعض مناطق الجسم. نحن نرى الأعراض الخارجية ولكن كثيراً منا يجهل أن هناك معركة محتدمة في الداخل.

لذلك فالاضطراب والقلق والهلع والتذمر والتأفف وعدم الشعور بالأمان والاطمئنان أعراض خارجية سببها الصراع المحتدم في الداخل.

كثيراً منا لا يعلم أن أي تناقض سواء كان فكرياً أو مشاعرياً أو مفاهيمياً يولد صراعاً داخلياً. وهذا الصراع يخلف أمراً ما على المستوى البعيد، فعلي سبيل المثال:

- كثير منا يحكم على الآخرين ويرصد تصرفاتهم في حين أنه يقوم بعمل بهذه التصرفات خفية بعيداً عن أعين الناس، وهذا التناقض بين أحكامه الخارجية وبين أعماله يشعره بحالة انفصام يسلبه سلامه.

- الاعتراض على المقادير وعلى العديد من الأحداث التي تجري حولنا، مع علمنا أنها تحدث لغاية وعلة ما تسلبنا حالة السلام.

- تعنيف النفس على ماض قديم وإعادة السيناريوهات العتيقة بين فترة وأخرى والتي تُستعمل لجلد النفس يخلق حالة من عدم التناغم الداخلي.

- حين ينتابنا الخوف من المستقبل، ونعيش حياتنا في قلق مستمر من الغد وما سيحدث فيه، يحتد صراع بين الحاضر والمستقبل.. وهذا يسلبنا السلام.

- أن تستصغر نفسك وتنعتها بالدونية والقبح وتشنع بها بين فينة وأخرى يخلق حالة صراع بين ذاتك العليا وبين نفسك التي تختلج فيها هذه المشاعر.

وهنا نذكر ملاحظة مهمة: ينبغي أن يحب الإنسان نفسه ولكن ليس بالطريقة التي تروج لها بعض دورات التنمية البشرية التي تعمل على غرس فكرة "تقبل نفسك على حالها وعلى عيوبها - حب نفسك مهما عملت" فهذا الكلام يخلق صراعاً نفسياً بين ما يعتقد أنه حق وصواب، وبين ما يقوم به ويفعله وما يوهم به نفسه أنه صواب.

وهذه الأفكار - مع الأسف الشديد - تعارض مبادئ التطور الروحي. فمن يحب شيئاً يسعي لكماله.. فإذا كنت تحب نفسك - وينبغي عليك ذلك - فعليك أن تعمل جاهدا لتطور مستواها الروحي والعقلي وألا تتركها على حالها.. عليك أن تصلح عيوبها وتداري أخطائها وترمم معتقداتها لأنها أحوج ما تكون لهذا الإصلاح والتغيير، وهي تستحق ذلك.. ألا ترى أنك إن أحببت ابنك فإنك تسعي لتعليمه وتهذيبه وإطعامه بأفضل ما يمكن.. لا يمكن أن تتركه على حاله، فما بالك بنفسك، ألا تستحق ذلك أيضاً..

أن تحب نفسك يعني أن ترفع من مستواها الروحي كي تتطلع لعالم البهجة والنور، أن تحب نفسك يعني أن تخلصها من التناقضات الفكرية التي ترسخت في عقلها، أن تحب نفسك يعني أن تميط اللثام عن الذات الحقيقية وتجعلها تستمع إلى همس الملائكة، أن تحب نفسك يعني أن تبعد عنها المشتتات والضوضاء وتختار لها أجواءً مفعما بالراحة والهدوء، أن تحب نفسك يعني أن تهيئها لكي تستشعر نزول وتجلي الفيوضات الإلهية أثناء حياتها القصيرة..

أما تركها على حالها وتقبلها بعيوبها فهذه أفكار تسربت إلينا من ثقافات تركز على الحياة الشكلية المادية والتفوق المعيشي دون الاهتمام بالأبعاد الروحية أو تسعى لتطور ذاتنا الحقيقية.

أجلس مع نفسك برهة من الزمن.. وانظر في أعماقك، هل ترى ثمة أفكار شاردة أو واردة عليك؟ هل هناك توتر من شيء ما؟ هل هناك شخص عالق في مخيلتك؟ هل هناك أمر متشبث يأخذ بفكرك؟ هل هناك حدث تحاتيه ويشغل بالك؟ هل تفكر بماضيك وبمن ظلموك؟ هل دقات قلبك تتراقص بشكل غير منتظم لقلق ما يحوم بفكرك؟ هل تراودك صور لأشياء لم تنهيها بعد؟ كل هذا يسلبك السلام ويخلق حالة من عدم التناغم الداخلي.

أن تعيش بسلام.. يعني أن تكون بأمان.. إذا لم تكن في حالة سلام فأنت ليس في أمان حقيقي، بمعنى أنك تعاني توتراً داخلياً، وهذا التوتر يحجب عنك فيض الرحمة المتدفق من السماء..

وهنا مربط الفرس، وزبدة الكلام، والهدف العملي والحقيقي من فائدة العيش بالسلام. فالسلام الداخلي تذكرتنا للعروج إلى الأبعاد الروحية العليا.

فتحقيق السلام داخلنا، والسعي الحثيث للوصول إليه، ليس ترفاً أو رفاهية، أو سعياً هامشياً، بل هو مطلب أساسي ومهم في حياتنا. هو ليس عملية استرخاء واستجمام كما يُخيل للبعض.

السلام يصقل أرضية النفس لتكون مهيأة لتلق الفيض الإلهي الرباني، فالقلق والتوتر والعيش في ذاكرة الماضي، والخوف من الغد، وتغييب هدف وجودنا على الأرض، والحكم على الآخرين، وامتلاء أوعية عقولنا بالثرثرة وفضل الكلام، والكره والبغض والحسد.. كل ذلك يخلق حاجزا ومانعاً لتدفق الفيض الإلهي.

سميت الجنة بدار السلام لأنها بعيدة كل البعد عن حالة الصراع والتنازع والتضاد التي ذكرناها، وهو ما يدعونا الله إليه في دار الدنيا، أي أن الله يريدنا أن نعيش في الدنيا بنفس تقنية الآخرة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ كلا على حسب استعداده وإمكانياته.

فالسلام يعني أن تعيش كل لحظة من حياتك كحدث منفصل عن الماضي، تستمتع فيه كونك مخلوق في مملكة الله، وبأنك جزء من العالم الروحي، وأن تبتعد.. بل تهرب وتفر من الأوهام، فرارك من الوحش القاتل، فكل ما يقلقك ويوترك ويزيل عنك التناغم إنما هي أوهام نفسية لا أصل لها.. حين تسمع كلمة سيئة من شخص ما، أو حين يتجاهل السلام عليك، قد تعيش ساعات بل ليال من القلق والعصبية والنرفزة ويبعدك عن سلامك الداخلي.. وقد تتصل بصديق لك تحكي له ما حدث أو تفضفض له عن مشاعرك المؤلمة حيال الأمر.. كل ذلك لأنه خدش بتصرفه كبريائك وأناك.. وهذا وهم محض.. فأنت تقلق على أناك وهي وهم وليست حقيقة، لأن ذاتك الحقيقية لا تمس بسوء ولو تكالب أهل الدنيا عليها.

كل ما يعكر صفوة سلامنا الداخلي إنما هو مرتبط بالنفس ومتعلقات الجسد.. بمجرد أن نبتعد عن هذا المحور ونتخلى عن

أناتنا - فبعد التخلي يكون التجلي - سوف تفتح خزائن الذات أبوابها، وسنشعر حقيقة بطعم ولذة السلام الداخلي وكما قيل: "لو زال منك الأنا لاح لك من أنا".

الخدع الذهنية في التأمل

لا تنتظر النتائج فقط كن مستعداً

من أكبر الأخطاء المنهجية التي يقع بها كثير منا هو التفكير بالأمور الروحية وفق رؤية مادية أو علمية.. فلكل طريق ومنهجه ومقاييسه الخاصة في تفحص الحقائق والوصول إلى النتائج..

ولكن لأننا نعيش في محيط مادي فإننا نسعى لقياس الأبعاد الروحية وفق مقاييسنا المادية أو العلمية التي تشبعنا بها منذ نعومة أظفارنا. وحين نفكر بهذه الطريقة فإننا نقع في فخاخ الذهن ولعبة الفكر أو سيناريو عالم الأفكار الذي امتلأت به منظومتنا الفكرية.

يتعامل البعض مع الأبعاد الروحية كمدخلات ومخرجات، أسباب ونتائج، بدايات ونهايات، لذلك كثيراً ما يتساءل البعض عن نتائج السلوك الروحي أو فيما يتعلق بالتأمل أو العبادات، فالبعض يسأل: لقد مارست التأمل والذكر لمدة أسبوع ولم أحصل على أية نتيجة، ولم يتغير شيء في حياتي.. ما السبب في ذلك؟ وآخر يقول: ما الذي يمكن أن أشعر به أثناء التأمل؟ ما الذي يمكن أن أحققه من برنامج أوراد الذكر الذي أقوم به؟ هل سأصبح أقوى من الداخل، هل سأشعر بهذه القوة؟ هل من الممكن أن أشاهد هالة شخص ما بعد الانتهاء من التأمل؟

البعد الروحي ليس معقداً وصعباً ولكن في الوقت نفسه دقيق للغاية. من يعتقد أنه يقوم بالتجربة فإنه لن يلمس أي تقدم أو تطور أو تغير في حياته، من ينتظر نتيجة عمل روحي يقوم

به فلن يحصل عليه كما يريد، لأن البعد الروحي هو أن تعيش حياة جديدة لا أن تحول حياتك إلى مختبر تجارب.. أن تستشعر حالة خاصة موجودة في أعماقك، تكتشف ذاتك الحقيقية، تزيل الغشاوة عن عينيك، تتيقظ.. تصحو من نوم الغفلة إلى عالم الحقيقة..

البعد الروحي كماء المطر الذي لا نستطيع تقدير كميته وعدد قطراته، كألوان الشفق القطبي الذي يزين سماء القطب الشمالي ولكننا لا نستطيع التنبؤ بطبيعة اللوحة وألوانها التي تظهر في السماء.. حتى في علـم النفس - وهو يعد من العلـوم الإنسانية المادية - لا نستطيع أن نحدد بدقة كم يحتاج المريض من الجلسات حتى يتم علاجه من الوسواس القهري على سبيل المثال، فذلك يرتبط بعوامل كثيرة تتعلق بشخص المريض وبيئته وأسرته وما أشبه..

صحيح أن قانون السببية قانون إلهي يسري في العالم المادي كما يسري في العالم الروحي - كما ذكرنا تفصيلاً في موضوع علاقة الروحانية بالقوانين والسنن الطبيعية والكونية - ولكننا في العالم المادي نقوم بعمل الأسباب كما ينبغي فننتظر النتائج. أما في العالم الروحي فإننا لا نستطيع أن نجزم بأننا قد قمنا بالأسباب كما ينبغي لكي نحصل على النتائج المرجوة.

مثال: أنت توفر كل مستلزمات البذرة لكي تنمو.. من تربة صالحة، ماء، سماد طبيعي، ضوء.. وتنتظر النتيجة.. هنا أنت متأكد أنك قمت بكل ما يلزم..

أما في الجانب الروحي: فقد توفر كل مستلزمات التأمل، من جلسة مريحة، وزيوت عطرية، وخلوة مناسبة.. ولكن هل حقا أنت تتأمل؟.. العالم الروحي لا يُعير اهتماماً لما توفره من مستلزمات بقدر ما يركز على جوهرك الذاتي الباطني، وهو أمر

يصعب تقديره.. هل حقاً تتأمل أم فقط تجلس جلسة تأمل.. فقد تتأمل كي تسترخي، قد تتأمل لأنك ترى آخرين يتأملون، قد تتأمل دون أن تتخلص من المشتتات الفكرية التي تفخخ بها عقلك.. إلخ.

هذا من جانب..

ومن جانب آخر فإن العالم المادي محدود الأبعاد والمتغيرات، بينما العالم الروحي لا نهاية له ومتغيراته كثيرة..

فقد يتعلم شخص ما فنون التجارة ويصبح رجل أعمال ناجح.. بينما آخر على الرغم من ذكائه وخبرته إلا أنه يسقط في كل عملية ربحية وتتعقد أموره أكثر.. والغريب أنه كلما تعمق روحياً أكثر كلما ازدادت مصاعبه ومشاكله والسبب أن ما يقوم به قد لا يكون ضمن اختياراته الأولية التي كلف بها في عالم الروح قبل الحياة.. فهناك عملاً آخر ينتظره ينبغي القيام به..

فتارة يلح الإنسان في الدعاء والطلب دون أن يعلم أن ما يطلبه سوف يؤخر مسيرته وهدفه الروحي الحقيقي. لذلك يقول الله ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾.

عادة ما نذكر هذه الآية حين نكون في حالة جزع لا حول لنا ولا قوة.. في حين ينبغي أن نؤطر حياتنا وفق هذه المعادلة الإلهية التي تعكس واقع التسليم لعلم الله وحكمته في مراقبة وتفحص حركتنا في الحياة ومدى قربنا أو بعدنا عن غايتنا الحقيقية.

في السنوات الماضية طرق الناس أبواباً عدة في موضوع تجلي الأمنيات وتحقيق الرغبات دون أن يتأملوا ويتفكروا ويتساءلوا هل ما نطلبه ونسعى لتجليه يثري تجربتنا الروحية أم أنه يتعلق بتحقيق رغباتنا وأمنياتنا المادية الشخصية الآنية؟.

فخدعة التفكير والمراوغة الأولى التي يفرضها الفكر علينا هو مقاربة النتائج الروحية بالنتائج المادية دون الأخذ بعين الاعتبار مدى ثقتنا ومصداقيتنا في تحقيق الأسباب.

ولنتأمل خدعة أخرى:

في الفكر المادي ينبغي أن تفعل شيئا لكي تحصل على نتيجة، بينما في التأمل لا ينبغي أن تفعل شيئاً.. وهنا يأتي سؤال التفكير المادي: كيف تجلس في التأمل دون أن تفعل شيئاً ثم تمني نفسك في الحصول على نتائج؟ وهل من الممكن أن ينتج اللا عمل شيئاً أو يحظى بنتائج مرجوة؟

هذه الفكرة الخادعة تؤدي إلى حالة من التململ والضجر والسأم، ولعل البعض يقول: دعني أقرأ كتابا أستفيد منه، أو أقلب مسجات الواتس أب، أو أنجز عملاً ما خير لي من جلوسي ساعة من الزمن لا أعمل بها شيئاً..

صحيح أنه على المستوى الجسدي ينبغي أن يكون الجسد ثابتاً حتى يفقد الإحساس.. ويكون الفكر هادئاً حتى تختفي هويتك الشخصية.. ولكن في أعماقك يحدث الكثير والكثير. تحدث أموراً لا تشعر بها بادئ الأمر ولكنها سوف تطفو على السطح كلما هدأت أو تلاشت تيارات الفكر. فهناك الكثير مما ينتظر انعكاسه على السطح، البحيرة المضطربة العكرة لا تعكس جمال الشعب المرجانية القابعة في أعماقها.. الماء لا يعكس جمال ضوء القمر المكتمل ما لم يهدأ الاضطراب فيصبح الانعكاس متاحاً..

نصلي خمس مرات باليوم.. أنت لا تشعر بما يحدث في أعماقك.. هذه الصلوات تعمل على تنقية الباطن وصقله وتفتح مدارك الوعي وأنت لا تعي ذلك.. ولكن مع الأسف عادة ما يكون

ما نفعله من سلبيات بين هذه الصلوات يفوق عملية التصحيح والتنقية والتطهير..

نحن نصلي.. ولا نشعر بأية فرق جوهري قبل وبعد الصلاة..

نصلي كل يوم خمس مرات نفس الصلاة.. نفس الصلاة! تفكر قليلاً في هذا الجملة.. ينبغي أن لا تكون نفس الصلاة.. ليس في شكلها ولكن في تفاعلك معها، في انبعاثها بأعماقك.

وذات الأمر يحدث أثناء التأمل.. في ظاهره صمت وخشوع واستسلام، وفي باطنه تلقي واتصال بعوالم تغرس بذورها في هذا الصمت، وهذه البذور ينبغي أن تختمر وتتبرعم ليكون لها وجوداً ينعكس على صفحة حياتك وسلوكك في الحياة. لذلك جاء في الحكم "ادفن وجودك في أرض الخمول فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه"، لا يمكن للنبتة أن تنمو وتتبرعم وتبسق وترتفع ما لم تدفن في الأرض، فكل ما ينمو على السطح سرعان ما يذوي ويجف.

حالة الخشوع - تسمر البدن عن الحركة - وموت الجسد أثناء التأمل قد لا يعني شيئاً وفق التفكير المادي.. ولكنه يعني كل شيء للمؤمن الواعي ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ في داخل كل واحد منا نبتة كامنة بحاجة إلى ماء الرحمة وفيض القدرة لكي تنمو في تربة القلب الواعي وسكون الجوارح وصمت الأفكار.

يحاول البعض من مدربين أو محاضرين في الدورات والأمسيات تحديد نتائج ينبغي أن يصل إليها المتدرب.. لأنه من العيب أن يُسأل المدرب في الدورة أو المحاضر في الأمسية سؤال: ماذا نجني من التأمل، فيجيب: لا أعلم.. أو لا يوجد.. فيبدأ في

وضع نتائج تصورية وأشكالا وهمية يراها أو يلمسها المتأمل. وهنا نقع مرة أخرى في فخ الجانب الفكري، وهذا ما يسبب الكثير من حالات الإحباط لدى المتأملين لأنهم لا يرون أو يشعرون بما ينبغي أن يلمسوه في التأمل وفق رؤية الآخرين.

ترغيب الناس بحدوث كذا.. وكذا.. أثناء التأمل ورؤيتهم لأنوار وبؤر لامعة أو أشكالا هندسية أو إسقاط روحي سوف يُوهم البعض حدوث هذه الأمور ويُدخلهم باب التوهم والخيال.. ومن جانب آخر سوف يمثل حالة إحباط لمن لا يرى هذه الأمور أو يشعر بها.

فقد تتشكل هذه الأمور نتيجة تفاعل العوالم السفلية كسماع أصوات مشوشة أو طنين أو صفير أو لمعان أنوار.. وكلها تهدف إلى إلهائك أو جذب انتباهك أو اهتمامك كي تمنعك عن المضي قدما في التعمق أكثر.. وقد وقع في فخها الكثيرون..

في علاقتنا بالله سبحانه وتعالى وما يندرج تحته من عوالم روحية نتواصل معها أثناء التأمل أو الصلاة أو الذكر أو المناجاة ينبغي أن لا نفكر بالنتائج، لأن مجرد تفكيرنا بها سوف يقطع حالة التواصل.. ازهد في النتائج تأتيك طائعة دون أن تطلبها..

في البعد الروحي لا ننتظر نتائج.. لا نجرب، فقط نعيش الحالة الروحية التي تبدأ بمراقبة حواسنا المادية، وأن نستشعر أن ثمة كائن أخر موجود داخل هذا الجسد هو من يقوم بتحريكه، ننتقل إلى المرحلة الثانية وهي مراقبة الأفكار بحيث نبعد كل المشتتات والسيناريوهات المفتعلة عن أفكارنا - فنحن نستورد ما يقارب 90% من أفكارنا من الآخرين - ونتذوق معنى الصمت الحقيقي ونستمع إلى المستشار القابع في أعماقنا وإلى صوتنا الداخلي.

بعدها (المرحلة الثالثة) نستشعر المحيط الروحي الكوني الذي نعتبر أنفسنا جزء منه، وكأننا أسماك تسبح في محيط مترامي الأطراف، نتواصل مع هذا المحيط بجلسات التأمل والصلاة والدعاء كموجات مع المد والجزر، وكأن روحك تمتد لتخرج من جسدك، وكأن العالم الروحي يدخل في أعماقك حاملا معه الغبطة الروحية، والنور الإلهي، والسعادة الأبدية.

إلى هنا تكون قد أنجزت ما عليك.. فالمرحلة الرابعة ليست بيدك.. ليس أنت من يقررها.. هي مرحلة انتظار وتلقي.. المرحلة الرابعة بيد الله وحده.. إن طال انتظارك في المرحلة الرابعة فاعلم يقيناً أنك لم تقم بالمراحل الثلاثة على أكمل وجه.. لأن الله لا يخلف الميعاد، وهو سريع الحساب. فما وفقك وزرع في روعك أن تقوم بالخطوات الثلاث الأولى إلا لكي يهبك معطيات المرحلة الرابعة..

فالذكر من المذكور ثم من الذاكر. فما كان ليوفقك إن كان يريد منعك من هذا العطاء. الله يهب عطاياه التي قد تأتي كلمح البصر إلا أن قلوبنا اللاهية، وعقولنا المشتتة، ونفوسنا المتعلقة.. قد لا تنتبه لها.

لا تختبر عطايا رب العالمين ولا تساوم عليها، فهي تنهمر عليك كغيث المطر إن كان وعاؤك خالياً نقياً صافياً..

لا تقل جربت سنين طويلة ولم أحصل على شيء.. بمجرد أن تبدأ سيبدأ العالم الروحي يتعامل معك ولكنه يعطيك على حسب قابليتك واستعدادك، لأنه لا يمكن أن يعطيك أكثر مما أنت قد أعددت نفسك لأجله ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا..﴾ لا تقل متى سأحصل على النتائج؟ بل اسع بجد لكي تتجلى فيك النتائج لأنها حتما موجودة بحالتها الروحية، تتجلى فيك حين تكون مستعداً لذلك.

لا تقل إنك لم تصل.. فقولك هذا يغلق عليك أبواب الرحمة.. في الأبعاد الروحية لا تفكر بالوصول فليس هناك نقطة تصل إليها.. أنت منغمس في النقطة.. بمجرد أن يتوجه قلبك لعالم النور والحضـرة الإلهية فقد بدأت الطريق، والبداية هي الوصول..

ليس من الضرورة أن تذهب إلى عمق المحيط لكي تلامس الماء، بمجرد أن تلامس الماء على الشاطئ ستشعر ببرودته.. لذا لا تفكر في النهايات.. بل فكر في البدايات.. أنك بدأت بالفعل.. لا تفكر بالنتائج وما سوف تجني ولكن فكر بتحقق الأسباب التي تجعلك على الصراط المستقيم.

نحن مطالبون بالمسير.. ولله تقدير النتائج وتحديد المصير. وكما قيل من "صلحت بدايته أشرقت نهايته"..

لا تتخاذل أو تفتر أو ينتابك الإحباط لأن آخرين يرون ويشعرون بما لا تشعر به أنت سواء أثناء العبادات أو الخلوات أو التأملات.. لا تجعل همك ينصب على عطاياه بقدر ما يكون هدفك الأنس بالخلوة معه..

للتو أقرأ في كتاب يقول فيه المؤلف الروسي أن شعورك بالتأمل يبدأ بعد ثلاث سنوات..!! وهنا وقع الكاتب في فخ كبير، فالشعور بغبطة التأمل ليس له علاقة بتحديد وقت معين، لأنه شعور يفوق الزمن.. تشعر وكأن الزمن قد توقف والمكان قد تلاشى.. فلماذا نضع حدوداً لشيء لا حدود له..

هذا التحديد يخلق حالة من الإحباط لدى العديد من الناس.. فقد تشعر بالسكينة والانجذاب الروحي من ليلة واحدة، تتوهج فيها منابع الحب في قلبك فيفتح لها باب المؤانسة بالعالم الآخر دون سابق إنذار أو تخطيط ودون أي مستلزمات.. ودون أن ترى ما يراه الآخرين.. يكفي أن تكون أنت في حالة حضور.

الآن دعونا نرتب أفكارنا قليلا:

1- لا ينبغي أن نفكر بالأبعاد الروحية كما نفكر بالأمور المادية.. فالمقاييس مختلفة مع وحدة الفكرة أو الحقيقية.

2- في الأمور المادية تكون الأسباب والنتائج واضحة، ولكن في الأبعاد الروحية لا ينبغي توقع النتائج لعدم جزمنا بتحقق الأسباب كما ينبغي.

3- لا يعتبر ما يراه البعض أثناء التأمل دليل الأفضلية، فقد تكون حصيلة تداخل أمور كثيرة.

4- يكفي أن ينتابنا شعور الأنس سواء في العبادات أو التأمل.. أن تكون حاضراً قريباً من بيتك وعالمك الحقيقي.. وهذا سيفتح لك كل الأبواب دون أن تطلبها..

5- لا تفكر بالوصول ولا تنتظر النتائج.. بمجرد البدء في الطريق تكون قد بدأت المشوار الذي لا نهاية ولا حدود له.. الله يطالبنا أن نبدأ ونسير وإليه المصير.

6- كلمة "لم أصل بعد".. "لم أر شيئا إلى الآن".. "سوف أبدأ بالشعور بعد سنة".. أو مقارنة نفسك بالآخرين من أكبر خدع وحبائل الشيطان.. لأنها تشترط ما لا شروط له.

كلما شعرنا بهذه الخدع تهجم علينا، وبدأنا نتخبط في شباكها نتذكر الآية الشريفة: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللّهِ﴾..

تحكي هذه الآية الشريفة قصة شيخ كبير من الصحابة أضعفه المرض أن يهاجر مع النبي (ﷺ) إلى المدينة، فلم يكن قادراً على الهجرة لشدة مرضه وضعف جسمه فبقي في مكة رغماً عنه.. ولكنه في النهاية قرر الهجرة، وبدأ المسير إلى المدينة، ولكن اشتد عليه المرض في الطريق وضعف بدنه، وأسلم روحه لله قبل أن يصل المدينة..

فنزل جبريل عليه السلام على النبي يخبره بما حدث لهذا الصحابي، فنزلت هذه الآية الشريفة..

هذا الصحابي الجليل لم يصل إلى وجهته.. لم يحقق الهجرة كاملة.. ولكن مع هذا أنزل الله فيه آية شريفة إكراماً له ولتكون دليلاً للسائرين من بعده.. فالله سبحانه لا يشترط منك الوصول بل يريد منك أن تبدأ.. أن تسير وتهاجر إليه.. فمن بدأ كمن وصل، ومن وصل كمن بدأ في عالم لا نهاية له ولا قرار لاتساعه.

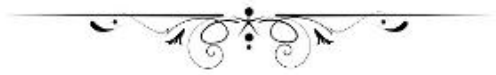

ما الذي يقود حياتك؟

حركة الإنسان في الحياة لا تنبع من فراغ وعشوائية، بل من أصول وجذور باطنية وأخرى نفسية وفكرية.. قد يكون منشأ هذه الجذور من العقل والوعي والبصيرة فيكون سلوكه سوياً واعياً راشداً، وقد تنشأ من الوهم أو الجهل فينتج سلوكاً مضطرباً يجهل حقيقة نفسه وحقيقة العالم. وبالتالي فإن حياتنا عادة ما تكون منقادة لأفكار أو قناعات أو قوة معينة. وتزداد المشكلة تعقيداً حين تكون نتيجة تراكمات نفسية عميقة، أو بفعل ضغط خارجي كبير ترسم له اتجاهاته وتحدد قراراته التي يتخذها في حياته.

فمن يخشى المرتفعات (فوبيا الأماكن المرتفعة) تتأثر كل قراراته التي يتخذها بشأن عمله أو مكان إقامته وسكنه، والتي لابد أن تكون في أماكن منخفضة. ومن يعتقد أن الحياة دار صراع وبقاء للأقوى يستنفر كل طاقاته ليحظى على أكبر قدر من المكاسب فيها.. وهكذا.

وقد تكون ذكريات ماضيك المؤلمة هي التي تقودك وتتحكم في مسار حياتك، قد يكون الخوف من تكرار الماضي، أو توجسك من المستقبل.

كثير من الناس وعلى الأخص المتدينون منهم يكون الذنب أو الخطيئة هي التي تقود حياتهم، سواء كان الذنب المقترف، أو محاولة الهروب من الوقوع فيه. فيمضون حياتهم في هروب

من ندمهم مختبئين من عارهم، فاسحين المجال لماضيهم أن يتحكم بمستقبلهم وحياتهم، وهم من غير أن يعلموا يقومون بعقاب أنفسهم من خلال تدمير كل نجاحاتهم وانجازاتهم التي من الممكن أن يحققوها في حياتهم.

صحيح أن حاضرنا نتيجة ماضينا، ولكن لا يوجد أي مبرر يجبرنا أن نعيش حياتنا أسرى الماضي. هدف حياتنا لا نجده في الماضي، ولا نستطيع تحديده في المستقبل، هدف حياتنا نجده في الحاضر، وفي اللحظة التي نعيشها بحالة من الصفاء والسكون والسكينة والسلام.

لقد وكز نبي الله موسى (ع) رجلا فقتله، ولكنه أصبح فيما بعد من أنبياء أولي العزم وقائدا عظيما عبر ببني إسرائيل البحر وأنقذهم من طغيان فرعون.

لقد فتح الله باب التوبة والمغفرة ليخلصك من عبء الماضي وثقل الخطيئة، وهو قادر على أن يستخدمك لإنجاز أمر عظيم ببقية حياتك. الله يمنح الإنسان الفرصة تلو الأخرى شريطة أن تطلب منه هذه الفرصة بأمانة وصدق ونية صافية. وهذا ما تشير إليه الحكمة: " إذا وقع منك ذنب فلا يكن موجبا ليأسك من حصول الاستقامة مع ربك، فقد يكون ذلك آخر ذنب قدر عليك".

مهما كان ماضيك محملاً بالخطايا، فلن تضاهي رحمة الله وغفرانه، ومهما كانت سفينة حياتك مليئة بالأثقال فلن تضاهي محيطات رحمته وعنايته ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. فإذا كنت تثق بكلام الله، حين يبشرك أنه سيغفر ذنبك إن تبت إليه، فلماذا تعذب نفسك وتسمح للشيطان أن يستحوذ عليك بشيء ارتكبته في الماضي.

إذا كان الله يعطيك فرصة جديدة لكي تبدأ من جديد، لماذا تتجاهلها وتشيح بوجهك عنها وتنظر إلى ماضيك ليحكم قيده عليك. وبدل أن تتوب وترجع وتفر إلى الله من جديد تجعل إحساسك بالذنب يقتلك ويحرمك من التمتع بإشراقة الحياة. وكما قال أهل الله: "لا يعظم الذنب عندك عظمه تصدك عن حسن الظن بالله تعالى فإن من عرف ربه استصغر في جنب كرمه ذنبه".

من المهم أن يتذكر الإنسان ذنوبه ليستغفر منها بين الحين والآخر ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ولكن ما جرت عليه العادة أن الجميع يفترش بساط ذنوبه ويبدأ في البكاء على ما اجترحت يداه من الإثم، ثم تعاد الكرة والنائبة في كل مرة، دون البدء في استثمار الفرصة الجديدة في نسيان الذنب والتوجه إلى الله وتحقيق هدفه من الحياة.. الله لا يريد منك البكاء والعويل والنحيب وتذكر الذنوب والتأسف على ما فات والعيش في الماضي.. الله يريدك أن تثق بكلامه بأنه قد غفر ذنبك، ويريدك بعد ذلك أن تقبل إليه بروحك وعقلك ونفسك ليلهمك الخير ويستخدمك لرسالته.

لا تجعل ذنبك أو غضبك أو تذمرك أو نقمتك أو سخطك يقود حياتك، فأنت ابن الحاضر، وفيوضات النور ونفحات الرحمة الإلهية تملأ الحاضر - في الوقت الذي أنت فيه - فاجتهد أن تكون واعياً للفرص التي يهبها لك الله، فلا تندب حظك، أو تنتحب لتقصيرك، أو تلوم واقعك.. بل ثق بكلمات الله وابدأ من جديد، وليكن الله من يقود حياتك.

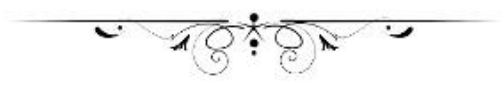

القلب.. والإمداد الغيبي

حين تشعر بنفحات الحب تغمرك ولو لثواني معدودة.. حين تدرك في لحظة ما بتواصل غير طبيعي.. حين تشعر بقشعريرة وانجذاب روحي نحو عالم النور.. اعلم أن شيئاً ما قد حدث على مستوى قلبك.. انفك قيد.. أزيح ثقل.. تحطم عائق.. تهدم سقف.. أزيلت أغلال.. تصدع سد.. تغير نمط.. تلاشى خوف..

وهذه من أهم الأفكار.. بل والمعتقدات التي ينبغي أن نحفرها في أذهاننا ونكتبها لتكون على مستوى أبصارنا نتمعن فيها بين الفينة والأخرى.

فكرة في منتهى الأهمية نشرحها بسهولة ويسر.

الفكرة التقليدية التي دأبنا على فهمها وترسخت في أذهاننا أن المؤمن حين يكون مستعداً أثناء حياته فإن الله يُغدق عليه من فيض بركته ورحمته وخيره وهباته وعطاياه الجليلة والجميلة التي لا حدود لها.. أليس كذلك!؟.

في حين أن هذا الإغداق لا يتوقف على استعداد المرء.. بل هو فيض مستمر لا يتوقف، فكل هذه الخيرات والعطايا تحيطنا وتحتوينا من كل جانب.. مشكلتنا في العوائق والسدود التي تحول بيننا وبين انسياب هذه الخيرات للداخل لنشعر بها.. ليس هناك تأخر في الإجابة.. هناك عطل في الاستقبال..

حين تشعر بالحب.. لا تعتقد أن شلالا من النور اخترق السماء كشهاب لامع فلامس شعور الحب قلبك.. لأن شلالات النور موجودة منذ الأزل وباقية لآخر الأمد. ما حدث أن انفراجاً بين ثنايا قلبك استقبل ومضات هذا النور.

وهناك فرق كبير بين المعنيين ينبغي أن ندركه جيداً.

لا تعتقد أن عالم النور بعيد عنك، وأنك في وسط مغاير له بحيث لا يمكنك الوصول إليه، فالعوالم متداخلة فيما بينها. كل ما هنالك أن جهاز استقبالك لا يتصل بالأبعاد الأخرى، مغلول بقيود الأنا، مكبل بسلاسل المادة، مصفد بالنوازع الشخصية والرغبات الآنية.

فرق كبير أن تعتقد ببعد الله عنك.. أو بعدك عنه.. يقولون لك أنه بعيد.. وهو يقول أني أقرب إليك من حبل الوريد، يقولون لك لن تصل إليه، وهو يقول أنا معكم أيما كنتم..

في الواقع.. الله شديد القرب ونحن شديدو البعد.. وما بين هذا البعد وذاك يكون القلب من يحسم هذا الخلاف..

مقولة صحيحة نقرأها عادة "ليكن قلبك دليلك" ولكن أي قلب هذا الذي شمر عن ساعديه ليكون مرشدنا ودليلنا.. القلب العادي لا يصلح أن يكون مرشداً لأنه مقيد برغبات شخصية تنظر للأمور وفق ما تريد ووفق ما تتطلبها مصالحه الآنية..

كمثل من يسأل عن شيء.. يريد الإجابة التي تتوافق مع رغباته وأهدافه، هو لا يبحث عن الحقيقة، بل يريد الإجابة التي تؤيد فكرته ومسعاه، إجابة تطمئنه وتعطيه الضوء الأخضر.

لذا فالقلب المشتت المغلول لا يصلح أن يكون مرشداً نتبعه، بينما القلب النقي الخالي من الأحقاد، المتصل البعيد عن التشتت، الروحي الذي لا يعبأ بالماديات والمسميات، الرحيم الذي يرى نفسه فوق الآخرين، الرقيق الذي تنعكس من خلاله ومضات الإلهام، المتفائل الذي يرى كل الوجود جميلاً، المقترن الذي يؤثر الآخرين على نفسه، الواعي الذي يبصر ما خلف الصور والتداعيات والمتحرر من الرغبات.. هذا القلب له أهلية الإرشاد.. وبجدارة..

ينبغي أن ننتبه لهذه الفكرة جيداً..

ففي الصورة الأولى: حين نعتقد أن الله بعيد عنا - سواء ببركاته أو هباته أو أنواره أو عطاياه - وأن العالم الأخر منفصل عنا غير متصل بنا.. بعيدين عنه بُعد المشرقين تفصلنا عنه مسافة لا يمكن بلوغها إلا بشق الأنفس،

هذه الفكرة لو تحولت إلى معتقد فإنها من جانب تلقي التبعية والتركة على الله لأنه هو البعيد، فالذنب ليس ذنبنا، فالله خلق عالم النور من طبيعة مختلفة لا يمكن الوصول إليها، وهذا ما يؤدي إلى الكسل والتقاعس، هذا من جانب..

ومن جانب آخر، إن هذا المعتقد يوعز للإنسان بأنه قد فعل ما يتوجب عليه فعله وهذا يكفي، لقد أدى دوره على أكمل وجه.. فهو يصلي ويصوم ويؤدي الشعائر وهنا ينتهي دوره، لقد قام بدوره وينتظر نتيجة عمله.. وهذا يؤدي إلى الجهل المركب والخذلان..

بينما لو رسخنا فكرة القرب الإلهي بعقولنا، وأن لا شيء يحول بيننا وبين نعيم النور الإلهي سوى تقلب حالات القلب وتوجهاته. وأن الإنسان هو المسئول الأول والأخير عن تحديد مسافة البعد والقرب.. لتغيرت نظرتنا لأنفسنا ولأبصرنا الخلل الذي يكتنف مسيرتنا واجتهدنا في تحديد الحجب التي حالت دون تشرب قلوبنا من هذا الفيض.

تارة نثق بأنفسنا أكثر من ثقتنا بقرب الله منا.. وهذه فكرة في غاية الخطورة..

فكثير من المتدينين يثقون بأعمالهم وعباداتهم وبأدائهم للتكاليف بصورة صحيحة.. ولأنهم لا يشعرون بحلاوة النفحات الروحية أو الأنس القلبي أو التواصل الغيبي.. يبررون هذا الأمر ليس لوجود النقص أو الخلل في أعمالهم وإنما يلقون

هذا الأمر وينسبونه إلى الله.. ويقولون إنه بيد الله، إن شاء فعل وإن لم يشأ لم يفعل.. ماذا نفعل أن كان الله لا يريد لنا أن نكون على هذه الحالة..

هناك آفات تندس خفية في قلب الإنسان العادي.. كما تتسلل بروية في عباءة المتدين.. هي من الصغر بحيث لا يراها أو يلمسها فيتجاهلها، ولكنها تفتك بالقلب فيزيغ اتجاهه ويتثاقل انبعاثه وتتسبب في حجبه إلى ما يسمى بروْن القلب ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ تتكاثر وتنمو هذه الآفات والطفيليات في حديقة الصدر فتمنع رذاذ النور أن يدخل القلب، وهنا تحدث الأمراض القلبية.

فالطمع، الحسد، الجشع، الأنا بأنواعها، تعظيم النفس، رؤية الآخرين بدونية، العجب، الغرور، الغضب، عدم الصدق مع النفس والمصداقية مع الغير، الجهل المركب، المعتقدات المتناقضة.. آفات صغيرة لا نكاد نشعر بها لها دبيب خافت تخترق الباطن.

وهنا قد يكون العمل تاماً وصالحاً من حيث الظاهر.. ولكنه مقيد من حيث الباطن.. لذا قد يعجب الإنسان بكثرة أعماله والله يرزقه حسن الثواب على ذلك.. ولكن هناك فرق كبير بين أن نؤجر على أعمالنا وبين أو نبحر في الممالك..

فرق كبير أن نعتقد أننا محاطون بفيض النور من كل جانب وعلى جميع المستويات، ومن الممكن أن يتغلغل في أعماقنا في أية لحظة تكون فيها قلوبنا طاهرة نقية سليمة.. وبين أن نعتقد أن عالم النور منفصل بعيد عنا لا يلامس قلوبنا.. وحين يجتهد الإنسان في صقل قلبه وتنقية فكرة فإن بابا ينفتح من السماء لكي يفيض على قلبه بركات النور..

هناك أنت المسؤول عن إصلاح خلل الاستقبال.. وهنا تعتقد أنك أديت ما عليك منتظرا الإجابة..

كان أحد العارفين يعلم تلاميذه دائما بقوله: "من يقرع باب أحد باستمرار، لابد أن يفتح له الباب ذات يوم" فسمعه معلمه ذات يوم فقال له:" إلى متى ستستمر في تعاليمك هذه، مستخدما صيغة المستقبل بقولك: لابد أن يفتح؟ ترى هل أغلق الباب يوماً حتى يفتحه".

حين تشعر أنك منغمس في عالم الإمداد.. تلامس وجوده، تنتابك قشعريرة ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، تتوق إلى اكتشافه وتشتاق إلى اختراقه.. هو ينتظر منك هذا الإقدام بفارغ الصبر. وحين يرى صدق المقاصد ونقاء المطالب وشغف الفؤاد وتوله اللباب سيتسلل إلى القلب ويبسط سلطانه ويشيد أركان عرشه.

فقط.. أهذا كل شيء؟

حين يبحث الإنسان عن مرفأ الإيمان أثناء مسيرة حياته.. وحين تكون هناك رغبة قلبية ملتهبة للتوجه الروحي.. وحين يشعر بالظمأ العرفاني التأملي.. يبدأ في البحث عن الطريق الموصل إلى ذلك. لا يشبع نهمه ما بين أياديه بل يلجأ إلى المعارف الصعبة والخبرات الشاقة والمتعبة ظناً منه أن الوصول إلى صفاء النفس، وطهارة القلب، وتزكية الباطن ليس بالأمر الهين اليسير البسيط، فيستعين بالمصادر والمراجع ذات المفردات المسجعة والكلمات المنمقة والقوافي المتناسقة.. فيلحظ أن أغلب هذه الأمور خارج مداركه لا يستطيع وعيها.. معقدة إلى درجة لا يمكنه الإحاطة بها..

والسؤال هنا..

لماذا ينتابنا شعور بأن التوجه الروحي من الأمور المستصعبة؟ لماذا نبحث ما بين السطور عن وسائل عروجنا المعنوي؟

لماذا نبحث عن التقنيات والممارسات المعقدة ونتجاوز ما بين أيدينا من ممارسات واضحة جلية قد تنقلنا نقلة روحية عميقة نفاجأ بها؟ وإذا كانت الروحانية مطلب الخالق الأساسية في الوجود فلماذا كل هذه الصعوبة التي تكتنف حيثياتها؟

وبكل صراحة نقول.. من كان وراء إضفاء التعقيد على التوجه الروحي؟

فحين نبيّن لشخص ما طريقة التأمل أو الصمت أو تصفية النفس يرد بعفوية: "فقط.. أهذا كل شيء..؟!" لأنه يتوقع أن يكون الأمر شاقاً متعباً مضنياً حتى يحصل على النتيجة..

حين نشرح لشخص كيف يتخلص من الغضب عن طريق مراقبة ذاته وقت وقوع الحدث.. يقول: "فقط.. أهذا كل شيء..؟!".

عندما نعالج مشكلة المراهقين وتمردهم في السلوكيات وإهمالهم بالدراسة عن طريق رسائل الحب الباطنية.. يكون الرد: "فقط.. أهذا كل شيء..؟!".

حين نقول إن أبواب السماء مُفتحة للطالبين، ولا حائل يحول بينك وبين السماء سوى سلامة قلبك وصدق نواياك.. يكون الرد: "فقط.. أهذا كل شيء..؟!".

حين نقول أن هناك فيضا نورانيا متواصلا من السماء تتلقاه الأرواح في كل حين، وبمقدور الإنسان الاستعانة به بعد أن يفرغ قلبه من الشواغل.. يكون الرد: "فقط.. أهذا كل شيء..؟!".

ردة الفعل هذه: "فقط.. أهذا كل شيء" جاءت نتيجة لثقافة التعقيد والتشديد والإبهام التي انتشرت في الأمة حين فقدت جوهر رسالتها الحقيقية، وبدأت تبحث هنا وهناك عن بدائل ثقافية وفكرية تستعيض بها عن توجهها الروحي وإيمانها الحقيقي..

وعلى هذا الأساس تم تصعيب وتعقيد الدين الذي قال الله عنه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وقال عنه النبي (ﷺ): " إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ.." سواء في المفاهيم أو الشروح أو التفسير أو في العبادات والمعاملات.. فصعبوا السهل، وعقدوا البسيط، وعرقلوا السالك.. حتى استبان الدين عسر لا يمكن فهمه أو استيعاب فحواه.. وجعلوه بين خطوط حمراء لا يمكن تجاوزها إلا للنخبة وأولي الاختصاص والدراية..

هناك من تعمد تعقيد مبادئ الدين لأغراض ومصالح فئوية أو نخبوية.. وهذا التعقيد أدى إلى انحسار التوجه الروحي الذي يعد العمود الفقري للدين والعقيدة، واستبدلوه بطقوس شكلية وممارسات صورية وتعاليم نظرية، فتم إفراغ جوهر الدين من مضمونه الرسالي، وتحول إلى أداة للاسترزاق، حتى قيل إن أي عمل أو مشروع تريد تمريره على عامة الناس ألبسه لباس الدين، وسوف يتقبله الجميع دون أي تردد أو استنكار.

القلب.. والتوجه الروحي لا يحتاج إلى كل هذا التعقيد الذي يروج له البعض وعظاً على المنابر أو سطراً في صحائف الكتب.. ولا يحتاج - بداية - إلى التبحر العميق والغوص في أعماق محيط الثقافات المختلفة.. بل هو يبدأ بالبسيط.. يبدأ بما بين يديك.. بعد ذلك ستجد من يرشدك الطريق..

لا تحتاج في بداية الطريق إلى الكثير من الكتب لتقرأها، ولا إلى الشرود في متابعة السالكين لتقتبس من حياتهم وتراقب حركاتهم.. يكفيك في البداية أن تتمعن في النظر للطبيعة من حولك، وتراقب كل شيء يجول بخاطرك، وتعمل على التخلص من الصفات السلبية بما تحمله من توتر واضطراب وقلق، وتبدأ رويداً رويداً في تدبر الآيات والتأمل.. وهكذا.

ابدأ من حيث تكون.. فالطفل لا يولي راكضا ما لم يبدأ الزحف والحبو والتعثر والسقوط والمشي والهرولة.. بعد ذلك يمكنه الركض.. وأنت كذلك لا يمكنك فهم الأبعاد العميقة ما لم تحط خبراً وفهما بما يدور حولك..

لا تفكر بالمعجزات والكرامات والقدرات الخارقة.. فالألواح تطفو على الماء، والذباب يحلق في الهواء، والسحاب يطوي المسافات، والماء يطفئ النار.. فالمعجزة الحقيقية هي أن تكون إنساناً واعيا.. وبعد ذلك تتوالى عليك النعم تباعاً..

وحتى تكون إنساناً لابد أن تبدأ من حيث أنت.. لا تخطو خطوة، أبق في مكانك.. بدلاً من البحث في الكتب انظر إلى السماء فوقك، وإلى الأرض تحت قدميك.. إلى كل شيء حولك..

لا يمكن أن تجد شيئاً أسهل وأيسر من هذا الأمر.. فقط انظر حولك بتمعن ودون أن تفكر بشيء.. انظر بتأمل، بتفكر ستجد أن الأشياء لم تعد كما كانت من قبل..

هل تعلم ماذا يقول رب العزة عن هذه الحالة.. التي نجدها بسيطة وسهلة.. وقد يجدها البعض نوعاً من العبث واللهو..

ينعت أولئك الذي يمارسون هذه الأمور - البسيطة السهلة - بأولى الألباب. وحين يقول أولي الألباب فهو يشير إلى أرقى أنواع الوعي الروحي حسب البصائر القرآنية. لأن من يبدأ من حيث هو.. يؤسس قاعدة ذاتية روحية خاصة به هو.. لم يقرأها في كتاب أو يتلقاها من منبر، أو يعرفها من داعية.. لأن حقيقة الدين تكمن في تجربتك الشخصية مع عالم الغيب ومع الله سبحانه وتعالي.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

فالسماء والأرض واختلاف الليل والنهار ظواهر طبيعية لا تمر مرور الكرام عند أولي الألباب.. على بساطتها وسهولتها.. بل تخضع للتفكر والتأمل، فتتحول هذه الظواهر إلى وسائل ووسائط تنمي وتطور مستوى وعيهم الروحي وتنقلهم نقلة نوعية عميقة للباطن، ومن ثم لله..

الله سبحانه لم يجعل الروحانية حكراً على نخبة من الناس، فالتأمل في الطبيعة والكون متاح للجميع رجالا ونساء، كهولاً

وشباباً.. الأغنياء منهم والفقراء، من يسكن القصور أو يقيم في جزر نائية بين البحور.. العالم والأمي، السقيم والسليم، العربي والأعجمي.. بمعنى أن الفرصة متاحة ومهيأة لكل إنسان أن يكون من أولي الألباب دون استثناء.

فالكون والطبيعة كتاب الله المفتوح لكل الناس.. وهو من أرقى وسائل التأمل الروحي، والتعمق الذاتي.. ولكن على الرغم من أهميته وبساطته وتوفره باستمرار حولنا إلا أننا لم نلتفت له يوماً ولم نتأمل أبعاده..

ولأنه بسيط.. فهو يشد انتباه الأشخاص المتميزين المبدعين الذين وصلوا إلى أرقى درجات الوعي الروحي.. فالإنسان العادي لا يهتم بما حوله من أمور بسيطة، لأنها لا تعني له شيئاً.. تتحول هذه الأمور إلى عادة مع مرور الزمن.. فلا يرى فيما يرى إلا كل ما هو مكرر وقديم ومتوارث.. بينما الإنسان الواعي ينظر إلى كل شيء حوله بسيطاً كان أم معقداً، مألوفاً كان أم غريباً بنظرة تأمل وتفكر فيراه متألقاً ينبض بالحياة متلوناً بألوان الوعي والإدراك..

الصعوبة الحقيقية تكمن في الاستمرار.. فاستقم كما أمرت.. فتموج نفسية الإنسان وتقلبها من شأنها أن توقف حلقة الوصل بين العالمين.. التوتر، الشرود الذهني، الغضب، الأنا، الغرور والتكبر، كل هذه الأمور تشكل حائلاً وحاجزاً كبيراً بين الإنسان والتأمل أو التفكر..

فالصعوبة إذن لا تكمن في ذات الطريق.. ولكنها تكمن في إزالة المعوقات والعراقيل التي تقف عثرة في الطريق.. وكل هذه

الأمور بيدك أنت.. أنت وحدك لا أحد سواك.. أنت من يتحكم بها ويسيطر عليها..

دخولنا عالم الروحانية لا يعني انتقالنا إلى مكان آخر نستقي منه الوعي الروحي، بل يعني تفكيك وإذابة الكدر والرواسب والتخلص من الحجب التي تحول بيننا وبين هذا العالم.. ولهذا نقرأ في الدعاء: "وإنك لا تحتجب عن خلقك إلا أن تحجبهم الأعمال دونك".. مشكلتنا في الأعمال التي تحول بيننا وبين ذوباننا في هذا العالم..

تعقيد البسيط، والتفنن في خلط الأوراق والدخول في التفاصيل الدقيقة للمفاهيم دون اختبارها عمليا من شأنه أن يخلق حجاباً يمنعنا من رؤية الحقيقية. فننشد إلى الدقائق ويتحول فكرنا إلى النتائج فننشغل بالمسميات والكيفيات وننسى جوهر العملية الكلية للموضوع..

انتشرت في الآونة الأخيرة مفاهيم كثيرة يروج لها البعض ممن يدعون الفكر المستنير أو المتفكرين في آيات القرآن الكريم.. ومع الأسف الشديد يقعون في العديد من الأخطاء المنهجية التي ينبهر بها المستمع، ويدخلونه في متاهات فرعية لا علاقة لها بالموضع، ويعقدون الواضحات من المسائل، ويصعبون على البسطاء من الناس طريق سيرهم وسلوكهم إلى الله.. والأشد وطأة من هذا أن رؤيتهم للمفاهيم القرآنية التي يتناولونها بعيدة عن الأسس الروحية التي بني عليها هذا الكتاب المقدس.. فهم يشرحون وفق أسس لغوية وعلمية أو رياضية أو فكرية، وكأن القرآن أشبه بكتاب يدرس العلوم الطبيعية واللغوية. لأنهم لم يختبروا مفرداته وأبعاده الروحية ولم يختبروا تعلقاته بذات النفس البشرية.

قرأت مقالاً لأحد هؤلاء يتكلم عن الاستغفار.. أرسله لي أحد الإخوة يسأل عن مصداقية محتواه..

قرأت المقال وإذا به يحتوي على كم هائل من التحاليل اللغوية بشأن الاستغفار وأنواعه وتشعباته، ومتى نقول كذا ومتى نقول كذا.. والتي ينزح كثير منها إلى الآراء الشخصية وليس إلى حقيقة قرآنية..

حين انتهيت من قراءة المقال.. تذكرت كلمات المؤمنين الطيبين، والمعلمين الراشدين، وأهل الله المخلصين.. تذكرت كلمات الأولياء والمعصومين.. تذكرت كلمات الأنبياء والمرسلين والصديقين.. تذكرت كلام الله.. بخصوص الاستغفار كم هو بسيط وجميل وهادئ ورزين، يفهمه القريب والبعيد، العالم والجاهل، الواعي والبسيط.. فقلت في نفسي لماذا كل هذا التعقيد؟ لماذا نجعل من الاستغفار حجاباً في الوقت الذي ينبغي أن يرفع هو الحجاب..

ما نفع أن نعلم كل هذه المعلومات عن الاستغفار ونتغلغل في دقائقه دون أن نتعمق بمفهوم الروحي أو نلامس حقيقته الباطنية؟

أثناء سير نبي الله موسى (ع) في الطريق سمع راعيا يردد هذه الكلمات: "إلهي يا من تصطفي من تشاء، أين أنت حتى أصبح لك خادماً فأصلح نعليك وأمشط رأسك وأغسل ثيابك وأحمل الحليب عنك، وأقبل يدك اللطيفة وأنظف مخدعك حتى يجيء وقت المنام، يا من فداؤك كل أغنامي، ويامن لذكرك حنيني وهيامي". فالتفت إليه موسى (ع) بعد أن سمع كلامه فقال له: "مع من تتحدث أيها الرجل؟"، فقال الراعي: "مع ذلك الذي خلقنا، مع من ظهرت بقدرته هذه الأرض وتلك السموات"؟.

فنهره موسى وقال له: "حذار، إنك قد أوغلت في الكفر وما غدوت بقولك هذا مسلماً، ما هذا العبث وهذا الهذيان الذي

تقوله، كيف تحدث الخالق بهذه الكلمات التي لا تليق به"، فندم الراعي أشد الندم على ما كان يدعو ويناجي به ربه ومزق ثيابه وتأوه ثم انطلق مسرعاً إلى الصحراء.

فأوحي الله إلى موسى: "لقد أفقدتني صديقاً وأبعدت عني واحداً من عبادي، فهل أتيت لعقد أواصر الوصل، أم أنك جئت لإيقاع الفراق، لقد وضعت لكل إنسان سيره، ووهبته مصطلحاً للتعبير، يكون مدحاً على حين أنه يكون في اعتبارك ذماً، ويكون في مذاقه شهداً وهو في مذاقك سماً. يا موسى أشعل في روحك نارا من العشق، ثم احرق بها كل فكر وكل عبارة.. ان العارفين بالآداب نوع من الناس، والذين تحترق نفوسهم وأرواحهم نوع آخر، إن للعشاق احتراقا في كل لحظة، ولا يفرض العشر والخراج على قرية خربة.. فلو أنه أخطأ في القول فلا تسمّه خاطئاً، وخطأ المحب خير من مائة صواب".

سمعت.. وقرأت.. وعاشرت أناساً وصولوا إلى مراحل روحية غاية في الروعة والجمال.. رأيت من بركاتهم الكثير.. لم يكترثوا لكل التعقيدات المفتعلة والآراء المستحدثة.. كانوا يستغفرون الله بالأوراد ويستشعرون ما يقولون ويثقون بمن ينادون ويرجون.. فقط هذا كل شيء..

علو همتهم الداخلية كان نابعاً بأن الطريق الموصل إلى الله أمامهم مباشرة، ما يمنعهم عنه إلا مراقبة سلوكهم.. أما أورادهم فتكون هي المعاول التي تسوي الطريق أمامهم.

لقد أصبح تشعب الموارد سمتنا البارزة.. فكل يوم نحن في شأن.. نسترق السمع من هنا وهناك.. كل يوم في لبس جديد تتجاذبنا الأطروحات الجديدة التي قد لا يعمل بها حتى قائليها.. ولكننا ننبهر ونتأثر بها معتقدين أنها قد تنقلنا إلى وعي متطور أعلى..

ناسين أو متناسين أو غافلين أن كل المعتقدات والأوراد والأفكار تبقى في حالة كمون ما لم تـتـفعل في ذواتنا وتنقش في أرواحنا.. ولأننا نأخذ كثيرا من المعتقدات والأفكار الروحية كمعلومات فقط ولا نُفَعلها إلى درجة اليقين في ذواتنا، فمن الطبيعي أن تأخذنا رياح كل أطروحة جديدة تؤثر في منظومتنا الفكرية والسلوكية.

نكرر دائماً ونقول لنرجع إلى أصولنا بمنهجه الروحي البسيط ولكن العميق.. والعميق جداً في نفس الوقت..

يكفينا أن نعلم أن الاستغفار طهارة للنفس من كل المتعلقات السلوكية والفكرية.. الاستغفار هو المحاة التي تمسح غمائم الحجب التي تحول بيننا وبين الله.. لا تكفي نية الاستغفار وحدها، فالذكر المتوج بأسماء الله الرحمن الرحيم الحي القيوم ذو الجلال والإكرام مع استشعار حالة الحضور وقت الذكر من شأنه أن يفتح أبواب السماء لك ليس في المناسبات والأشهر العظيمة فحسب.. بل في كل وقت استشعرت حالة الحضور المقدس.

عالمنا.. بما يحويه، وبكل مكوناته، هو الكتاب المرئي المصور السهل البسيط الذي جعله الله بين أيدينا.. فهل تستفيد منه لنكون من أولي الألباب.

الفهـــــــــرس

- ☐ الإهـــــداء 5
- ☐ المقدمة 5
- ☐ اليقظة الروحية 13
  - ▪ سر الحياة 24
  - ▪ الصحوة أو اليقظة 27
  - ▪ أهداف أم إنجازات 30
  - ▪ مفارقة الأهداف والتوجهات 33
  - ▪ الحج الأكبر للأرواح 36
  - ▪ أرواحنا انعكاس للعالم الآخر 39
  - ▪ الوفاء بعهد الأرواح 43
  - ▪ اعرف هدفك بنفسك 46
  - ▪ الخروج عن النص 50
  - ▪ انعكاس الصحوة للخارج 52
  - ▪ ماهية الأهداف الروحية 55
  - ▪ سيناريو الحياة 57
  - ▪ وعي الإشارات والدلالات 66
  - ▪ كيف تحدث اليقظة الروحية 72
    - ○ الشخـصية 72
    - ○ النفـس 73

- الـروح 74
- مشاعر اليقظة 83
- اليقظة.. نقلة نوعية 87
- زمن الصحوة 88
- هل اليقظة مطلب ديني؟ 90
- لماذا نقول إنه رحمة للعالمين؟ 93
- النعيم وتجلي صفات الروح 97

☐ الوعي الجسدي والتألق الروحي 103
- تفعيل الاعتقاد 113
- تفعيل أداة الاتصال وهي اللب 114
- الإلهام 118

☐ تيقظ لإدراك علة الخلق 122
- لتكن لدينا بصيرة كونية 130

☐ من طرق الباب.. فُتح له 133
- الركيزة الأولى: العبادة 138
- الركيزة الثانية: الحب 140
- الركيزة الثالثة: تناغم العالمين 142
- فالركيزة الرابعة: تتعلق بالدور 144
- ولكن ما الذي يمنع استمرار طرقنا للباب؟ 147
- الهم الواحد 152
- ضيافة مؤقتة 162

- ماهية الحب 175
- الحب.. الكيان الخارجي 182
- القلب موطن الحب 182
- الحب والخلق الأول 185
- النفس تقتبس الصفات 193
- أعظم مكتشف في الوجود 201

☐ علاقة الروحانية بالقوانين الطبيعية والسنن الكونية 205

- ضرورة الانسجام والشعور والتماهي مع الطبيعة 205
- انعكاس القوانين الطبيعية على القوانين الروحية 212
  - درجة الغليان 212
  - الوسطية وحركة البندول 216
- وحدة القوانين وسنن الخلق في كلا العالمين 220

☐ الحياة مختبر الروح 233

☐ ابحث عن سلامك الداخلي 242

☐ الخدع الذهنية في التأمل 251

☐ ما الذي يقود حياتك؟ 261

☐ القلب.. والإمداد الغيبي 264

☐ فقط.. أهذا كل شيء؟ 269

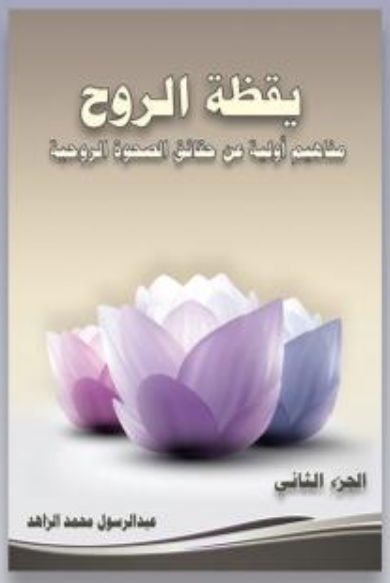

تكشف اليقظة الروحية عنا الغطاء قبل أن يُكشف بعد الموت تلقائيا، وهذا الكشف يجعلنا نفهم وندرك الأسس التي تقوم عليها السنن الكونية والنواميس الإلهية.. يبصرنا بالحقائق والمرتكزات التي تبنى عليها الأديان.. يعرفنا برموز الإشارات ودلائل الآيات.. يقربنا من فهم الخطاب القرآني.. يشعرنا بسريان روح الحياة بأعماقنا.. يخلق فينا قدرة التواصل الروحي ويجعلنا نفهم سر الحياة، والأهم من هذا كله يقربنا من رب السموات..

لذا فحين نصحو من غفلتنا وندرك عن يقين أننا أرواح في تجربة بشرية مؤقتة ستقوى بصيرتنا في استقصاء الحقائق الوجودية والتي من أهمها علة وجودنا الأرضي وأهميته في تطورنا الروحي، فبدون يقظة روحية لن نحظى ببصيرة متوقدة، وبدون بصيرة لن نعرف أهدافنا الحقيقية في الحياة..

وحين تنكشف عنا حجب الأنا وتسقط الأقنعة وتتهاوى أوثان النفس ستبدأ مرحلة محاكاة الباطن حيث ذاتنا النقية وروحنا الرحمانية.. لا نعبأ حينها بأحداث العالم المريرة، لأننا سنكون في حالة من الوعي الروحي بمقدورها انتشالنا من كل منغصات الحياة ومضلات الفتن..